أول مارس سنة ١٩٣٢
شـــوال سنة ١٣٥٠

المعرفة

الجزء ١١
السنة الأولى

مجلة — شهرية — جامعة
لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول
عبد العزيز الإسلامبولي

المجلد الثاني
شعارها : اعرف نفسك بنفسك

هديتنا الاولى

ابن سينا والغزالى

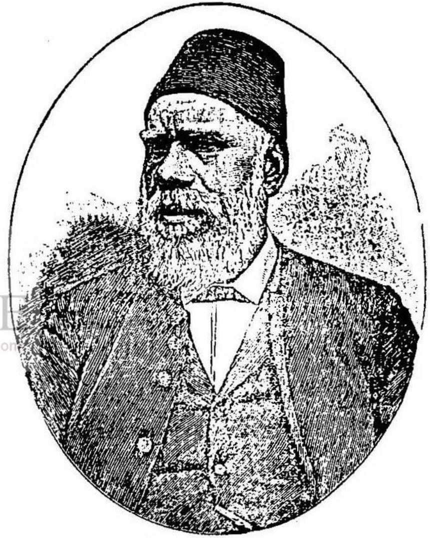
بقلم الاستاذ حامد عبد القادر
أستاذ علم النفس والتربية بدار العلوم وكلية أصول الدين

كتاب ممتع وبحث مستفيض توفر عليه الاستاذ حامد عبد القادر ، بأسلوبه الطلى ، وتفكيره السديد ؛ وهو يصور لك ما أنتجه هذان الرجلان العظيمان أروع تصوير ، بما أذاعه من ترجمتهما ترجمة دقيقة وافية ، حلل فيها فلسفتهما وآراءهما الاجتماعية والدينية والعلمية والطبية والصوفية وغير ذلك.

وليس من شك فى أن هذا الكتاب يعتبر بحق فتحاً جديداً فى الثقافة العربية ، وأنه جدير بالعناية والتقدير من المعلمين والمتعلمين ، والأدباء والمتأدبين ، وجمهرة المشتغلين بالثقافة الاسلامية.

وقد أخذت «المعرفة» فى طبعه ، وستقدمه هدية إلى من سددوا اشتراكها عن السنة الأولى.

ولا نحسب إلا أن ذلك الكتاب سيكون فرصة تحفز المتأخر فى اشتراكه على تسديده لاقتناء هذا المؤلف الجليل .



على باشا مبارك
لمناسبة بحث الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عنه



الأمير سعيد شامل
زعيم مسلمى قفقاسيا لمناسبة حديثه عن الشرق



الأستاذ أحمد حسن الزيات
كاتب « تاريخ ألف ليلة وليلة »



الأستاذ محمود تيمور بك
راجع قصة « الصعلوك »



الشاعر النابغة الأستاذ محمود ابو الوفاء
راجع قصيدته فى مهرجانه



الأستاذ انطون بك الجميل
لمناسبة مقال «الكتاب والأدباء المعاصرون»



الأديب أحمد حسنين القرنى
اقرأ بحثه عن بشار



السيد محمد السعيد الزاهرى
لمناسبة مقاله « فى المغرب الأقصى »

مع الأمير سعيد شامل

الشـــــرق كما أراه

وثبات الشرق — انتصار المستعمرين — أمراضنا — كيف ننجو — المؤتمر الاسلامى — شخصيات — حياتنا — دعوة إلى النجدة

حديث خاص بمجلة (المعرفة)

لم يفلت من إسار الشباب ، فما يزال فى دخيلة مراحله وفى صميم خطواته ، له النظرة السديدة والرأى السديد، وله دأب كدأب الأسود فى مجالدة الفريسة، ومناهضة الصائدين ، يستطيع أن ينفذ إلى نفسك، لأنه فى آرائه لا يتدافع مع الخيلاء ، ولا يساير الصلف والكبرياء: كلما سألته ، كلما أتاح لك سؤالك الطلوع على ناحية جديدة فيه ، فهو علامة فهامة ، مافى ذلك من ريب .

وكلما لقيته كلما جابهك منه لون من ألوان التواضع وأى تواضع ... إنه ذلك الذى يدعوك الهدوء فى جانبه - حتى لتحس من أعماقك أنك لم تستروح فى جلستك روائح أمير خطير .... ! ولكنه نبيل حتى لتلمس النبل وكأنه حاسته السادسة .

ذلك هو الأمير الشركسى الشاب .. سعيد شامل .. !

لقيناه فى فندق (الكونتننتال)، وكنا لقيناه من قبل فى دار العروبة فتحدثنا إليه وتحدث إلينا، والحق أن حديثه قد استحال إلى دين، فكان لنا من حديثه الممتع ثروة نافعة ندفع بها إلى قراء « المعرفة » مغتبطين .

وثبات الشرق :

قال الأمير : « لقد كانت للشرق وثبات هائلة حافلة بالخير والسداد ، كان ينبغى أن يدفع عنه إسار الاستعمار ، فأخرج لهذا الكفاح من بنيه جنودا أقوياء ، وقادة أشداء ، ورؤساء قد انتهوا من قمة الدراية إلى الأوج .

ولا أستطيع أن أعدد لك ، وأحصى عليك من أسماء أولئك الأبطال ومن أعمالهم ، فقد يستنفد هذا التعداد وذلك الاحصاء جوانب « المعرفة » كلها ، ولكنى أذكر لك ثلاثة أبطال وقفت الدنيا على رءوسهم لتبلوها وتدفع بها إلى الحضيض ، فلم تفلح الدنيا ، ولم تنفع فى سحقهم معاولها ! أولئك هم : أبو الأسرة الملكية فى مصر ساكن الجنان محمد على باشا ، والمرحوم المغفور له الأمير عبد القادر الجزائرى ، وجدى المغفور له الأمير شامل ... لقد وثب أولئك الرجال الثلاثة بالشرق وثبة كبرى ، فهذا محمد على باشا ، قد خلق مصر حين أزاح عنها كابوس

الجهل ، وهـذا هو الأمير عبد القادر قد كافح الفرنسيين وجالدهم متفانيا مستخفاً بالعذاب ، وهذا جدى : ماذا أقول عنه ؟ لقد غامر بنفسه فى أتون الحوادث راضياً أن تبيد عنه النعماء فى الدنيا ، لتكون له فى حلبة الجهاد جولات الرجل الأشد .

انتصار المستعمرين :

على أنك تسألنى : لماذا انتصر المستعمرون إذن ؟ إذن فاليك الجواب :

لقد كان المستعمرون يحاربوننا بسلاحين: سلاح الحرب المألوف ، وسلاح العلم الطارىء ، وإذا كنا قد جالدناهم بسلاح الحرب وحده ، فقد قدر لهم أن ينتصروا ، لأنهم دفعوا إلى معاقلنا سلاح العلم أيضاً ... كنا نحاربهم بالحديد والنار ، وكانوا يحاربوننا بالحديد والنار .. والعلم : كنا نقاتلهم بهذه السيوف التى ألفتها الميادين ، ولكنهم قاتلونا بسيوف أخرى ، علمتنا أن لهم أدمغة توفرت على مالم نتوفر عليه من فنون ..!

وما يضيرنى أن أقول لك إن الشرق فى هذه الفترة كان يجتاز محنة وبيلة حتمت عليه الرضوخ لاسار المستعمرين .

ذلك أن غشية الجهالة كانت تعمى عيونه ، وتوقر آذانه ، وتدفع بتفكيره إلى الحضيض.

ولقد بقيت له هذه الظاهرة ، ظاهرة الجهل والعقوق ، حتى أزاحت أثقالها عليه ، فكان له من ورائها إسفافاً فى الذلة ، وإسرافا فى الهوان .

أمراضنا :

وتهيب بى هذه المرحله التى أذعتها عليك من مراحل الشرق ، تهيب بى إلى تسجيل أمراضه ، أو تشخيصها كما يقول الأطباء ، وقبل أن أسجلها لك ، وقبل أن أشخصها ، أريد أن أقرر حقيقة لا لبس فيها ، وهى أننى أعنى بالشرق ، مايتصل منه بالاسلام وحده .

إن هذه الأمراض من الكثرة حتى لتروع الطبيب الصناع ، وإنها من الدقة حتى ليخطىء فى استئصالها مبضعه ، ولكن الأيام وحدها كفيلة بانتزاعها من ذلك الجسم الطيب العنصر ، المتين البناء .

فى الشرق : انصراف هائل عن تعاليم الاسلام ، وانكباب هائل على مدنية الغرب ، وفيه تقاطع بين الأسرة ، وتنابذ بالألقاب ، وتفاخر بالأنساب ، وتغلغل فى صميم المباهج ، وتوفر على مستكره البهرج ... أما انصرافه عن تعاليم الاسلام فان ذلك يبدو لك فى أخذه بقشورها ، وتقاعده عن استكناه بواطنها ، وإنه يبدو لك فى لهوه وعبثه وفى تمزيق كلمة الاسلام بين أطرافه ، لأنها لم تعد الكلمة الجامعة كما كانت فى روعتها وروائها من قبل ؛ وأما انكبابه على مدنية الغرب ، فان ذلك يبدو لك من مظاهر حياة بنيه ، تلك الحياة التى تتلمس فى أبوابها وجوه الزينة والأناقة ، دون أن تأخذ من هذه المدنية بوجوهها النافعة وروائعها الفنية الخالدات .

إن حياة الأسرة فى الشرق صورة قلقة لاتكاد تطلع فيها على جانب مستقر ، أو لون هادىء : فهلا يثقلك أن تعلم بأن الوالد لايغرس فى ولده من طفولته روح الدين ، ولا روح الكرامة ؟

وهلا يثقلك أن تعلم بأن الابن كثيراً مانازع أباه وخرج عليه ، وانتقص منه ، وتربص به الدوائر ..؟ إنك ترى فى الاسرة الشرقية تبايناً فى الميول ، وتناقضاً فى المشارب ، وعداء فى اتجاهات أفراده ، لأنهم لم ينتهلوا من معين واحد ، ولم يصيبوا حظهم فى الثقافة من رأى واحد ...

وإذا كانت هذه الحقائق مؤلمة حتى لتدفع الحنق إلى كثير من النفوس ، فأن الافصاح عنها خطوة سديدة قد تجدى وقد تنفع .

كيف ننجو ؟

الحق أن هذه الأمراض تستنند من عقولنا بقدر ماتستنند من حياتنا ، فهى تجدب العقول ، وتزيد فى متاعب الحياة ، ولكننا نستطيع بشىء من الجلد وشىء آخر من التعاضد أن ننجو من وعثائها وضيرها.

أريد من المسلمين أن يعلموا بأن دينهم قد وسع كل شىء ، وأن شعائره إذ يتبعونها ويفيئون إلى ظلها الوارف قد تقيهم مصارع السوء ، وأن تعاليمه فيها من وسائل التربية الحديثة ما يحقق لهم وجوه النفع فى حياتهم على ضروبها ، من مادية وروحانية ، ومن ثقافة وتهذيب . وأدعوهم ليفكروا ويفكروا طويلا فى سير الشعوب ومنطق الحوادث التى جابهت الأمم حتى يأخذوا عن هذه السير مافيها من عبر وما تضم من عظات ، وحتى يصيبوا من منطق الحوادث العالمية ما يكون لهم منه سبيلا يدبون فيه ، ومنهلا يعبون منه ، وروحا يتجهون به إلى سبيل المثل العليا.

لقد أفهم أن يأخذ المسلمون من حضارة الغرب نواحيها الدالة على شخصية أبنائه ، تلك الشخصية التى تتركز فى صنائعهم جميعاً ، ولكنى لا أستطيع أن أفهم علة الأخذ بنقائص الغرب وعيوبه ... هناك جمعية الأمم ، وهذه الجمعية ماتكاد تنفض حتى تجتمع ، وما تكاد تنتهى من دورة قديمة حتى تبدأ دورة جديدة ... هى برلمان عالمى دائم العمل ، دائم الجهود .

المؤتمر الاسلامى :

وهنا ... لا أريد أن أثقل عليك فأحدثك طويلا عن هذه العثرات التى توفرت على طريق المؤتمر الاسلامى المتواضع ، حتى كادت تدفع به إلى الرمس قبل أن يشهد الضوء ، ولا أريد أن أحدثك طويلا عن هذه الروح المتقاعدة التى دعت المؤتمرين إلى تسجيل كبيرة كبرى وهى أن لايعقدوا مؤتمرهم إلا كل عامين ! . . نعم لقد قرر المؤتمرون ذلك وهم يعلمون أن

جئيرهم لاسبيل إلى نفوذه فى الأعماق إلا أن يبقى داوياً كثير المصف ، وهم يعلمون إلى ذلك أن جلال المؤتمر لن يكون الجلال المنشود إلا أن تتم عليه نعمة العمل النافع فى فترات متقاربة ... إن وسائل النقل فى العالم قد انتهت فى أسباب السرعة إلى الشأو ، فقد أصبح ميسوراً عليك أن تجوب الدنيا فى بضعة أيام ، وأن تتحدث إلى أطرافها فى ثوان معدودات ، وما من ريب فى أن التحكك بمشاق الطريق ، ووعثاء السفر، قد أصبح فى عرفنا الحاضر ، وكأنه حديث خرافة !

ألم يكن فى وسع المؤتمر إذن أن يقتضب من عهد أجازته ؟

شخصيات :

وثمة ناحية أخرى أريد أن أسجل فيها نقدة جديرة – فيما أرى – بالتقدير والتحقيق . فقد حضرت المؤتمر الاسلامى واطلعت على شخصياته ولابستها وعملت معها ، وإنى لأصرح لك مخلصاً بأنها كانت شخصيات نافعة لها قيمتها، ولها روحها الوثوب، ولها أفكارها السديدة ؛ ولكنى تلفت حولى رجاء منى أن أطلع على شخصيات أخرى تشبه هذه الشخصيات التى تجتمع فى عصبة الأمم، فلم أعثر منها فى المؤتمر إلا على النذر اليسير ... إن فى المسلمين شخصيات بارزة لها الخطر الموفور ، والكلمة الأخيرة ، والقوة والنفوذ ، ولقد كان حقاً عليها أن تنفر إلى المؤتمر فى بداءة خطواته ، ومستهل مراحله حتى تزيد فى قوته ، وحتى تجعل لقراراته من التأثير ما يوفر عليها مظاهر الجد .. .. إنك ترى أن عصبة الأمم التى تجتمع فى كل عام بضع مرات فى عدة مدن .. ترى أنها تزدحم فى اجتماعاتها بالشخصيات الكبيرة ما بين وزراء وسراة وعلماء وأدباء .. .. أما المؤتمر الاسلامى فقد كانت شخصية العلماء فيه أبرز ظهوراً .. وهو لم يجتمع – فى زعمى – لكى يتحدث فى شعائر الدين وحدها ، ولكنه اجتمع ليظهر العالم على أن الاسلام قد رفع رأسه، وأراد المضى فى حلبة الجهاد ليكافح الصهيونية والاستعمار والالحاد والعقوق .. ! وفى يقينى أن هذه الأبواب الشاقة كان من حقها أن تنفرج لينفذ إلى باطنها عديد من شخصياتنا الكبيرة.

إنى أرى أنه من خير عظماء المسلمين ، ألا يؤمنوا فى أنفسهم أنهم قادة لا تتطاول إلى أقدامهم دوافع الحياة وما فيها من بواعث تدعو إلى العمل ، وإنما الخير لهم كل الخير أن يؤمنوا بأنهم — قد وضعوا فى مكانة الذروة — هداة للناس ومبشرين للعالم . . . أجل إنهم مبشرون لو انصفوا ، فهكذا شاءت لهم الأقدار ، ومن حقهم أن يستيقظوا من سباتهم ليعلموا أن الأقدار حين رفعتهم إنما أرادتهم على أن يدفعوا الثمن جهاداً وتضحية فى ذمة دينهم القويم ....

حياتنا :

أعود به الى جانب عام تتلقفه وجهة شخصية لتفهم عنى كل شىء ... أما أنه جانب عام

فذلك لعوده إلى الاسلام فى صوبه الأخير ، وأما أنه جانب شخصى فذلك لأنه يتناول البلد الذى خرجت عنه ...!

وما أريد أن تذرف الدمع ، أو يذرف واحد من قرائك دمعاً ، وإن تكن النكبة مما تهون فى التوجع منها سيول الدموع .

فان هناك ـ هناك بين أحضان البلاشفة ـ ثلاثين مليوناً من المسلمين قد دفعت بهم البلشفية إلى مواقف التهلكة ، إنهم يتبرمون من شيوعية الروس ، ولكن جزاءهم على تبرمهم المقت والموت والعذاب والتشريد .

لقد هوى الروس بمعاولهم على مساجدنا فى (القفقاس وايدال أورال) فخربوها ، ولقد مزقوا المصاحف وجعلوا من كتب الدين طعاما للنار ، وحقدوا على اللغة العربية فأزهقوها ؛ ولقد أصارتنا الشيوعية ولا رجاء لنا فى تقويم أبنائنا وفق مانشتهى ؛ لأنها تدرس لهم تعاليمهم بقوة الحديد والنار ؛ ولقد ضربت على أيدينا بيد من فولاذ لأننا أبينا عليها أن تمضى بنا بعيدا عن ديننا الحنيف وتعاليمه الرشيدة ، وماذا يجدى القول بل ماذا يجدى الاحتجاج حيال أمة قوية من شعبة ضعيفة لا نصير لها . ؟

دعوة إلى النجدة :

ليس على أن أعيد عليكم فظائع الروس فى أمتنا ، فقد علم بها كل ناطق بالضاد ؛ ولكنى أهيب بكم أن تدفعوا إلى قراء « المعرفة » ذلك الأمل الذى أنشد ، والرجاء الذى أريد.

آمل فى كل مسلم أن يتوجه باحتجاجه إلى مراجع المظلومين ؛ أجل ! آمل فى كل مسلم أن يدرك بأن ثلاثين مليوناً من إخوانه يسامون فى بلدهم الخسف ، ويتبلغون لا باللقمة السائغة ولا بالكلمة الطيبة ، وإنما طعامهم من زقوم ، ومقامهم من الذلة فى حضيضها .. فاذا ما احتجوا على مايلحق بهم من عذاب ، فقد تخف عنهم النكبة ، أو ترحل عن كواهلهم الأعباء ، أو يجدون فى جهادهم شيئاً من السلوى ، أو يفطن عدوهم الألد — وهو عدو العالم بأسره — إلى جريرته فيضعف من حدتها ، ويقلل من شدتها .

لقد كان احتجاج الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بلسما لهذه الجراح ؛ وحياة لهذه الجهود التى احتسبناها إلى الموت ، ولكنى أريد أن يتأثره كل مسلم يدب على الارض ، وآمل أن تكون « الشخصيات الكبيرة » بين المسلمين ، قد فطنت إلى واجبها حيال هذا المصاب ، فان فى صوتها دويا ، وفى جأراتها روحا قويا ....!

رسائل باريس

للاستاذ عثمان أمين

> يعرف قراء «المعرفة» الاستاذ عثمان أمين عضو بعثة الجامعة المصرية بجامعة السوربون، أديباً فذاً بما قرأوا له من الفصول الممتعة والمقالات القيمة.
> وقد أرسل الينا هذه الرسالة الخاصة، فآثرنا أن نشرك معنا قراء «المعرفة» الاعزاء في اعجابنا بما فيها من آراء وحياة؟
> المحرر

... ولا أدرى ماذا أكتب، ولا كيف أعتذر من تقصيرى عن الكتابة إليك.

والحق أنى معترف بهذا التقصير، ولكنه عن حسن نية؛ وأنت تشاركنى فى أن الأعمال بالنيات، ولاشك أنك تعلم ما للنية من مقام فى نظر الأديان وفى تقدير الأخلاق، وفى اعتبار القوانين — أفأعتذر إليك إذن بضيق الوقت أم بكثرة العمل، أم بالانشغال بالتعود على أساليب من الحياة جديدة، أم أزعم لك أنى كنت مريضاً ..؟ قد يكون هذا أو بعضه ولكنه ليس بمانع؛ ولا أنا أحاول الاعتذار بشىء منه. ولكنى أكتفى فى هذه العجالة بأن أرسم لك نقطاً سريعة متقطعة ومضطربة فى بعض الأحيان، ولكنها قد توقفك على بعض الحقيقة من الأمر الذى أنا فيه:

إذن فاعلم يا أخى أنى وإن كنت منذ جئت باريس معافى الجسم موفور صحة البدن، إلا أن نفسى قد عانت آلاما وهموما وأوهاما.

رأيت باريس واطلعت بنفسى على بعض نواحى الحياة فيها، فسخطت عليها وبرمت بها وعافتها نفسى، حتى خيل إلى حينا أنه قد يكون من الخير لى أن أغادرها لأنجو بنفسى مصونة محفوظة؛ ولكنى تماسكت وتجالدت، فقضيت الشهر الأول فى شىء يشبه الأزمة النفسية؛ ولكنها كانت مضنية مرهقة، فلم أكن أطمئن معها إلى مأكل ولا مهجع ولا حل ولا ارتحال..

نزلت فى أحد البنسيونات فى الحى اللاتينى، وأفرغت الحقائب، ورتبت الكتب، تأهبا للعمل الذهنى الذى نكرس له حياتنا، والذى بممارسته لذتنا وسعادتنا؛ فوجدتنى لا أستطيع مطلقا أن أفكر تفكيرا هادئا مادمت فى هذا البنسيون! فأولئك الفتيات أو النسوة يجرين ويتسابقن فى الردهات، والكل فى هرج ومرج، والرقص فى الحجرات على قدم وساق، فأنزل ملتمسا الحدائق فلا أظفر فيها بالهدوء لأن عباد الله هناك لايجلسون هادئين، بل يأبون إلا أن يكون الغزل والمناجاة على مرأى ومسمع من أمثالى من عباد الله الهادئين القانعين..

وهذا الفتى يعانق الفتاة ويقبلها، أو قل على الأصح إن الفتاة هى التى تقبله (فقد شاهدت

فى حالات كثيرة أن النساء يبدأن بالقبلات) ، وهذه المرأة التى تدنو من الكهولة تترك طفلها يلعب وتتشاغل هي بالتحدث إلى رجل تستلطفه ، أوشاب تجالسه .. الخ - فاذا كان الليل وعدت إلى البنسيون وآويت إلى مضجعى طلبا للنوم والراحة لم أجد اليهما سبيلا، ومنذا الذى يستطيع يا أخى أن يطبق جفنيه، وأصوات الناس فى الحجرات المجاورة مسموعة، ونغمات النساء موصولة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، والأسرة تضطرب وتهتز فى جوف الليل فى غير تكتم ولا تستر ولا احتشام ...؟

شكوت إلى صاحب البنسيون فأجاب بأنهم شبان .. فقلت له وشابات أيضا ؛ فقال هذا مفهوم، لأن الشاب لابد له من شابة ..

وهكذا فجور متنقل مباح وإثم مشهور غير مستور، وضروب الاغراء والفتنة مبثوثة هنا وهناك ، وفى كل مكان : فى البيوت وخارج البيوت ، وفى المتاجر والمطاعم، والحدائق وبيوت السينما والتمثيل ، وحتى دور العلم والعياذ بالله ، وفى حجرات المطالعة وفى المكتبات العمومية ، وفى مركبات المترو بالخط العريض (لأن المترو هنا من أشهر أماكن المواعيد والرندفوهات!!) فالى أين المفر ؟ وأينما سار الانسان فى باريس سبقته طلائع الفتنة وانتشرت من مكامن الرجس فى مظاهر التأنق والظرف واللين ..

قد يعيب بعض الكتاب الأوربيين على المسلمين أن يتزوج بعضهم أكثر من امرأة . وفاتهم أنهم هم قد يتخذون على نسائهم فى العام عشرات ...

وقد يطول بى مجال القول إذا أردت أن أحدثك عن مبلغ جشعهم وحبهم للمادة .. يلتمسون المال بكافة الطرق؛ نساؤهم وبناتهم وأولادهم يعملون للمال .

والبقشيش آفة منتشرة جداً فى باريس وبشكل شنيع مرذول ، وللباريسيين به ولع شديد غريب؛ ويطالبون به بشكل أشنع يتنافى والأخلاق والكرامة، ولو قد حدث فى مصر أو فى بلد من بلاد الشرق شيء مما يحدث فى فرنسا مثلا بشأن الجشع فى الحصول على النقود، لأقام كتاب الافرنج الدنيا وأقعدوها، ولاستجاروا بالسماء والأرض من وحشية الشرقيين ... وما إلى ذلك من الصفات التى يخلعونها على خصومهم المساكين المظلومين ..

أنت فى باريس لابد أن تدفع للفرنسى بقشيشاً فى كل خطوة تخطوها ؛ ففى السينما وفى التياترو تدفع بقشيشاً للشخص الذى يتولى إجلاس المتفرجين فى أماكنهم ؛ وهو يقف بجانبك ولا يغادرك حتى تدفع له « المعلوم » فاذا كان أكثر من عشرة فى المائة قال لك « مرسى » وإذا كان عشرة فى المائة (تمام) انصرف بدون « مرسى » . ولا بد أن تدفع كذلك بقشيشاً فى المطاعم مهما كنت زبونا مزمناً .. وإذا ركبت أتوموبيلا (تاكس) فلا بد أن تدفع علاوة على الأجرة المقررة بقشيشاً للسواق لا يقل على كل حال عن عشرة فى المائة ، وساعى البريد

(البقية على الصفحة رقم ١٢٩٦)

الاسلوب القصصي

بقلم الدكتور أحمد ضيف

تحسب الأسلوب القصصي من أعظم أنواع النثر فى الكتابة الأدبية عند جميع الأمم؛ ولكن أدباء العرب لم يعنوا بهذا الأسلوب إلا فى العصر العباسى، إذ لم يكن للقصص أثر يذكر فى عصور اللغة العربية قبل ذلك - ولاتحسب قصص الزباء وسطيح وأخبار الجن وأيام العرب من هذا النوع، لأن هذه قصص تاريخية ليست مكتوبة بأسلوب أدبى منمق، ولا بقلم كاتب واحد معروف، بل رواها الرواة على أنها حوادث من التاريخ، وغير وبدل كل واحد فيها على حسب رأيه وأسلوبه.

على أن الأسلوب القصصى ظهر فى آدابهم وبلاغتهم منذ ظهر أول كتاب فى هذا اللسان المبين، وهذا الكتاب هو القرآن الكريم؛ فقد جاء القرآن بكثير من القصص التى تحسب من نماذج الكتابة البليغة، وأساليبها الفنية البديعة، المحتوية على كثير من الأحوال الاجتماعية والتاريخية لقصص: فرعون وموسى ويوسف وإبراهيم وعيسى ومريم وأصحاب الكهف وسليمان والنمل وغيرهم.

لكن لم ينسج على منوالها أحد من الكتاب، لأن الأدباء ونقاد الأدب، لم يرشدوا الكتاب إلى هذا النوع من الكتابة الفنية، كما أرشدوهم إلى نظام القصائد القديمة، وجعلوها نماذج للشعراء، ولم يمر بخاطر كاتب أن يجول فى هذا الميدان؛ ولكن كان لظهور بعض القصص التى نقلت عن الهندية والفارسية أثر عظيم، فقد نشرت فى الأدب العربى بأساليب مختلفة وفى مواضع مختلفة بعضها أعجمى وبعضها عربى.

وسبب انتشار هذه القصص، ولا سيما الأعجمية منها، أن اندس بين العرب أيام الدولة العباسية كثير من الأجانب الدخلاء وأكثرهم من العامة الذين يميلون الى الأخبار الخرافية والأخيلة الواسعة.

وكان التجار الذين يترددون على الهند وفارس وبلاد العرب يحملون شيئاً كثيرا من هذه القصص وينشرونها فى المجامع بين العامة والخاصة، حتى سرى الميل إليها فى نفوس الجمهور، فأخذوا يحاكونها فى أحاديثهم، وأخذ الخاصة ينسجون على منوالها فى بعض كتاباتهم، ثم زاد الناس على هذه القصص، وأضافوا إليها شيئاً من صور حياتهم الاجتماعية والسياسية؛ وهكذا أخذ ينتشر هذا الأسلوب القصصى بين العامة، حتى امتلأ باللهجات العامية فظهرت فيه حكايات

هي خليط من الحياة الفارسية والهندية والاسلامية؛ واختص بعض الكتاب إبان العصر العباسي بكتابة الأسمار والأساطير على ألسنة الناس والطير والبهائم؛ فمن هؤلاء الكتاب: عبد الله بن المقفع، وسهل بن هارون، وعلى بن داود؛ ومن أشهر ما كتب في ذلك أو نقل إلى العربية كليلة ودمنة.

ويجمع هذا النوع من القصص كتاب «ألف ليلة وليلة» الشهير، الذي هو مجموعة قصص مختلفة من أصل هندي وفارسي أضيف اليه شيء من الحياة الاسلامية، وقد كتب بأقلام مختلفة في أزمنة وأقطار مختلفة، ثم انتزعت منه عدة قصص على حدة وانتشرت بين قراء العربية.

وهذا الكتاب أخذ عن أصل فارسي اسمه «هزار افسانه» ومعناه بالفارسية ألف خرافة؛ ولما نقلت حكاياته إلى اللغة العربية تناوله الناس وصنفوا في معناه وكتبوا على مثاله

وكان أدباء العرب يعتبرونه «كتابا غثا باردا» كما روى ذلك المسعودي في «مروج الذهب» وابن النديم في «الفهرس».

وعلى الرغم من انتشار هذا النوع، فقد بقي غريبا عن اللغة العربية الفصحى، لم يتمكن أسلوبه من نفوس الكتاب، ولم يتمش في عصور الأدب كما تمشت أنواع الرسائل الأدبية الأخرى؛ على أن أسلوبه دفع بعض الكتاب إلى أن يكتبوا بعض سير العرب وتواريخهم بهذا النمط، فكتب بعض العامة والخاصة، أو كلاهما معا قصص: عنترة، وبكر، وتغلب وغيرهم، وغلب على هذه القصص الأسلوب الخرافي الذي أورثوه من القصص الأعجمية فامتلأ بالمبالغات والخرافات، وأكثر هذه القصص لم يعرف مؤلفوها ولا كتابها، فمنها قصة السندباد البحري وقصة عجيب وغريب وقصة قمر الزمان بن الملك شهرمان وقصة الأربعين الذين ملكوا الدنيا وحكاية مدينة النحاس وغيرها مما أخذ عن الأصل الفارسي لألف ليلة وليلة.

ومنها قصة الزبرقان بن بدر وقصة الزير سالم وقصة أبي زيد الهلالي مع شرف العربان وقصة التاجر على نور الدين وقصة حسن البصري الصائغ وقصة السبع تخوت وسلطنة دياب وقصة أبي زيد وتملك الأربعة عشر من بعد قتل الزناتي وغيرها مما أخذ عن الحوادث العربية وتاريخها.

أما قصة عنترة فينسبون روايتها إلى الأصمعي في أواخر القرن الثاني من الهجرة، وهي أقرب إلى وصف الحياة البدوية من غيرها، وعلى الرغم من أسلوبها الملحون قد احتوت على كثير من أخبار العرب وأشعارهم وأخبارهم وأوصاف حروبهم وعاداتهم وأخلاقهم من كرم وشهامة وميل إلى الانتقام، كما احتوت على حبهم للشعر وفنونه وعلى جملة أحوالهم الاجتماعية والتاريخية مع كثير من المبالغة في ذلك.

وهذا يدل على أن الذوق الأدبي في كتابة القصص كانت بذوره قد بدأت تثمر في نفوس الكتاب؛ ولو أن هذه القصص وأمثالها ليست باللغة الفصحى لكانت من أعظم فنون الأدب في

اللغة العربية ؛ ولكنها بأسلوبها هذا لاتحسب من اللغة العربية الفصحى، على الرغم مما بها من الأشعار والأخبار والأمثال وبعض الأساليب الصحيحة .

ومن هذه القصص مقامات الهمذاني والحريري وما هو على أسلوبهما، غير أن هذا الأسلوب كتب بعبارة عربية صحيحة، وقد احتوت هذه القصص على شرح بعض المسائل الاجتماعية وعلى وصف بعض النفوس، ولكن لم يكن الغرض الأول منها الكتابة القصصية الفنية التي تشرح صور الحياة والاجتماع، بل كان غرض الكتاب منها على مايظهر جليا إظهار البراعة في أساليب الكتابة المسجعة، وأنواع الشعر الصناعي وتنميق الأسلوب .

على أن هذا الأسلوب القصصي المسجع، شاع في أواخر الدولة العباسية، أي وقت انحطاط أسلوب الكتابة النثرية الفنية، وتمكن السجع وأنواع البديع من نفوس الكتاب فقيد كثيرا من الكتاب باتباع الأساليب المسجعة. ومهما يكن من أمر قصص الهمذاني والحريري من حيث احتوائها على بعض المسائل النفسية والاجتماعية فهي تحسب قصصا لغوية لاشتمالها على كثير من غريب الصناعة اللفظية أكثر من اعتبارها قصصا فنية اجتماعية ؟

أحمد ضيف

رسائل باريس

(بقية المنشور على الصفحة رقم ١٢٩٣)

حينما يحمل إليك خطاباً ينتظر منك البقشيش ! والأغرب من هذا أني كنت جالساً في حجرتي أول أمس وإذا بالباب يدق ففتحت فوجدت (تلغرافجي) فسألته أن يعطيني التلغراف إذا كان لي . فقال : ليس معه لي تلغراف ؛ وإنما أتى ليأخذ الهدايا ... ولما رأيت في يده أوراقاً من ذات العشرة فرنكات فهمت نوع الهدايا التي يقصد ... وطبعاً أعطيته (اللي فيه القسمة) وأمري إلى الله ، مع أني لم يسبق لي شرف التعرف به ولم أتعامل قط مع شركة التلغراف في باريس .. نهايته، الشاهد .. ان كل شيء هنا محسوب وليس عندهم (حاجة لوجه الله) ...

***

لقد أطلت ياأخي ، فمعذرة . ومع ذلك فقد بقي في النفس أشياء كثيرة وقد يجمل بي ألا أذكرها، وإن كانت الأمثلة عليها حاضرة بالذاكرة ،ولكنها ليست مما يشرف باريس، وكلها تنطق بأن العواطف النبيلة التي كثيراً مانقرأ عنها فيما تخطه أقلام الافرنج هي هنا شيء لايعدو الصحف والأوراق ، وأن المدنية الغربية ليست في كثير من الأحوال معياراً لرقي في الطباع ولا نبل في الأخلاق ، وأن مصر وبلاد الشرق لم تزل مهبط المدنية الروحية المبرأة عن أغلال المادية ، كما كانت بالأمس مقر الأديان والحكمة والجمال .

باريس عثمان أمين

تاريخ حياة ألف ليلة وليلة

للاستاذ الكبير : أحمد حسن الزيات

أستاذ الادب العربي بدار المعلمين العليا ببغداد

تفضل الكاتب الكبير ، والعالم الاديب ، الاستاذ أحمد حسن الزيات ، فبعث الينا بهذا البحث الممتع ، الذى سيردفه ببقيته فى فرصة أخرى ان شاء الله .

والاستاذ الزيات : أديب ذائع الصيت ، وكاتب واسع الشهرة ، يكاد ينفرد فى أسلوبه بميزة الجودة ، وحسبه فخراً أن يكون الاديب المصرى الوحيد ، الذى اختارته حكومة العراق لتدريس الادب العربي بمعاهدها . المحرر

يخطو الدهر دائبا فى وناء وكبرياء وصمت ، فيعفو الأثر ويفرى الحجر ويبرى الحديد ، وتنال يده العابثة كل شىء فى حياة المرء بالتغيير والنقص ، إلا شيئا واحداً يلوذ منه بسواد القلب فيستقر فى قراره ، ويكمن كمون السر فى دخيلته وإضماره ، أريد به ذكريات الصبا وأحلام الحداثة ، فهى باقية والجسم يتخونه البلى ، ثابتة والعيش تزعزعه الأحداث ، ناضرة والمنى يصوحها اليأس ، مشرقة والنفس يغشاها من الهم ظلام وسحب ؛ فمن منا لا يذكر أول بيت أبصر فيه الوجود ، وأول ملعب عرف فيه الرفيق ، وأول مكتب رأى فيه المعلم ، وأول موعد لاقى فيه الحبيب ؟ ومن منا لا يذكر ساعات السمر اللذيذة الهادئة ، فى غرفة النوم الوثيرة الدافئة ، حيث كان أطفال الأسرة يتجمعون حول الجدة الحنون أو الأم الرؤوم أو الظئر الحانية ، فينصتون ، فى سكون وشوق ، إلى ما تقصه عليهم من روائع الأسمار وبدائع الأقاصيص ، وهم من طلاوة الحديث وجاذبية الحادث وبشاشة المحدث ، فى حال لا يصف الشعور بها غير الشاعر ، ثم لا يلبث هذا الرحيق العجيب أن يخدر الأعصاب الطفلية الرقيقة ؛ فتغفو تحت جنح الكرى وتسمع بقية الحديث الشهى فى الحلم ؟

هذه الأقاصيص الشائقة التى كانت لعقولنا الصغيرة سحرا ، ولعواطفنا المشبوبة سكرا ، ولقلوبنا الغضة فتنة ، هى نوع من الأحلام والأمانى تراءت فى ليل الحياة الطويل ، ثم تجمعت فى ذاكرة الزمن القديم ، وتنقلت من عهد إلى عهد ، ومن مهد إلى مهد ، ومن بلد إلى بلد ، تحمل فى طواياها نفحات الحكمة المشرقية العالية ، وعطور الأزمن البعيدة السعيدة ؛ فوجودها أثر لوجود الانسان ، لأنها ظاهرة طبيعية من ظواهره : كالغناء والشعر والرقص ، فلا تعرف لها أولية ، ولا تحدد فى الغالب لظهورها علة ؛ ولكن علماء الأساطير يزعمون أنها نشأت فى الهند ، وهاجرت منها إلى بلاد الفرس ، ثم رحلت إلى بلاد العرب ، ثم استقر بها النوى فى أقطار الغرب ، وفى كل مرحلة من هذه المراحل كانت تصطبغ بصبغة البيئة ، وتتأثر بخصائص الجنس ، وتتسم بسمات العقيدة ؛ وأما أبطالها الذين وجدوا على الرغم من قانون الوجود ، ونازعوا أبطال التاريخ ثوب

الخلود، فقدكان لبعضهم ـ ولا شك ـ حظ من الحياة وشهرة بملازمة الأسفار وملابسة الغير، فتحدث الناس أولا بما فعلوا ثم سرجوا حول أسمائهم وأنبائهم الأكاذيب والأعاجيب، حتى أصبحوا أعلاما على شخصيات متميزة: فى البطولة والحرب والحب والحيلة والكرم كدعد وليلى فى الشعر وأبى نواس وجحا فى التنادر.

أما أكثر الأبطال فمن خلق الخيال ابتدعهم رموزا للمثل الأعلى أو القدر العابث أو الجد العاثر أو السلطان الجائر أو الهوى المتسلط أو الأمل الآسى أو الحظ السعيد.

وعلى ذكر الطفولة ومناغيات الأمومة أراكم ولا ريب تركتمونى أتحدث، وعدتم بالذاكرة إلى تلك العهود الحبيبة، تتخيلون سحرها، وتستعيدون ذكرها، وتصيخون إلى ذلك الصوت الحنون ينبعث خافتا من أعماق الماضى القريب أو البعيد، مردداً أسماء أولئك الأبطال الذين طالما اكتأبتم لاكتئابهم، وتألمتم لمصابهم، وشاركتموهم بالعطف فى نعماء الحب، وبأساء الحرب، ولأواء المطلوب من أمثال: حسن البصرى، ونور الدين المصرى، والشاطر محمد، والشاطر حسن إلى آخر ما سجلته الذاكرة... لا أنكر أنى كذلك ذكرت حين كتبت هذه السطور هاتيك القبور التى ضمت هواى ورفقة صباى، ونوعا من الحنان والاخلاص، لم أذق له طعما منذ غاض فى هوة البلى منبعه.. ثم ذكرت شيئا آخر: ذكرت مجلى من مجالى الأنس فى القاهرة كان مجمع القلوب وإلفة النفوس ومستجم الخواطر، فعصفت به ريح المدنيـة الحديثة، ذلك منظر المحدث أو القصاص أو المسامر أو الشاعر فى مقهى الحى، وهو فى حلته الشرقية المفوفة الضافية فوق صنته الخشبية البالية العالية، وقد تجمع بين يديه وعن يمينه وعن شماله أوزاع العامة وشيوخ الحلة يستجمون من كلال العمل اليومى برشف القهوة العربية، وتدخين النرجيلة العجمية، وتبادل العواطف الأخوية ثم الاصغاء المشترك إلى أبى درويش وهو يقص بصوته المريض المتئد وجرسه الهادىء المتزن حروب عنترة أو وقائع أبى زيد أو مخاطر ابن ذى يزن، فينقلهم بقوة تمثيله أو بحسن ترتيله على جناح الخيال إلى عصور هؤلاء الأبطال فيشهدهم مجد البطولة وسلطان الحب وفتك السحر وبطش المردة، ثم يرى الخبيث أن فورة الحماس أو الشوق قد طغت فى النفوس لوقوع البطل فى أسر أو شدة، فيسكت ليجمع النقوط من السمار والنظار، فلا يجد هؤلاء مندوحة عن تعجيله ليعجل هو إلى إطلاق البطل من إساره، وإنقاذ الجمهور من شـدة قلقه ومرارة انتظاره.. وفى ليلة من هذه الليالى الساهرة تجدون هذه القهوة ذات الضوء الشاحب والصمت الحالم والمنظر الكئيب قد خفقت فوقها الرايات وأشرقت فى جوها الثريات وتلألأت فى سمائهـا المصابيح، وأخذت زخرفها بالسامرين، وقد جلسوا متقابلين على الدكك العالية يطوف عليهم غلمان بأكواب من ذوب السكر المعطر بماء الورد، وصاحبنا المحدث قد خرج إلى القوم يتهادى فى عمته المكورة، وجبته المعصفرة، وقفطانه الأنيق الأصفر، وقد تدلت من حزامه الحريرى ذلاذل تنوس على

بطنه المنتفخ الضخم ، فإذا استوى على عرشه المنجد توهج البخور من جانب وتضوع العطور من جانب، ثم خشعت الأصوات ورنت اليه العيون وأنشأ يحدث ؛ فإذا بدا لأحد أن يسأل بعض الجالسين عن سبب هذا المهرجان عجب أولا من أنه لا يعرف، ثم أجابه بلهجة الفخور المزهو: هذه ليلة زفاف عبلة إلى عنتر ؛ فإذا كانت القصة قصة بنى هلال، وجدتم هذا الهوى الجميع قد استحال إلى عصبية شنيعة ، ورأيتم إخوان الأمس قد أصبحوا أعداء اليوم ، فطائفة تتعصب لبنى هلال، وطائفة تتعصب لبنى زناتة، وهؤلاء يريدون الشاعر على أن يقص واقعة، وأولئك يسألونه أن يقص أخرى ، والشاعر لا يجيب إلا من يجزل له العطاء، فإذا رجحت كفة وشالت كفة، أخذ يروى من ذاكرته وغيبه على هوى الفئة الغالبة ما لم يسجله تاريخ ولم يدونه كتاب، فيزور الغرائب ويختلق الوقائع، ويقمش مما خزنه فى حافظته من مختلف الأسمار ورقائق الأشعار ليحوك منها للبطل حلة تهز العجب فى قلوب أشياعه ، وتلهب الغيرة فى صدور خصومه ، فإما نفحة أخرى تميل به إلى الجهة الثانية، وإما معركة بين الحزبين تكون هى القاضية .

هذا الرجل الذى صورته لكم هذه الصورة المتقاربة ، هذا الرجل الذى ينام النهار ويجلس الليل يحدث أربع ساعات متعاقبة ، هذا الرجل الفكه اللبق الحافظ الواعظ، هو الأثر التاريخى والنموذج الحقيقى لذلك القصاص البارع الذى خلف لنا كتابنا العالمى الخالد ألف ليلة وليلة .

يرجع تاريخ هذا القصاص إلى صدر الاسلام ، والفضل فى وجوده كان أيضاً للقرآن الكريم ، فقد اشتمل كما تعلمون على مجملات من أخبار القرون الخالية والنذر الأولى ، وكان أعلم القوم يومئذ بتفصيلها من أسلم من أهل الكتاب: كتميم الدارى ووهب بن منبه، وكعب الأحبار، وعبد الله بن سلام ، فكان هؤلاء ومن أخذ عنهم يجلسون إلى الناس فى المساجد يفصلون ما فى كتاب الله من قصص الأنبياء ، ويسرفون فى تهويل هذه الأنباء، ابتغاء للعبرة والتماسا للموعظة ، ووافق هذا الضرب من الوعظ هوى النفوس فازداد إقبال الناس عليه ، وكثر إفك القصاص فيه ، حتى طردهم أمير المؤمنين على من المساجد ماخلا الحسن البصرى ؛ ولكن دهاة السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول، وقوة أثره فى توجيه الميول، فاتخذوه لسانا للدعاية وسبيلا لافتعال الأحاديث واختلاق الأقاصيص فى الأغراض الحزبية المختلفة . بدأ بذلك معاوية فولى رجلا على القصص كان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله، ثم دعا للخليفة وحزبه ، ودعا على أهل خصومته وحربه ، وكان هو إذا انفتل من صلاة الفجر جلس إلى القاص حتى يفرغ من قصصه ؛ وكان ولاته وقواده يقدمون القصاص فى بعض حروبهم ليقصوا على المقاتلة أخبار الشهداء وما وعدوا به من حسن الجزاء ؛ فعل ذلك الحجاج فى العراق وجاراه فيه من حاربهم من زعماء الفرق ، فقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٧٧ أن عتاب ابن ورقاء سار فى أصحابه قبيل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم ، ثم قال: أين القصاص؟

فلم يجبه أحد. فقال: أين من يروى شعر عنترة ؟ فلم يجبه أحد ، وسار الشعر والقصص فى ركاب السياسه جنبا إلى جنب يشبهان على الناس وجوه الرشد ، ويموهان على العقول صور الباطل، والقصاص كانوا فى ذلك أشد وطأة على الحق، لأنهم ينسبون مايفترون إلى التاريخ أو إلى الدين؛ فلما هدأت ثائرة الأحزاب وسكنت طائرة الفتن ونضجت العقول، عاد القصاص إلى المسجد فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه ، والعالم قد فطن إلى كذبه وبهتانه ،والخليفة قد استغنى عنه برواته وندمانه،فانقلب إلى العامة يسامرهم فى إملائهم وأعراسهم بما أثر من أيام العرب ، ونقل من أساطير العجم ، وروى من أخبار الفتوح .

وانتشر القصاص فى العواصم العربية حتى صاروا ظاهرة من ظواهر اجتماعها ، وحاجة من حاجات عامتها ورعاعها ، واشتدت هذه الحاجة حين انفجرت الدواهى على العالم الاسلامى فى أواخر العصر العباسى،وبعده من عنف المتسلطين من السلاجقة وعسف المتغلبين من المغول وغزو المتعصبين من الفرنك، فطلبهم العامة تفريجا للكرب ، والخاصة تشجيعا على الحرب ؛ ولكنهم كانوا فى مصر أبرع صناعة وأنفق بضاعة وأرفع مكانة ، لأن طبيعة إقليمها ونظام اجتماعها وطباع سكانها كانت تعين على ذلك، فهى قطر زراعى ملموم الرقعة متصل العمارة يجود بالخير الكثير على الجهد القليل ، فكان لذلك أهله قليلى الأسفار يؤمنون بكل خبر،كثيرى البطالة يميلون إلى اللهو والسمر ، وكانوا لاينفكون بين يسر متدفق طلق إذا عم الفيضان وعدل السلطان واقتصد الموت ، وعسر متجهم كز إذا فحش الغلاء وألح الوباء وبغى الحاكم ؛ وعلى الحالين كان السامر أو المسامر عنصرين من عناصر الحياة ينضران بهجة العيش فى الرخاء ، ويسريان كربة النفس فى الشدة .

وكان أول من تولى القصص الرسمى فى مصر سليمان بن عنتر التجيبى سنة ٣٨هـ تولاه مع القضاء ثم أفرد به ، ثم تعاقبت القصاص من بعده فى مصر على اختلاف بينهم فى القدرة والغرض، فكانوا أصداء للعقيدة وأبواقا للسياسة ، تسمع منهم فى كل عهد لهجة ، ولكل دولة سندا وحجة ؛ وترون ذلك أقوى ظهورا فى عهد الفاطميين ، فقد كان يعقوب بن كلس وزير المعز يعتمد على المناظرات فى نشر فقه الشيعة ، وعلى القصص فى جذب القلوب لأهل البيت ؛ وكان مقتل الامام على ومأساة الامام الحسين موضوع المنابر والسوامر فى شهرى رمضان والمحرم، وقيل إن ريبة حدثت فى قصر العزيز بالله فتناقلتها الأفواه ورددتها الأندية، فطلب إلى شيخ القصاص يومئذ يوسف بن إسماعيل (١) أن يلهى الناس عنها بما هو أروع منها، فوضع قصة عنترة ونشرها تباعا فى اثنين وسبعين جزءا سمرت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين إلى اليوم، وهى الياذة العرب، لاينازعها هذا الشرف حتى الآن عمل فنى آخر ؛ وفى القرن الرابع للهجرة كانت فورة هذا الفن ونهضته فى بغداد والقاهرة؛ففى عهدى المقتدر بالله العباسى والعزيز بالله

(١) وقيل انه الشاعر الطبيب ابو المؤيد محمد بن الصائغ الجزرى . وممن قال بهذا الرأى الاستاذ كوين برسفال الذى طبع ملخص هذه القصة فى باريس .

الفاطمي، كان القصاص الحكوميون والشعبيون يحتشدون لوضع الأخبار ويتنافسون في جمع الأسمار من الوراقين والرحالين والعامة ؛ ولكن القصص في العراق كان من عمل الكتاب يصورون فيه أنبل عواطف النـاس وأجمل مواقف الحياة ويلقونه زهوراً وعطوراً في مجالس الخلفاء وسوامر الملوك، فكانت بلاغة المحدث وجلالة السامع ونبالة الموضوع تطبع القصة بطابع الجمال والاعتدال والقصر، وتنزع بها إلى السليقة العربية المجبولة على الايجاز والقصد في الشعر والخطب والرسائل والقصص، فما جمعه ووضعه الجهشياري وابن دلان وابن العطار في القرن الرابع من الأقاصيص في الحب الطروب والترف المسرف، وما وضعه من قبل هؤلاء سهل بن هرون وعلى بن داود وإبان بن عبـد الحميد من الأسمار في الأمثال الرمزية والحكمة العالية والسياسة الرشيدة، وما صنعه من قبل هؤلاء عيسى بن دأب وهشام الكلبي والهيثم بن عدى من الأخبار في الهوى العذرى والسخاء العربي في الاسلام والجاهلية، كل أولئك موسوم بسمة العقلية العربية الخالصة من حذف الفضول وترك الاستطراد وقلة المبالغة . أما القصص في مصر فكان غالبا من عمل القصاصين والمسامرين يلفقونه من الكتب ويتلقفونه من الأفواه ويحدثون به الدهماء في المجالس العامة ؛ ورزق هؤلاء القصاص على قدر ما عندهم من القصص، فاذا ما انقطع أحدهم عن الحديث لنضوب معينه انقطعت به أسباب العيش، فهم لذلك مضطرون إلى تطويل الموضوع بالاستطراد وبسط الحادث بالتزيد وجذب القلوب بالاغراب والمبالغة، ومن ثم اتخذ الأدب القصصي في مصر شكلا لا عهد للأدب العربي به . ذلك هو شكل القصة بالمعنى الذى نفهمه من كلمة رومان (ROMAN) في اصطلاح الفرنج ؛ فان المعروف الشائع من قبل إنما كان المثل (FABŒE) والأقصوصة (CONTE) والحكاية (NOUVÈLLÊ) وهذه الأنواع قد تولد بعضها من بعض على نحو مايرى الأستاذ (برونيير) الناقد الفرنسى من تطبيق مذهب التطور على الأنواع الأدبيـة ؛ فالأقصوصة نشأت من المثل، والحكاية نشأت من الأقصوصة، والقصة نشأت من الحكاية باتساع الخيال وفعل المبالغة وحكم الزمن ؛ ولكن القصة العربية قد تأخر نشوؤها إلى القرن الرابع حتى ظهرت بمصر لأن عملها يقتضى التطويل والتحليل والعلم بطبائع الناس وأوصاف الشعوب، والعرب في عهودهم الأولى كانوا أبعد بطبيعتهم ومعيشتهم عن هذه الأمور، ثم كانوا في عصور التحضر والاستقرار يؤثرون الخاصة بأدبهم فيضطرون في حضرة الملوك أن يراعوا أدب الحديث فلا يغرقون في الحادث حتى يجانب العقل، ولا يسهبون في السمر حتى يجاوز المجلس، ولا يسفون في القول حتى يصادم الخلق ؛ أما القصاص المصرى فقد تهيأت له الأسباب اللازمة لخلق القصة : كان سمير الأوزاع والعامة فلم يتقيد معهم بقوانين الخلق ولا بقضايا المنطق ولا بوقائع التاريخ، فهو يصطنع اللهجة الصريحة ويستعمل الألفاظ القبيحة ويبالغ في الخلط والتلفيق قصـدا إلى الاغراب والتشويق، ويعتمد غالباً على

المفاجآت القوية ويستطرد كثيراً إلى الحوادث العرضية ثم يصادم الوقائع ويشوه الحقائق لأنه يجهلها والجمهور الذى يسمعه لا يعلمها، فاستطاع بذلك أن يزور أغرب الحوادث ويجمع شتى الأحاديث ويترك لنا هذه المجموعة القصصية التى كانت ولا تزال للخاصة مبعث لذة وللعامة مصدر ثقافة .

كان القصاص المصرى يعتمد فى مادته على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعة والمنقولة والروايات القديمة الصحيحة والمدخولة ، ثم يضيف إلى ذلك ما تنوقل فى مصر وما تجمع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين ، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدونون ما رأوا من الأعاجيب كما فعل اليعقوبى وابن فضلان وبزرك بن شهريار مثلا ، أو يحدثون بها الناس كأن يقولوا ما حكاه ابن خوداذية من أن فى بعض الأمم رجالا عراض الوجوه سود الجلود لا تزيد قامة أطولهم على أربعة أشبار، وفى جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وأن فيهم من له أجنحة يطير بها ،ومن رأسه كرأس الكلب وجسمه كجسم الثور أو الأسد ، وما جاء فى كتاب المستطرف من أن فى البلغار من طوله أكثر من ثلاثين ذراعا يأخذ الفارس تحت إبطه كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر ساقه بيده كما تقطع حزمة البقل ، وما رأى الرحالون بالطبع هذه الأشياء وإنما رأوا صورها على الآثار التى خلفها البابليون والفراعنة والرومان والفرس فظنوها حقيقة .

كان القصاص يتناول هذه الأخلاط فيؤلف منها قصة كثيرة الفصول والفضول تدور حوادثها على بطل واحد ولكنها تعرض من قبيل الاستطراد إلى حوادث شتى لا يصلها بحياة البطل إلا صلة واهية ؛ انظروا مثلا كيف صنع قصة عنترة ؛ بناها على حادثة أصلية صحيحة هى حرب داحس والغبراء التى شبت لظاها بين عبس وذبيان قبيل الاسلام ثم دارت رحاها على قطب من أقطابها وهو عنترة بن شداد العبسى فذكر نشأته فى حادثة خرافية جذابة ثم وصف رجولته وبطولته وفصاحته وحبه وكرمه وما اتصل بذلك من عادات البدو كالضيافة والحماسة والاجارة والشعر والغزو والسلب والثأر، ولكن حروب عبس وذبيان مهما هول فيها وطول لا تشغل بال السامعين طويلا ولا تدر عليه من المال كثيرا ، فهو يوقع الخصومة بين عنترة وبين فرسان العرب فيقابلهم ويقاتلهم ويسمهم جميعا بالنكول والعجز ؛ والقصاص فى أثناء ذلك ينقلنا فى السهول والأودية، ويقلبنا بين المضارب والأخبية، حتى جلا لنا من الحياة الجاهلية صورة صادقة لا تتمثل فى الخواطر من طريق التاريخ المقتضب المفكك إلا بعد جهد ؛ ثم يرى مع ذلك أن الشوق شديد وأن الأمد الذى يريده بعيد فيخرج البطل من الجزيرة العربية ويقدم إلى مصر بلد القصاص فسيقود عنترة بها حروبا ويهلك شعوبا ويبتنى حصونا لا تزال العامة تعرفها إلى اليوم باسمه ، ثم يذهب به إلى القسطنطينية ويزوجه من رومية ، حتى إذا ظفرت المنون أخيرا بالشجاعة

الخارقة عاد ابنه من بيزنطة إلى الحجاز فطالب بعرش أبيه ، وحارب معاديه ومغتصبيه ، والميتة التى اختارها القصاص لعنترة تدل على قدرة فنية عجيبة . وكان لامرتين لا ينفك بها معجبا ومنها طروبا فقد ذكر أن الأسد الرهيص أحد خصوم عنترة المقهورين الموتورين رماه غيلة بسهم مراش مسموم ، فلما أحس البطل فعل الموت فى جسمه الوثيق خشى على قومه من بعده شر الهزيمة وعار الفشل ، فوقف حيال العدو الثائر ممتطيا جواده متكئا على رمحه ، وأمر جيشه بالتقهقر والنجاة فارتد الجيش وبقى هو واقفا يعالج سكرات الموت ، والعدو متحفز للهجوم ، ولكنه لا يجرؤ عليه خوفا منه ، حتى فاضت روحه على صهوة جواده ، وكان الجيش المتقهقر قد بلغ مأمنه ، فلما طال وقوفه وجاوز الحد سكونه ارتاب الجيش المهاجم فدبر الحيلة لكشف الأمر فأرسلوا إلى جواده حجرا تهيجه ، فلم يكد يراها الفرس حتى وثب وثبة خر لها فارسه على الارض صريعاً .

والغالب فيما أظن أن القصاص الماهر قد أخذ هذا الختام البارع من مصرع سليمان بن داود امام عماله المسخرين من الجن وقد أجملته البلاغة المعجزة فى هذه الآية الكريمة « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » .

ظهرت هذه القصة الحماسية الجميلة فى عصر كان النيل فيه منيع الحوزة باهر الجلالة صافى المورد لا يكدره والغ ولا واغل ، فكان استقلاله يلهم العزة وعروبته توحى الشهامة ؛ فلما هبت الأعاصير الهوج بالبربرية الجامحة فأطفأت منائر بغداد وزعزعت عرش الخلافة ، وعبثت العجمة الجاهلة بتراث العرب من علم وأدب وخلق ودين، وعدت ذئاب الغرب باسم الصليب على الشام ومصر تنبح الهلال الآفل وتنهش المجد الطريد ، رأينا القصة المصرية تصور هذه الحياة الحزينة تصويراً عجيبا ، ورأينا القصاص قد اتسع خياله بقدر ما ضاق علمه ، فهو يخلق بلادا لم توجد ، ويتصور حوادث لم تقع ، ويعتمد فى العمل على الجن والسحر والخوارق ؛ فبين القرنين السادس والثامن من الهجرة ظهرت فى مصر سلسلة من القصص الطويلة الجذابة غفلا من أسماء مؤلفيها ، لأن القصاص المحترفين إنما كتبوها لأنفسهم ، فيما أرجح ، ثم توارثوها خلفا عن سلف حتى بلغت عهد المطبعة فنشرت على شكلها دون اسم ولا وسم ولا تعريف ، وأشهر قصص هذا الدور سيف بن ذى يزن والاميرة ذات الهمة وفيروز شاه . فاما أنها كتبت فى هذى العهود فذلك واضح لأدنى نظر من لغتها وإسلوبها وما تدور عليه من عادات واعتقادات وصور، وأما انها كتبت بمصر فذلك ثابت من أماكن وقائعها وأسماء أشخاصها ؛ فأبطالها جميعاً عاشوا بمصر حتى الذين لم يروها أقدموهم اليها ...

فالمهلهل بن ربيعة كان الوجه البحرى ميدان حروبه ، وسيف بن ذى يزن هو الذى أجرى النيل من جبال القمر بكتابه السحرى الذى دفنه فى جزيرة الروضة بالقاهرة، وهو الذى خطط مدن

مصر: فالجيزة اسم من اسماء زوجاته ، وسبك الثلاث ودمنهور الوحش قائدان من قواده ، والنيل تفرع إلى فرعى رشيد ودمياط لأن الملك سيفا - وهو قادم به من السودان - وقف يقاتل الكفار الذين اعترضوه فى رأس الدلتا فوقف النيل بوقوفه، ولكن الماء وراءه قد عب عبابه وطفحت أواذيه فاندفق شطر منه إلى الشمال واتجه الملك بالشطر الآخر إلى اليمين ؛ ومدينة سمنود أصلها سماء نود ، لأن الحكيم نودا صاحبها قد عقد عليها سماء بالسحر توقعا لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل إلى مصبه ، ثم دفنه المؤلف أخيرا فوق جبل المقطم وقال: إن قبره هو الذى يعرف الآن بالجيوشى .

ولقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر فى نسج هذه القصص فى هذا الدور ، فان العواطف الدينية والحماسة القومية التى ألهبتها فى قلوب المسلمين هذه الغارات قد حملت القصاص على أن يتملق هذه العواطف ويغذيها بما يلفق من الأشعار والأخبار فى فضائل الجهاد والاستشهاد والصدق والصبر ؛ فسيف بن ذى يزن كان حنيفا مسلما يقتحم المعاقل والأرصاد على الوثنية والشرك فى معالم الارض ومجاهلها وهو يقول لا إله إلا الله ابراهيم خليل الله ؛ وكذلك سائر الأبطال فى سائر القصص، إلا أنهم كانوا بعد الاسلام لا قبله .

وبين القرنين الثامن والعاشر من الهجرة كان حكم المماليك بفساده وحكم الاتراك باستبداده قد أتيا على مابقى من أركان الاجتماع ، وحللا أواصر الأخلاق والطباع ، ومنى الناس بالحاح الأوباء وشراهة الجباة والرؤساء ، واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان والقهر فأخلدوا إلى التصوف أو إلى المجون ، وعالجوا همومهم بالحشيش والأفيون ، وحارب بعضهم بعضا بالشطارة والحيلة ، وتقاتلوا على حطام الحياة بالخديعة والغيلة ، وحال نظام الفتوة فى مصر إلى مناسر من اللصوص والعيارين يقطعون متون السبل ويعبثون بالأمن والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء، ويجلونهم إجلال الزعماء ، ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالاعجاب والمبالغة ، فظهر حينئذ ذلك القصص الوضيع الذى يمثل هذه الحال بحقارتها وسفالتها ، ويصور تلك البيئة بخرافاتها وجهالتها، كالقصص الذى يدور على على الزيبق وأحمد الدنف وحسن شومان ودليلة المحتالة أو دالة المحتالة كما يسميها المسعودى ، وأصبح أسلوب القصاص فى هذا الدور دائرا بين الجهالة والقحة ، فهو يستعمل فى قصصه لغة مبتذلة وتراكيب فاحشة وجملا محفوظة ووقائع واحدة يرددها فى كل قصة ويكررها فى كل مناسبة ، وكانت شهوة السهر والسمر قد بلغت مداها فى ذلك الحين لتغلب البطالة على أهل القاهرة واعتماد الناس فى جمع الثروة على الحيلة والشعوذة والسحر والقدر، فتكدسوا فى السوامر حول القصاص وقد تجمع لهؤلاء من خلال القرون ذخيرة وفيرة من الأساطير والاسمار فهبوا يدونونها كما دونت تلك السير من قبل ، فكان مما دون فى تلك الحقبة الغريبة كتابنا وموضوعنا ألف ليلة وليلة .

الف ليلة وليلة : كتاب شعبي تمثلت فيه طوائف الشعب وطبقاته ، وتراءت من خلاله ميوله ونزعاته، وتكلمت فيه أساليبه ولهجاته ، فهو كالشعب وكل شيء للشعب قد لقي من جفوة الخاصة وترفع العلية أذى طويلا ؛ أغفله الأدب فلم يتحدث عنه ، واحتقره الأدباء فلم يبحثوا فيه ، ورآه محمد بن إسحق المعروف بابن النديم فقال: إنه غث بارد ، لأنه نظر إليه نظره إلى الأدب الأرستقراطي الذي يصور ترف الخيال وجمال الصناعة . فلما حقق العصر الحديث تغلب الديمقراطية وسيادة الشعوب واستتبع ذلك عناية أصحاب المذهب الابداعي (الرومانتكيين) في الغرب بحياة السوقة والدهماء عنايتهم بحياة الملوك والنبلاء، وهب رواد الاستعمار وعشاق الآثار ينقبون عن (فولكلور) الشرق أخذ أدباؤنا بحكم التقليد والعدوى يعطفون على أدب السواد، فدونوا اللغة العامية وجمعوا الأغاني الشعبية ونظروا بعض النظر في فن القصص ، وسمعوا في رجفة من الدهش إلى قول الأوربيين: أن في أدبنا الموروث كنزا دفينا من هذا النوع له في أدبهم أثر قوي وشأن نابه ؛ ولكنهم لم يخلدوا بديا إلى هذا القول بثقة ، واستكثروا على هذا الكتاب الخرافي السوقي أن يذكر في الكتب، ويوضع في المكاتب ، وينبه الناس إلى فضله ، ويهنأ العرب بانتاجه ! حتى رأينا بعيوننا أنه نقل منذ أوائل القرن الثامن عشر إلى كل لغة، وحل الموقع الأول من كل أدب، وظفر باعجاب النوابغ من كل أمة ، حتى قال فولتير: إنه لم يزاول فن القصص إلا بعد أن قرأه أربع عشرة مرة ، وتمنى القصصي الفرنسي (استندال) أن يمحو الله من ذاكرته ألف ليلة وليلة حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته ! ثم قرأنا أن أقلام المستشرقين أخذت تتجادل منذ أوائل القرن التاسع عشر في أصله، وتكشف عن مناحي جماله وفضله ، وأن دوائر المعارف الكبرى سجلته في حقولها ، وخصته بالطريف الممتع من فصولها ، وأن الاستاذ فكتور شوفان أفرد له في كتابه تاريخ المؤلفات العربية جزءين سرد فيهما مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته ، وجزءين آخرين لخص فيهما طائفة كبيرة من حكاياته ، وأن الكتاب الروائيين قد استغلوه للسينما والمسرح، فاستخرجوا للأول رواية لص بغداد وللثاني قسمت أو القضاء والقدر ، وأن رجال التربية والتعليم في فرنسا وألمانيا وانجلترا قد اقتبسوا منه أدبا للأطفال فاختصروه وصوروه ؛ ولقيت أنا منذ عامين في القاهرة مستشرقا أسبانيا وآخر أمريكيا قد أرسلت الأول جامعته والثاني جمعيته لينقبا في مدن الشرق عن مخطوطات ألف ليلة وليلة. حينئذ أخذت خاصتنا تقرأه وتسمعه ، ومطابعنا الراقية تصححه وتطبعه ، وأدباؤنا المترفعون يشيرون إليه في تاريخ الأدب ؛ ولكنهم إلى اليوم لم يدرسوه دراسة علمية تكشف عن لبابه ، وتستقطر النطف العذاب من عبابه ، وهو على الرغم من جميع ما فيه قد سجل على توالي القرون أطوار اجتماعنا ، وصور بالألوان الزاهية مختلف أخلاقنا وطباعنا ، ونشر في الشرق والغرب أنوار حضارتنا وازدهار ثقافتنا وجمال تقاليدنا ، وأتم نقص التاريخ الذي تجاهل الشعب ،والأدب

الذى احتقر العامة ؛ فكان منه للناقد الاجتماعى والمؤرخ الفيلسوف والأديب الباحث والكاتب القصصى منهل ثر الينابيع صافى المورد ، وهو فضلا عن ذلك كان للشعب العربى فى زمن انحلاله وضياع استقلاله وصعوبة اتصاله قبس يبعث الحرارة فى النفوس الخامدة وذكرى تلوع القلوب أسى على المجد الذاهب ، وصلة ثقافية تجمع الميول المتفرقة على الوحدة .

يكاد يكون ألف ليلة وليلة علما ثانيا على بغداد ، بل ربما كان أدل عليها اليوم فى نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع فى الحضارة ومكانها البارز فى التاريخ ؛ ذلك لأن آثارها المادية قد ألح عليها طغيان الدهر وفيضان النهر حتى محواها ؛ أما هى فى هذا الكتاب فلا يزال سناها باهيا لم يخب وصداها داويا لم ينقطع ، فهو للحضارة العربية فى بغداد متحف زاخر بالأعاجيب دونه ما للحضارة الفرعونية فى مصر من معابد ومقابر وكنوز ، لأنه يسير فى البلاد وهى ثابتة ، ويتحدث إلى جميع الشعوب وهى صامتة حتى أصبح لفظ بغداد فى جميع اللغات مرادفا للعمران الزاهر والترف العجيب واسم الرشيد رمزا للعدل الشامل والزمن الخصيب . ذكر أحد كتاب الانكليز فترة من الزمن الرخى فقال: كان ذلك فى العصر الذهبى إذ كان يحكم الخليفة العادل هرون الرشيد.... ذلك بعض فضل الكتاب على بغداد، وقد ذكرت من قبل أنه لم يؤلف على هذه الصورة فيها ، ولم يؤلفه أحد من بنيها ، وإنما جمع فى مجالس القصص فى القاهرة ، ودون على هذا الشكل فى القاهرة، وطبع أول طبعة كاملة فى مطبعة الحكومة بالقاهرة ثم كان حظها منه أن صورها للناس مثابة للاحتيال والشطارة والشعوذة والجهل، بينما يصور بغداد مهبطا للفضل وموطنا للنبل ومعدنا للكرم وعشا للحب ومظهراً للترف، حتى كان من جراء ذلك أن البغداديين لا يزالون يقولون فى بغداد: (عياق مصر وحيال مصر) ونحن لا نزال نقول فى القاهرة: تبغدد فلان إذا أظهر البغددة وهى كلمة مشتقة من بغداد تدل على السرف والترف والبطر والنبل . وسبب اختلاف حظ البلدين من الكتاب أن القصاص المصرى إذا تحدث عن مصر وهو منها وفيها تحدث عما يرى وعبر عما يسمع ؛ وقد علمنا فى أى عهد من عهود الضعف والانحلال ظهر هذا الكتاب بمصر ؛ أما إذا تكلم عن بغداد فانما يتأثر بعوامل أربعة : يتأثر بما وضع من الأقاصيص الجميلة فى بغداد ، ويتأثر بما ملأ الآذان وشغل الأذهان عن عظمة بغداد وأبهة الخلافة ، ويتأثر بما ركب الله فى طباع الناس من تقديس الماضى وتعظيم البعيد، ويتأثر بجهله أحداث التاريخ وتطور الأمم، فيأبى وهو فى القرن العاشر من الهجرة أن يعترف بموت الرشيد ومصرع بغداد ونكبة المجد الأثيل .

أما بعد فانى أحاول الآن أن أكشف عن حقيقة ألف ليلة وليلة بمقدار ما تهيأت لى المراجع فى بغداد ، بعد أن توفرت على قراءته ودراسته فى مختلف الطبقات، ووقفت على ما نشرعنه من الأبحاث فى بعض اللغات . وما أريد بالطبع أن أدفع السأم فى النفوس بذكر ما لا يحتمله المقام من التحليل المفصل ، وإنما أجتزىء بذكر ما لا يسع الرجل المثقف جهله من أمر هذا الكتاب...

وهنا يدرك شهرزاد الصباح، فالى العدد المقبل إذا تفضلتم بالسماح ؟ أحمد حسن الزيات

الحب

كلمة من نور، تكتبها يد من نور، على قرطاس من النور، ولفظة مستعذبة لا يكاد الانسان يخطر فى باله ذكراها حتى يخفق لها قلبه؛ ومتى تبادل فى شرف وطهارة جعل مرارة الدنيا حلوة وظلامها نوراً ..هو انعطاف كلى وتفاهم روحى يتم بلحظة واحدة وبنظرة واحدة، هو جليس ممتع وأليف مؤنس وصاحب ملك، مسالكه لطيفة ومذاهبه غامضة وأحكامه جائرة، هو عنصر الحياة وأنشودته، هو حاكم مطلق يسخر قلوب البشر بجاذبية مطلقة، ملك الأبدان وأرواحها، القلوب وخواطرها، العيون ونواظرها، العقول وآراءها، عرشه القلوب والضمائر وجنده الأيام والليالى، هو وحى وجدانى وإلهام نفسانى وعاطفة لا يخلو منها قلب حساس.

هو إله معبود كما قال ابن عباس، هو مضمار لا يلجه سقيم الوجدان وبرىء ممن لا شعور لهم: برىء من المنافقين ومن ذوى القلوب المتعددة، برىء من الوحوش الآدمية ذوى الأغراض السافلة، إذ لا يطرق إلا النفوس الطاهرة، بعيد أن يسكن القلوب الخربة والأفئدة الجافية والنفوس الواهية. يتولد من أقل شىء ويتلاشى من كل شىء: يتلاشى إذا كان ملوثا أساسه الشهوة بعكس ما إذا كان طاهراً مصدره القلب وأساسه النظرة.

كذلك الحب المبنى على المال مصيره إلى الزوال. لأنه فضيلة، أركان شعاره الطهارة، ولأنه أنشودة يلقنها وحى سماوى إلى الوليد ساعة ولادته. هو الهادى إلى طريق السعادة الأبدية؛ وهو الخير الذى عجنته الآلهة بحلاوة القبل ومرارة الدموع وأعدته مأكلا للنفوس الحساسة. لولاه ماعرف الله ولولاه ماعرف الدين ولولا وجود المحبين فى العالم لفقدت الشمس نورها ونارها. الحياة بدونه كشجرة بغير أزهار ولا أثمار، بدونه يحرم العالم من لمعان الشمس وبدونه تذهب نضارة الأثمار، وبدونه يمتنع المطر من الانهار، فهو قوة أعلى من السماء وأعمق من البحر وأقوى من الحياة والموت يوحى إلى المحب إتيان أجمل الأعمال ويوحى إليه إظهار أحسن المكتشفات؛ لذلك إذا وجدت رجلا بلغ بشهرته إلى ذروة المجد فاعلم أن بجانبه امرأة يحبها .... إذا عرفنا عن الحب ذلك فكيف إذن لا نحب بكل مافينا من قوة وإرادة ونعمل بما قاله رسول الله: (من عشق فظفر فعف فمات مات شهيداً)

لم لا نحب الله ؟ لم لا نحب مخلوقاته ؟ لم لانحب الطبيعة، الانسان، الحياة، الموت، الجمال؟
لنحب الله مبدع الكائنات وموجد الحب. . . لنحب الانسان شعاعه على الأرض . . .
لنحب الطبيعة بكل مافيها من كمال وجمال ... لنحب الحياة بما فيها من سعادة وشقاء ...
لنحب الموت قائدنا إلى عالم الخلود . . . ولنحب الجمال فالله جميل يحب الجمال . . . . .

عبد العزيز جادو

٤ – الشاعر الذى قتل وحرقت جثته

لسان الدين بن الخطيب

بقلم الاستاذ الجليل : الشيخ أحمد السكندرى

أستاذ الادب العربى بدار العلوم

شعره

منزلته فى الشعر : يعتبر ابن الخطيب من أشعر أهل المغرب والمشرق فى عصره إن لم يكن أشعرهم جميعاً ، كما يشهد بذلك ابن خلدون ؛ ولا يحول ذلك دون أن يكون بعض شعره مرذولا متكلفا نابيا عن تمثيل صورة الأدب الرائع ، والخيال البديع ، واللفظ الرشيق ، كما سنبينه.

وقد نظم لسان الدين الشعر فى كل أغراضه وفنونه ، ومنها الشكوى إلى رسول الله والاستغاثة به ، وكثيراً ما كان يفتتح رسائل الشكوى النبوية بقصائد طنانة ، كما كان يفعل ذلك فى الالتجاء إلى قبور الملوك من بنى مرين ، استمداداً للمعونة من أبنائهم وأحفادهم ، ليظاهروا بنى الأحمر على دفع الأسبان عن ملكهم . وكان فى أكثر ما اطلعنا عليه من مدائحه النبوية والسلطانية يؤثر النسيب على طريقة القدماء من ذكر : المنازل ، والأطلال ، والدمن ، والظعن ، والظعائن ، والبروق ، وهبوب النسيم ، ونحو ذلك ؛ وقلما ورد فى قصائده المطولة ابتداء بغزل فى المذكر على طريقة المتأخرين من وصف العذار ، والخصور ، والأرداف ؛ وإنما ذكر ذلك فى المقطعات ، وإذا سنح له تصريح بمجون واستهتار تنصل من معرته بمحاكاته المشارقة فى الخلاعة ، فيقول كذا على طريقة المشارقة ، أى فى قلة المبالاة بذكر العورات ؛ ولعل الحامل له على هذه التقية علو كعبه فى الدولة وأخذه بناصية مناصبها ، وأن الروح المتغلب على أهل عصره روح جهاد فى الدين ودفاع عن الحوزة ؛ وإنما تكون الخلاعة من رغد العيش وصفاء الزمان وأمن السرب وهدوء البال ؛ وذلك ما لم يكن بين عصابة الأندلس قبيل الانقضاض .

لفظ شعره وأسلوبه : تغلب على شعر ابن الخطيب كما غلبت على نثره جزالة اللفظ وفخامته ، والميل إلى استعمال ما يمجه الطبع السليم من الغريب ، شأن الفحول من شعراء الأندلس المتقدمين من أمثال : ابن دراج ، وابن عبد ربه ، وابن عمار ، وابن خفاجة ؛ وجعلنا ذلك من نعت شعره إنما هو بالاضافة إلى أهل زمانه وخاصة الشرقيين منهم ، فقد كان يغلب فيهم رقة اللفظ وإيثار

المستعمل المشهور ولوسوقيا ، ولا يعدون فى أساليبهم مشهور التأليفات اللفظية التى تفهم بمعرفة القليل من قواعد العربية لمكان العجمة من ملوكهم ورؤسائهم وقلة تحفيهم بالشعر البليغ الرصين اللفظ الدقيق المعنى ، واستعاضتهم عنه بأنواع الزجل والمواليا.

ويمتاز شعر ابن الخطيب من شعر متقدمى شعراء الاندلس بتعمد استعمال البديع فى شعره، محاكيا فى ذلك المشارقة على قصد منه وقلة إسراف وإفراط ، فحسن وقوعه منه فى حسن التشبيه والاستعارة ، إذ كانا أنفس بضاعة رائجة السوق عند شعراء الأندلس، قديمهم وحديثهم، بل ربما شأوا المشارقة فى مضمارها كما حسن فى الطباق والمقابلة والتدبيج والارصاد ونحو ذلك ، غير أنه قصر باعه فى التورية الرقيقة اللطيفة الاستخراج التى ترمى إلى نكتة بديعة ، إذ لم تكن التورية من الصناعات العريقة النسب فى الاندلس، بل كانت بدعة مشرقية أمعن فيها القاضى الفاضل ومتابعوه ، فما كاهم متأخرو الاندلسيين والمغاربة، فغث استعمالهم لها، وقلما سلمت لهم فيها نكتة دقيقة ، ولما أعيتهم الصناعة اللفظية فى تصويرها فى أجمل صورها عدلوا بها إلى التوجيه باصطلاحات العلوم ، فكان شعر ابن الخطيب فى التورية صورة توضح طريقة متأخرى الاندلس فى استعمالها أكمل توضيح ، ولم يجد ابن الخطيب فى الجملة استعمال الجناس، فسمج فى بعض الأبيات وحسن فى الآخر على كثرة إيراده له فى شعره.

معانى شعره : إن معانى الشعر : من تمثيل صورة مطابقة لمحسوس يتأتى حصولها خارج الذهن ، أو تخييل صورة منتزعة من محسوس غير متأتية الحصول خارج الذهن ، أو شرح حال لصورة حقيقية غير محسوسة ولا منتزعة من محسوس ولا يتأتى حدوثها خارج الذهن ، أو تعقل حكم على شيء بصفة ثابتة له أو متعاورة عليه: من تقرير حكمة، وتوقيف على تجربة، وتعليل لحادث - كل أولئك لا يصدر عن خاطر الشاعر، وافر العدد ، متنوع الشكل، باهر المثال، رائعا للنفوس، قارآ فى القلوب، إلا إذا كان الشاعر قد اجتمع فيه: توقد ذهن، وصفاء ملكة، وسلامة طبع، ووفرة بحث، وسعة مشاهدة ، وعظم اضطلاع بمزاولة كثير من الاعمال.

وكل ذلك قد منحه قاسم الحظوظ لابن الخطيب فجاءت صور معانيه، فى جملتها الا فى تفصيلها، جارية على النحو الذى وصفنا ، وإنما تخلف عنه ما تخلف لتنازع كل من الحقائق العلمية والتجارب الصحيحة ، ومن الصور الخيالية حواشى طبعه فى الادراك وأطراف ملكته فى صوغ اللفظ ، فاعتاص عليه إبراز كثير منهما فى صورته اللائقة به كما عاق هذا التنازع غيره من قدماء الفحول من أمثال: المتنبى، والمعرى؛ وقد حدث ذلك فى نظمه ونثره ، فكما وقع فى معانى شعره شيء من الحقائق العلمية وقع فى كتبه العلمية كثير من الأخيلة الشعرية، كما يشاهد ذلك فى عبارات كتاب الحب ؛ إذ لا تسلم لامرىء ملكة فى صناعة من شوائب صناعة أخرى إلا بالتوفر على الصناعة الأولى وحدها ، وقصر النفس عليها وجل المتفرد بالكمال سبحانه . على أنه قد سلمت

له طائفة من المعانى البديعة الصور، الدقيقة الاستخراج، لم يحم حولها خاطر شاعر فيما نعلم، ونرجح أنه أبو عذرتها، وناسج بردتها، وأنها وليدة اختراعه، وثمرة حسن تأتيه؛ ونكتفى هنا بذكر نماذج من شعره تتعرف منها:—

أولا — جودة استعماله للألفاظ والأساليب، وتصرفه فى صناعة البديع، وخاصة: حسن التشبيه، والاستعارة، والتورية، والتوجيه.

وثانيا — لطف استخراجه لكثير من المعانى المخترعة أو الدقيقة التصور.

وثالثا — ما أخذ عليه من القصور عن الاجادة فى الألفاظ والمعانى.

فمن النوع الأول قوله فى مطلع استغاثة نبوية:

إذا فاتنى ظل الحمى ونعيمه   فحسب فؤادى أن يهب نسيمه
ويقنعنى أنى به متكنف   فزمزمه دمعى وجسمى حطيمه

وقوله فى مطلع مدحة نبوية بمناسبة الاحتفال بمولده الشريف صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين:

تألق نجديا فأذكرنى نجدا   وهاج بى الشوق المبرح والوجدا
وميض رأى برد الغمامة مغفلا   فمد يدا بالتبر أعلمت البردا
لك الله من برق كأن وميضه   يد الساهر المقرور قد قدحت زندا
تعلم من سكانه شيم الندى   فغادر أجراع الحمى روضة تندى
وتوج من نوارها قنن الربا   وختم من أزهارها القضب الملدا

وقوله من مطلع قصيدة يهنىء بها سلطانه وقد احتفل لاعذار ولده:

شحطت وفود الليل بان به الوخط   وعسكره الزنجى هم به القبط
أتاه وليد الصبح من بعد كبرة   أيولد أجنى ناحل الجسم مشمط
كأن النجوم الزهر أعشار سورة   ومن خطرات الرجم أثناءها مط
وقد وردت نهر المجرة سحرة   غوائص فيه مثلما تفعل البط

ومنها:

لى الله من نفس شعاع ومهجة   إذا قدحت لم يخب من زندها سقط
ونقطة قلب أصبحت منشأ الهوى   وعن نقطة مفروضة ينشأ الخط
فأقسم لولا زاجر الشيب والنهى   ونفس لغير الله ما خضعت قط
لريع لها الأحراس منى بطارق   مفارقه شمط وأسيافه شمط

وقوله من مدحة نبوية:

هل كنت تعلم فى هبوب الريح   نفسا يؤجج لاعج التبريح

أهدتك من شيح الحجاز تحيـة   فاحت له عرض الفجاج الفيح

وفيها يقول :

ودجنة كادت تضل بها السرى   لولا وميضا بارق وصفيح
رعشت كواكب جوها فكأنها   ورق تقلبها بنان شحيح
صابرت منها لجة مهما ارتمت   وطمت رميت عبابها بسبوح
حتى إذا الكف الخصيب بأفقها   مسحت بوجه للصباح صبيح
شمت المنى وحمدت إدلاج السرى   وزجرت للآمال كل سنيح

ومن بدائع تشبيهاته واستعاراته قوله فى وصف حمامة:

وخضيبة المنقار تحسب أنها   نهلت بمورد دمعى المسفوح

وقوله :

سهرنا وفى سير النجوم اعتبارنا   إلى أن ضفا لليل من فوقنا ريط
فخلنا شهاب الرجم إبرة خائط   مسوحا وما يبقى من الذنب الخيط

وقوله :

جاء العذار بظل غير ممدود   فمنتهى الحسن منه غير محدود
ناديت قلبى إذ لاحت طلائعه   ياصبر أيوب هـذا صوت داود

وقوله وقد أعجبه نشاط ولده :

سرق الدهر شبابى من يدى   ففؤادى مشعر بالكمد
وحمدت الله إذ أبصرته   باع ما أفقدنى من ولدى

وقوله من قصيدة يهنىء بها ملكه باستعادته ملكه :

لله موقفك الذى وثباته   وثباته مثل به يتمثل
والخيل خط والمجال صحيفة   والسمر تنقط والصوارم تشكل
والبيض قد كسرت حروف جفونها   وعوامل الأسل المثقف تعمل

وقوله من هذه القصيدة يصف الخيل وفوارسها :

صبحتهم غرر الجياد كأنما   سد الثنية عارض متهلل
من كل منجرد أغر محجل   يرمى الجلاد به أغر محجل
زجل الجناح إذا أجد لغاية   وإذا تغنى للصهيل فبلبل
جيد كما التفت الظليم وفوقه   أذن ممشقة وطرف أكحل
فكأنما هو صورة فى هيكل   من لطفه وكأنما هو هيكل

وقوله :

بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره

وقوله :

سلام على تلك المرابع إنها معاهد ألافى وعهد صحابى
ويا آسة المغنى انعمى فلطالما سكبت على مثواك ماء شبابى

ومن محاسنه فى الطباق :

أرادوه فارتدوا وجاروه فانثنوا وساموه فى مرقى الجلالة فانحطوا

وقوله فى حال الأمن :

فأيقن مرتاب وأصحب نافر وأذعن معتاص وأقصر مشتط

ومن محاسن تورياته ـ وإن لم تكن هذه الغاية من منافذ خواطره ـ ما نبه عليه بنفسه؛ قال رحمه الله فى كتابه المسمى بالصيب والجهام: فمن التورية على طريق المشارقة قولى :

مضجعى فيك عن قتادة يروى ورووى عن أبى الزناد فؤادى
وكذا النوم شاعر فيك أمسى من دموعى يهيم فى كل واد

ومن قصيدة فى وصف فرس :

فبوأته من مهجتى متبوأ خفيا على سر الفؤاد المكتم
فيا عجبا منى وفرط تشيعى أهيم بوجدى فيه وهو ابن ملجم

وفى رجل يحتال على الولاية :

حلفت لهم بانك ذو يسار وذو ثقة وبر فى اليمين
ليستندوا اليك بحفظ مال فتأكل باليسار وباليمين

ومن محاسن جناسه على قصوره فى هذه الغاية ايضاً :

مالى أهذب نفسى فى مطامعها والنفس تأنف تهذيبى وتهذى بى
إذا استعنت على أمر بتجربة تأبى المقادير تجريبى وتجرى بى

وقوله وفيه تورية مسروقة من المشارقة :

دعوتك للود الذى جنباته تداعت مبانيها وهمت بأن تهى
وقلت لعهد الوصل والقرب بعدما تناءى وهل أسلو حياتى وأنت هى
ومن شام من جو الشبيبة بارقا ولم تنهه عنه النهى كيف ينتهى

(يتبع) احمد السكندرى

شخصيات قومية

على باشـــــا مبارك

١٨٢٤ — ١٨٩٣

زعيم نهضة العلم والتعليم فى عصر اسماعيل

بقلم الأستاذ الجليل : عبدالرحمن بك الرافعى

فى تاريخنا القومى شخصيات بارزة تعد أركانا للنهضة المصرية ، لما لها من الأثر البالغ فى تطورها والتطلع بها إلى المثل العليا فى شتى مظاهرها من الناحية الأخلاقية والوطنية ، أو العلمية والأدبية ، أو الاقتصادية والاجتماعية.

ومن واجب الوفاء لهذه الشخصيات أن نذكرها بالخير ، ونخصص لها ما هى جديرة به من البحث والدرس ؛ ولا غرو فالشخصيات المجيدة فى تاريخ مصر هى كالكواكب النيرة فى سماء النهضة القومية .

وإنا موفون اليوم بعض هذا الواجب نحو علم من أعلام مصر ، المرحوم على مبارك باشا ، زعيم نهضة العلم والتعليم فى عصر اسماعيل ، فهو عماد هذه النهضة ، وقلبها النابض ، ورأسها المدبر ؛ وهو من الشخصيات الفذة التى سطعت سطوعا قويا فى عهد إسماعيل ؛ ويعد تاريخه قطعة من هذا العصر ، والعصور التى تلته ، إلى عصرنا الحاضر ، وإلى ماشاءالله .

نشأته الاولى (١)

ولد المترجم فى برنبال الجديدة من أعمال مركز دكرنس بمديرية الدقهلية سنة ١٨٢٤ م (سنة ١٢٣٩ هـ) وأبوه الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجى من أهالى هذه الناحية ، وجده الأعلى من ناحية كوم بنى مراس والخليج على بحر طناح من أعمال مركز المنصورة « ولفشل كبير حصل فى هذا البلد » تشتتت عائلته ، فأقام جده الأكبر إبراهيم

(١) اعتمدنا فى بيان معظم (الوقائع) على ما استخلصناه من ترجمة على باشا مبارك لنفسه فى الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٣٧

الروجى فى برنبال الجديدة ، ونال فيها مكانة عالية ، فكان هو إمامها وخطيبها وقاضيها ، وبقيت هذه المكانة فى نسله حتى عرفت عائلتهم بعائلة المشايخ .

ولاضطهاد وقع بأهل برنبال وإرهاقهم بالضرائب الثقيلة هاجرت عائلة مبارك، وتفرقت فى البلاد ، فنزل والد المترجم بقرية (الحماديين) من بلاد الشرقية (بمركز فاقوس الآن) ، وكان ابنه لم يبلغ بعد السادسة من عمره ، ولم تطب لهم الاقامة فى هذه البلدة ، إذ لم يلقوا فيها إكراماً ، فارتحلوا منها إلى عرب السماعنة بالشرقية ، فأحسنوا وفادة والد المترجم ، وأكرموا مثواه ؛ ولم يكن فى بلدتهم فقهاء ، فجعلوه مرجعهم فى الأحكام الدينية ، وبنوا مسجداً جعلوه إمامه ، ولما بدأ يستريح من الشدائد التى عاناها قبل أن يهبط هذا البلد، أخذ يعنى بتهذيب ابنه وتعليمه ، وكان المترجم قبل رحيله من برنبال، قد بدأ بتعلم القراءة والكتابة على رجل ضرير من أهلها ، فلما استقر بأبيه المقام بين عرب السماعنة أخذ يعلمه بنفسه ، ثم أسلمه إلى فقيه اسمه الشيخ أحمد أبو خضر ، أصله من ناحية (الكردى) وهى بلدة قريبة من برنبال ، ثم ارتحل إلى قرية صغيرة على مقربة من مساكن أولئك العرب، وهناك حفظ المترجم القرآن فى سنتين على يد ذلك الفقيه .

وكان الشيخ يقسو فى معاملته ويضربه، كما هى عادة الفقهاء والمعلمين مع تلاميذهم فى ذلك العصر ، فامتنع عن متابعة الحفظ على يده ، وأبى أن يذهب إليه ، وجعل يقرأ عند أبيه ، لكن أباه كان لا يستطيع التفرغ لتعليمه لكثرة مشاغله وشواغله ، فتراخى المترجم فى الحفظ والدرس، وكاد ينسى ما حفظه ، فهم أبوه أن يجبره على الرجوع إلى الفقيه ، لكنه أبى أن يعود إليه ، وحدثته نفسه بالهرب لما كان يجده من سوء المعاملة ، فتدخل إخوته فى الأمر ، فأبدى لهم نفوره من الحفظ ، وأعرض عن أن يكون « فقيها » ، ورغب أن يكون « كاتباً » لما كان يراه على الكتاب من حسن الهيئة والقربى من الحكام .

وكان لأبيه صديق كاتب بناحية (الاخيوة) ، فأسلمه إليه ليتعلم الكتابة على يده ، فلازمه فى داره يتعلم عنه ، ولكنه رأى منه قسوة وغلظة، وناله منه أذى شديد ، إذ سأله يوماً عن الواحد فى الواحد ، فأجابه باثنين ، فضربه بمقلاة البن ، فشج رأسه ، وكان ذلك على ملأ من الناس ، فشكاه إلى أبيه ، فلم يحفل بشكايته ، فهرب وانتهى به المطاف إلى العودة وحيداً إلى برنبال ، وهناك وافاه أخوه الذى كان يبحث عنه ، فأعاده إلى أبيه، وقد حار فى معالجته وتعليمه، وأبدى المترجم نفوره من الرجوع إلى الكاتب أو الفقيه لما رأى منهما من الايذاء والضرب .

فارتأى أبوه أن يعهد به إلى صديق له من كتبة المساحين ، فرضى بذلك، ولازمه ثلاثة أشهر، ثم انفصل عنه وبقى فى بيت أبيه يقرأ عليه ، وبعد سنة جعله مساعداً لكاتب فى مأمورية أبى كبير بمرتب قدره خمسون قرشاً ، ولكن الكاتب لم ينقده أجره ، إلى أن تسلم يوماً حاصل الجباية من

أبى كبير، فاستنقد منه راتبه المتأخر ، فنقم عليه الكاتب ، وأغرى به مأمور أبى كبير ، واتفق وإياه على تجنيده ، فاستدعاه المأمور ، واعتقله ، ووضع الغل فى عنقه ، ولبث فى السجن بضعة وعشرين يوماً، قاسى فيها مر الشدائد والآلام ؛ ولما علم أبوه بسجنه رفع ظلامته إلى محمد على باشا عزيز مصر ، وكان إذ ذاك فى منيا القمح ، فكتب باخلاء سبيله، وإطلاق سراحه ، وعاد أبوه بالأمر ليطلب من المأمور تنفيذه ، وقبل أن يحضر جاء السجن صديق للسجان وأفضى إليه أن مأمور زراعة القطن بناحية أبى كبير فى حاجة إلى كاتب ، فدله السجان على المترجم ، ووصفه له بالنجابة ، وحسن الخط ، وبعد قليل جاء أمر الافراج عنه، وذهب إلى مأمور الزراعة، وكان أسود حبشياً ، يدعى (عنبر أفندى) ، فاتخذه كاتباً عنده مقابل جراية يومية من الخبز، وخمسة وسبعين قرشاً فى الشهر ، فارتضى هذا العمل؛ وكانت سماحة أخلاق عنبر أفندى وطيبته مما رغبه فى البقاء فى هذه الوظيفة .

مايؤخذ من نشأته الأولى

إلى هنا ليس فى نشأة المترجم الأولى شىء ممايلفت النظر ، لكنها تصلح أن تكون صورة مصغرة للحياة الاجتماعية والتعليمية فى ذلك العصر .

فانتقال عائلة المترجم من بلد إلى بلد ، من كوم بنى مراس على بحر طناح ، إلى برنبال بأقصى الدقهلية شمالا ، ثم إلى السماعنة بالشرقية ، كان نتيجة سوء معاملة الحكام للأهلين فى ذلك العصر، وإرهاقهم بالضرائب الجائرة، مما اضطر تلك العائلة، وكثيراً مثلها، إلى الرحيل فراراً من المطاليب التى لم يستطيعوا أداءها، بعد أن تجردوا من ماشيتهم ومتاعهم ، وتشدد الحكام فى استخلاصها بالسجن والضرب ، فلم يجدوا مخلصاً من هذه المظالم، سوى الهجرة من بلدتهم ؛ وهذا يعطينا صورة من مظالم الحكام فى ذلك العهد ، إذ لم يكن ثمة قانون يمنع ظلم القوى للضعيف ، ويحول دون اعتداء الحاكم على المحكوم، ولا ضرائب منتظمة معلومة المقدار، يعرف كل إنسان حدود ما عليه منها ، بل كانت متروكة لأهواء الحكام والرؤساء ، فلا جرم أن استهدفت آل المترجم إلى التجرد من متاعهم وماشيتهم ، ثم إلى السجن والضرب ، ثم إلى الهجرة والتنقل من بلد إلى بلد فراراً من المظالم .

وهذه النشأة تعطينا من جهة أخرى صورة لما كانت عليه حالة التعليم قبل أن يألف الناس المدارس الحديثة ، فان فكرة تعليم الأبناء كانت موجودة عند الآباء الذين نالوا حظاً من العلم، يدلك على ذلك ميل والد المترجم إلى تعليم ابنه قدر مايستطيع ، لكن طريقة التعليم كانت رديئة لاتثمر تنمية الفكر وتهذيب النفس ، ففقيه القرية، وكاتب الاخيوة، وأمثالهما من الفقهاء والعرفاء، كانوا من الجهل والقسوة بحيث لاينتج التعليم على أيديهم سوى الجهالة، وبث روح الخوف والجبن فى أخلاق الشباب، لأن القسوة والضرب يقتلان فى نفس التلميذ روح الشجاعة والأخلاق الفاضلة

وليس فى نشأة المترجم الأولى حالة غير عادية تجعل منه رجلا يختلف عن معاصريه ، ولكن أمراً واحداً فى هذه الفترة يلفت النظر ، ذلك هو نفوره من الذل ، ومجافاته قسوة المعلم ، فقيهاً كان أم كاتباً ؛ أفلا تراه يؤثر الهجرة على احتمال القهر والضرب ؟ ألا تراه كأنما يتقدم عصره ويبذ معاصريه ، فيتطلع إلى أسلوب فى التعليم أرقى من الأسلوب العتيق الذى كان مألوفاً فى عصره ؟

إن هـذه ظاهرة تدل على أن نفس الفتى الصغير تأبى الذل ولا تقيم على الضيم ، وتلك ناحية تدل على سمو الخلق ، لأن إباء الذل يدل على نفس عزيزة ، وعزة النفس تجمع حولها سمطاً من الأخلاق الكريمة .

ولا مراء أن تلك النفس العزيزة كانت من أسباب نبوغ المترجم ، فلو هو رضى بالذل والهوان ، لاستمر فى طريقه ، ولم يتجاوز أن يصير كاتباً بسيطاً مرءوساً لمثل عنبر افندى ؛ ولكن انظر إلى ما حدثته به نفسه ـ وهو يشغل هذه الوظيفة ـ تجد نفساً متوثبة كانت تختلج بين جوانح المترجم .

فقد روى عن نفسه أنه لما اشتغل كاتباً لعنبر افندى رأى منه رأفة وشفقة وحسن معاملة تختلف عما لقيه من كاتب أبى كبير ؛ لكنه شعر بأن لو كان عنبر افندى على غرار ذلك الكاتب ، لما وجد من ينقذه من قسوته وسوء معاملته ، ومن ثم اتجهت نفسه الى أن يكون « بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها » كما يقول المترجم .

فهذا الشعور هو فيض النفس العزيزة التى تأبى الذل ، وتطمح الى المعالى ، وهو شعور كريم كان له أثره فى حياة على مبارك .

وإن سمو هذا الشعور ليدعونا فى إعجاب أن نتساءل : من أين اقتبسه ؟ وكيف اختص به دون أقرانه فى القرية ؟ إن هذا هو سر نبوغ العظماء ، لا تجد له تعليلا دقيقاً ، فاذا عللته بتأثير البيئة أو الوراثة اعترضك فى هذا أن النابغة قد ينشأ وغيره من الناس فى بيئة واحدة ، ومن أب واحد ، وأم واحدة ، ومع ذلك ينفرد بالنبوغ دون أقرانه وإخوته .

قد يكون السر فى النبوغ هو الاستعداد الفطرى للنبوغ ، يولد مع صاحبه ، أو هو الالهام الذى يودعه الله نفس النابغة ، أو هو التوفيق والعناية الالهية ، لك أن تفسره بمعنى من هذه المعانى ، أو بها كلها مجتمعة ؛ ولكن علينا أن نحسب حساباً لتأثير الوسط والوراثة ، فلا شك أن على مبارك قد اقتبس شيئاً من أخلاق أبيه ، فقد كان جده الأكبر رجلا « مكرماً معظماً » نزل ببلدة برنبال ، ولم يكن من أهلها ، فصار إمامها وخطيبها وقاضيها ، وبعد وفاته بقيت هذه الوظيفة فى نسله طبقة بعد طبقة ، فلو لم يكونوا على أخلاق فاضلة ، ونفوس طيبة ، لما احتفظوا بهذه المنزلة ، حتى صارت عائلتهم تعرف بعائلة المشايخ .

وكذلك لما هجر أبو المترجم ناحية برنبال ، ونزل بقرية الجماعنة ، احتفظ بعزة النفس ، ونال من أهل تلك القرية مكانة ممتازة ، أدركها بعلمه وفضله ، وإنك لتلمح عزة نفسه من كونه لم

يطق صبراً على اعتقال ابنه ، وذهب إلى منيـا القمح،حيث كان عزيز مصر (محمد على باشا) ، ورفع إليه ظلامته ، وشكا إليه ما حاق بابنه من السجن ، فالشكوى من الظلم ، والاستصراخ إلى ولى الأمر من الأمور التى تحتاج (فى ذلك العصر) إلى شيء من الجرأة والشجاعة ؛ فكم من المظالم كانت ترتكب ويستسلم لها المظلومون ، وإذا حدثتهم أنفسهم بالشكوى منها، فقلما تحفزهم الشجاعة إلى إبلاغها لأكبر رأس فى الحكومة .

فأغلب الظن أن المترجم قد اقتبس من أبيـه تلك النفس العزيزة ؛ وهـذا فضل يجب أن نسجله لوالد المترجم ، الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجى .

نشأته الثانية فى المدارس النظامية

إن طموح نفس المترجم إلى المعالى هو الذى سلك به سبيل المدارس النظامية ، ذلك أنه حينما اشتغل كاتباً عند عنبر افندى أخذ يسأل فراش المأمور عن أخبار سيده ، وأسباب بلوغه هـذا المركز الممتاز فى الحكومة ، وكان يدهشه أن عنبر افندى،وهو أسود حبشى،يصل إلى هذا المنصب ، حين كان يعتقد « أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك على حسب ماجرت به العادة فى تلك الأزمان » فعلم من الفراش عن سبب ارتقائه أنه كان مشترى سيدة من ذوات المكانة والجاه ، فأدخلته مدرسة قصر العينى ، إحدى المدارس النظامية التى أنشأها محمد على باشا ، فتعلم فيها وتخرج منها،وصار أهلا للمركز الذى يشغله،وعلم أن الحكام يؤخذون من خريجى هذه المدارس .

فلما استمع المترجم لهذا الحديث، مالت نفسه إلى دخول تلك المدارس،ليصل إلى ما وصل إليه عنبر افندى ، وأخذ من تلقاء نفسه يسـأل عن السبيل إلى دخول المدارس النظاميـة ، وسأل الفراش: هل يدخلها أحد من « الفلاحين » ؟ فقال يدخلها «صاحب الواسطة» ، فتعلقت نفسه بالسعى لدخولها ، واعـتزم ترك العمل الذى كان يشتغل به، والذهاب إلى مصر ليلتحق بمدرسة قصر العينى .

دخوله مدرسة ميت العز

وما هو آن خالجه هذا العزم حتى صمم على إنفاذه،دون أن يكاشف أحداً ، فطلب الاذن من رئيسه بأجازة يقضيها فى زيارة أهله ، فأذن له بخمسة عشر يوماً، وسافر إلى وجهته.

وفيما هو يسير فى طريقه مر بقرية (بنى عياض (١)) والتقى بجماعة من الأطفـال يتبعون رجلا خياطاً ، وكل منهم يحمل دواة وقلماً ، فاجتمع بهم تحت شجرة ، وتعرف حالتهم ، فاذا هم تلاميذ مكتب ميت العز،أحد المكاتب التى أسسها محمد على باشا، وكان ذلك فألا حسناً للمترجم،

(١) بمركز هيا الآن ، قبلى ابى كبير بشرق .

كما يقول عن نفسه ، إذ أنه حين اجتمع بالأطفال ورأى الخياط خطه أجود من خطوطهم، رغب إليه أن يدخل مكتب ميت العز ، وأفهمه أن نجباء المكاتب ينتقلون إلى المدارس بلا واسطة ، فابتهج المترجم لهذه الفكرة ، إذ وجد فيها بغيته التي ينشدها ، ولم يكن أحب إلى نفسه من أن يسلك سبيل الدخول إلى المدارس،ويجتاز تلك العقبة التي أشار إليها فراش المأمور في حديثه له وهي « الواسطة » لدخول المدارس ، ورأى أن الاجتهاد في المكتب سيغنيه عن تلك الواسطة التي قد لا يجدها .

دخل المترجم مكتب ميت العز، وناظره من معارف أبيه ، وكان يعلم أن دخول ابنه المكتب لا يرضيه ، فأراد أن يصرفه عن دخوله ؛ ولكنه رأى منه إصرارا على الالتحاق به ، فبقي بالمكتب خمسة عشر يوماً، وأرسل الناظر إلى أبيه ، فجاء يسعى في إرجاعه عن عزمه فأبى ، فلجأ إلى حيلة ينتزعه بها من المدرسة ، فاتفق مع الناظر على أن ينتهز الفرصة في خروج ابنه إلى الفسحة وقت الظهر، فاختطفه وعاد به قسراً إلى بلده ، وحبسه في البيت عشرة أيام ، وأخذت أمه تبكي وتستعطفه ليرجع عن عزمه ، كي يبقى بينهم ولا يفارقهم،فوعدها بالبقاء، ولكنه أسر في نفسه أن يغتنم أقرب فرصة لفراق أهله وذويه، ويرحل في طلب العلم، وانتظر حتى اطمأنوا إلى عدوله عن فكرته ؛ ولما كانت إحدى الليالي تربص حتى ناموا جميعاً ، وأخذ دواته وأدواته ، وخرج من البيت خائفاً يترقب ، وتوجه تلقاء ميت العز، وكان ذلك كما يقول المترجم، آخر عهده بسكناه بين أبويه، وكانت ليلة مقمرة ، فمشى حتى بلغ ميت العز ضحى الغد ولم يشعر الناظر بمجيئه إلا وهو داخل المكتب مع زملائه التلاميذ، وكأنما خشي أن يجيء أبوه ويحتال على اختطافه ثانية ، فلزم المكتب لا يخرج منه ليلا ولا نهاراً ، وجاء أبوه غير مرة ليقنعه بالعدول عن عزمه ، وليأخذه بالحسنى ، فلم ينجح مسعاه ، واستمر الغلام ملازماً المكتب مكبا على الدرس والتحصيل .

انتقاله إلى مدرسة قصر العيني

بقي المترجم في مكتب ميت العز إلى أن جاء ناظر مدرسة الخانكة (عصمت افندي) لاختيار نجباء التلاميذ من المكتب المذكور ليلتحقوا بمدرسة قصر العيني ، فكان التلميذ على مبارك ممن وقع عليهم الاختيار ، فجاء أبوه يحاول من جديد صرفه عن الذهاب إلى المدرسة ، وشكا أمره إلى عصمت افندي ، فأحاله على ابنه ، وقال إن الخيار له ، فخيروه بين العودة وأبيه أو الالتحاق بالمدارس ، فاختار المدارس ، فبكى والده بكاء كثيراً ، وأغرى به جماعة من المعلمين ليستميلوه ، فلم يصغ لهم،ودخل مدرسة قصر العيني سنة ١٨٣٦، وكان لا يتجاوز يومئذ الثانية عشرة من عمره.

وهنا تبدو ظاهرة جديدة في شخصية المترجم ، إلى جانب ما ذكرناه عن عزة نفسه، وطموحه

إلى المعالى ، وهى ميله الفطرى الى العلم ، وشغفه بالارتواء من منهله العذب ، وما فطر عليه من قوة الارادة ، ومضاء العزيمة .

فانظر إلى مبلغ حبه للعلم والتعلم ، تجده يسعى جهده للالتحاق بالمدارس ، رغم إرادة والديه ، وليس من المألوف بين الأطفال والشبان أن يقبلوا على العلم بوازع من أنفسهم ، بل آباؤهم هم الذين يدفعونهم إلى دخول المدارس ، ويرغبونهم بمختلف الوسائل فى متابعة الدروس ؛ وكثيراً ما يتعب الآباء فى ترغيب أبنائهم إيلاف المدرسة والاقبال عليها .

فالغلام الذى يتعلق بدخول المدارس رغم إرادة أبويه ، ويستهدف لغضبهما فى هذا السبيل ، لا بد أن يكون قد ركب فى نفسه شغف شديد بالعلم والتعليم .

وتتجلى أيضاً قوة عزيمة المترجم فى تصميمه دخول المدارس ، رغم تلك العقبات التى اعترضته ، فمن إغضاب والديه ، إلى بعد الشقة ، ووعورة الطريق ، إلى قلة ذات يده ، إلى صغر سنه ، إلى المغامرة بنفسه فى حياة يجهلها ولا يعرف مصيرها ، كل ذلك يدل على حظ عظيم من صدق العزيمة وقوة الارادة .

فعزة النفس ، والطموح إلى المعالى ، وحب العلم ، وقوة الارادة ، هذه هى الصفات التى تطالعنا بها شخصية على مبارك ، وهو بعد فى سن الطفولة والمراهقة .

وسنرى كيف لازمته هذه الصفات فى كل أدوار حياته ، فكان لها ذلك الأثر العظيم فى أعماله .

التعليم فى مدرسة قصر العينى

لم تكن مدرسة الطب قد نقلت بعد إلى قصر العينى حينما جاء مصر على مبارك ، بل كانت لم تزل بأبى زعبل ، أما المدرسة التى كانت بقصر العينى وقتئذ (سنة ١٨٣٦) فهى مدرسة إعدادية للمدارس الحربية والعالية .

وصف المترجم التعليم فى تلك المدرسة ، ويؤخذ من وصفه أنه لم يكن على درجة حسنة من التقدم ، لا من جهة مستوى التعليم فى ذاته ، ولا من جهة معاملة التلاميذ ، فقد ذكر أنه وجد المدارس على خلاف ما كان يظن ، وأن مدرسيها ورؤساءها كانوا لا يحسنون فهم وظائفهم ، ولا يعنون بالتلاميذ ، وكان التعليم العسكرى موضع العناية فيها ، فيتمرن الطلبة على الحركات الحربية فى معظم الأوقات : فى الصباح ، والظهر ، وبعد الأكل ، وفى أماكن النوم ، والضرب وأنواع الايذاء من الأمور المألوفة فى التعليم ، وكذلك قلة العناية بمأكل التلاميذ ومسكنهم ، فكانت مفروشاتهم حصر الحلفاء ، وأحرمة الصوف الغليظ من صنع معمل بولاق ، ولم يكن الأكل الجارى للتلاميذ سائغاً فكان على مبارك يستعيض عنه بالجبن والزيتون .

وقد اعتراه فى المدرسة مرض ، لما اجتمع عليه من الأفكار والهموم وتغيير الطقس ، فنقل إلى مستشفى المدرسة ، ولقى فى مرضه الشدائد والآلام ، ولحقه الجوع بالمستشفى ؛ وفيم كان

على فراش المرض، جاء أبوه إلى قصر العينى ، واتصل به بواسطة أحد الممرضين ، ورغب إليه أن يعود معه إلى بلده ، فمالت نفسه لاجابته ، وهم بترك المدارس لما لقيه فيها من التعب والنصب ، ولعدم وجدانه التعليم الذى ينشده ؛ ولكنه خشى عواقب الهرب من المدرسة، إذ كانت الحكومة تتعقب الهاربين من التلاميذ وتعتقل أهليهم ، وتسىء معاملتهم ، فخشى أن ينال أباه من عنت الحكومة مالا يرضاه له ، فامتنع عن الهرب ، فعاود أبوه الكرة يستميله، ويهون عليه الأمر ، فأبى واعتزم « الصبر على قضاء الله » ، ولما شفى انتقل من المستشفى إلى المدرسة واستأنف الدرس ولم يصب بمرض بعد ذلك أثناء دراسته.

انتقاله إلى مدرسة أبى زعبل

ولما نقلت مدرسة الطب إلى قصر العينى سنة ١٨٣٧ تحول تلاميذ مدرسة القصر إلى أبى زعبل ، فانتقل إليها المترجم كسائر تلاميذ المدرسة .

وقد شعر بتقدم مستوى التعليم فى مدرسة أبى زعبل ؛ وينسب المترجم هذا التقدم إلى كفاءة ناظر المدرسة ، المرحوم ابراهيم بك رأفت ، وحسن عنايته بتعليم النشء ؛ ومما ذكره فى هذا الصدد أنه فى بداءة عهده كان يجد صعوبة كبيرة فى تفهم فنون الهندسة والحساب والنحو ، وكان يراها كالطلاسم ، ويرى كلام المدرسين فيها كالسحر ؛ ولكن إبراهيم بك رأفت أوضح للتلاميذ معانى الهندسة وقواعدها بأسلوب سهل تقبله عقولهم ، فانفتح لحسن بيانه ذهن المترجم ، وبدأ يعى مايسمع من الدروس .

ولفت نجاح التلميذ على مبارك نظر رأفت بك ، فصار يضرب به المثل ، ويتخذ نجاحه على يديه دليلا على تأثير أساوب المدرس فى تثقيف أذهان التلاميذ .

وفى سنة ١٨٣٩ اختار ولاة الأمور نجباء مدرسة أبى زعبل ؛ لألحاقهم بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، فكان على مبارك ضمن هؤلاء .

(يتبع) عبد الرحمن الرافعى

فى الجزء المقبل

يتناول الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى بك ، الكلام على: دخول على مبارك مدرسة المهندسخانة ، وانتظامه فى سلك البعثات ، ثم التحاقه بمدرسة متز الحربية ، فعمله فى عهد عباس ، ثم تعيينه مدرساً فى مدرسة طره الحربية ، والتحاقه بمعية عباس باشا ، ونظارته للمهندسخانة .

عبرة من التاريخ

كلمات تذهب بملك آل صفرة

للمؤرخ الكبير : الشيخ عبد الوهاب النجار

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

— ٤ —

تأتى الرياح بما لا يشتهى السفن : كان حميد بن المهلب وهو ذاهب إلى البصرة مغتبطاً بما أتى راجياً حمد مغبة سراه ، غير حاسب لما تأتى به الأقدار من إحباط مسعاه حساباً ، فجاءه من الشر مالم يحتسب ، وتقطعت به الأسباب فى كلمتين :

ذلك أن الوفد – وفد الأمان – لقى فى طريقه المغيرة بن زياد بن عمرو العتكى ، يريد الشام فارا من يزيد ، فسأل خالداً وعمراً سراً من حميد ، وقال لهما : ما تريدان ؟ فأخبراه بأمان يزيد بن المهلب ، فقال : إن يزيد قد ظهر على البصرة وقتل القتلى وحبس عدياً بن أرطاة أميرها فارجعا .

ما كان من حق خالد وعمرو أن يرجعا فى حافرتهما لمجرد ذلك الخبر ، بل كان عليهما أن يبلغا يزيد كتاب الأمان وينتظرا ما يرد به عليهما ، ولكنهما قفلا راجعين ، وأخذا حميداً معهما ، ولم يجد استعطاف حميد لهما ، إذ قال لهما :

« أنشدكما الله أن تخالفا ما بعثتما به ، فإن ابن المهلب قابل منكما ، وإن هذا وأهل بيته لنا أعداء ، فلا تسمعا مقالته » فلم يصغيا إليه ورجعا به إلى يزيد . وهنا تبدأ مصيبة آل المهلب .

فى الكوفة : قام عبد الحميد بن عبد الرحمن والى الكوفة – حين ترامت إليه أخبار يزيد – فأوثق خالد بن يزيد ، وعبد الملك بن زحر ، ولم يكونا فى شىء من أمر يزيد ، ولم يغمسا فى الفتنة يداً ، وبعث بهما إلى الشام فلم يفارقا السجن حتى هلكا فيه .

الجد من يزيد بن عبد الملك : حينئذ شمر يزيد بن عبد الملك عن ساعده ، وأعد جيشاً لملاقاة يزيد بن المهلب بالعراق ، قوامه سبعون أو ثمانون ألف مقاتل ، قائداه مسلمة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، وأرسل بالأموال تفرق فى أهل الكوفة .

نرجع بالكلام إلى يزيد بن المهلب بالبصرة ، فقد اتسق له الأمر ونفذت كلمته فيهم ، وفرق عماله فى الأهواز وفارس وكرمان ، وبعث أخاه مدركا إلى خراسان فصرفه من بها من قومه من أزدشنوءة قائلين : « إنك أحب الناس إلينا وقد خرج أخوك ، فإن يظهر فانما ذلك لنا ونحن أسرع الناس إليكم وأحقهم بذلك ، وإن تكن الأخرى فمالك فى أن تغشينا البلاء راحة » فانصرف عنهم

جمع يزيد الجنود : لما علم يزيد بن المهلب أن جيوش الشام على قدم المسير إليه والالتقاء به جمع اهل البصرة وخطبهم وأخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ويحثهم على الجهاد ويزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الديلم، ثم أخذ يشجع جبناءهم ويحفز الناكل منهم، ويهون عليهم شأن أهل الشام ويحقر مسلمة ويقول من بعض خطبه:

« قد رأيت أهل العسكر وخوفهم يقولون : جاء أهل الشام ومسلمة، وما أهل الشام ؟ هل هم إلا تسعة أسياف، سبعة منها لى، وسيفان على ؟ ومامسلمة إلا جرادة صفراء، أتاكم فى برابره وجرامقته وجراجمه وأنباط وأبناء فلاحين وأوباش وأخلاط ؛ أو ليسوا بشراً يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون ؟ »

المعارضون ليزيد بن المهلب من أهل البصرة : لم يرتفع صوت بمعارضة يزيد بن المهلب سوى صوت الحسن البصرى التابعي الشهير، لا حباً فى بنى أمية، فقد كانوا عنده فسقة ظلمة، ولكنه كان رجلا يكره الفتن ولا يرى من ورائها خيراً، وقد رأى فتنة الجمل وأثرها فى البصرة، وقتل الحسين وما أحدث، وفتنة ابن الزبير وما جلبت على مكة وأهلها والبيت والمسلمين من الضرر، ووقعة الحرة وسوء أثرها، ووقائع الخوارج وما أحدثت من الرعب والخوف فى قلوب المسلمين، فهو يكره هذه الأمور ويرى أن قيام يزيد لم يكن فى باطن الأمر لأحقاق حق ولا لأبطال باطل.

روى ابن الأثير أن الحسن البصرى كان يسمع خطبة يزيد فرفع صوته قائلا : لقد رأيناك والياً ومولياً عليك فما ينبغى لك ذلك، يريد أننا رأيناك راضياً بسلطان بنى أمية وأنت رعية مسوس، كما رأيناك راضياً به وأنت وال والحال لم تتغير، فلا ينبغى لك أن تحدث الفتنة لهواك.

أما يزيد بن المهلب فاحتملها للحسن ولم يشأ أن يحدث صدعاً فى صفوف من اجتمعوا له بمحاجة الحسن أو إيصال الأذى إليه، وأما أصحاب الحسن فأشفقوا عليه أن يمسه يزيد بأذى فأخذوا بفمه ثم خرجوا به من المسجد.

كان على باب المسجد النضر بن أنس بن مالك خادم رسول الله، وكان ممن يخطب فى حبل يزيد بن المهلب يقول : ياعباد الله ! ماذا تنقمون من أن تجيبوا إلى كتاب الله وسنة نبيه؟ فوالله ما رأينا ذلك مذ ولوا علينا إلا أيام عمر بن عبد العزيز. فقال الحسن : والنضر أيضاً قد شهد ؟

وقد مر الحسن بالناس وقد نصبوا الرايات وهم ينتظرون خروج يزيد ويقولون : يدعونا إلى سنة العمرين ؟ فلم يطق الحسن البصرى صبراً، فقال : كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون، ثم يرسلها إلى بنى مروان يريد رضاهم، فلما غضب نصب قصباً ثم وضع

عليها خرقاً ثم قال : إنى خالفتهم فخالفوهم ، فقـال هؤلاء نعم ، ثم قال : إنى أدعوهم إلى سنة العمرين،وإن من سنة العمرين أن يوضع فى رجله قيد ثم يرد إلى محبسه .

انبرى للحسن بعض أصحابه وقالوا له : لكأنك راض عن أهل الشام ، فقال : أنا راض عن أهل الشام ؟ قبحهم الله وبرحهم،أليس هم الذين أحلوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلون أهله ثلاثاً؟ قد أباحوها لأنباطهم وأقباطهم يحاون الحرائر ذوات الدين لاينتهون عن انتهاك حرمة ، ثم خرجوا إلى بيت الله الحرام فهدموا الكعبة وأوقدوا النار بين أحجارها وأستارها؟عليهم لعنة الله وسوء الدار.

ومن الأمور التى وقعت للحسن البصرى، وكان دائم التثبيط عن يزيد بن المهلب، وكان يزيد قد زحف بالجيوش للقاء جيوش الشام وخلف أخاه مروان بن المهلب والياً على البصرة، فبلغ مروان ما يقوله الحسن البصرى .

قام فى الناس فقال: بلغنى أن هذا الشيخ الضال المرائى (ولم يسمه) يثبط الناس ، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه ، وايم الله ليكفن عن ذكرنا وعن جمعه إليه سقاط الأبلة وعلوج فرات البصرة،أو لأنحين عليه مبرداً خشناً .

بلغ ذلك من قوله الحسن ، فقال : والله ليكرمنى الله بهوانه ، فقال ناس من أصحابه : والله لو أرادك ثم شئت لمنعناك . فقال لهم : فقد خالفتكم إذ ذاك إلى مانهيتكم عنه : آمركم أن لا يقتل بعضكم بعضاً مع غيرى ، وآمركم أن يقتل بعضكم بعضا دونى ؟

بلغ قول أصحاب الحسن مروان، فاشتد عليهم وطلبهم فتفرقوا وكف عن الحسن.

ونقل ابن خلكان أن الحسن البصرى قال يوماً فى مجلسه: ياعجبا لفاسق من الفاسقين ومارق من المارقين،غبر برهة من دهره، ينهك لله فى هؤلاء كل حرمة،ويركب له فيهم كل معصية،ويأكل ما أكلوا، ويقتل من قتلوا ، حتى إذا منعوه لماظة كان يتلمظها ، قال : أنا لله غضبان فاغضبوا ، ونصب قصباً عليها خرق وتبعه رجراجة رعاع هباء، مالهم أفئدة، وقال أدعوكم إلى سنة عمر بن عبد العزيز ؛ ألا وإن من سنة عمر أن توضع رجلاه فى قيد،ثم يوضع حيث وضعه عمر ؛ فقال له رجل : أتعذر أهل الشام يا أبا سعيد ؟ ـ يعنى بنى أمية ـ فقال : أنا أعذرهم ؟ لا عذرهم الله ـ والله لقد حدث ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم إنى قد حرمت المدينة بما حرمت به بلدك مكة ؛ فدخلها أهل الشام ثلاثاً لا يغلق لها باب إلا أحرق بما فيه،حتى أن الأقباط والأنباط ليدخلون على نساء قريش فينتزعون خمرهن من رءوسهن وخلاخلهن من أرجلهن بسيوفهم على عواتقهم وكتاب الله تحت أرجلهم. أنا أقتل نفسى لفاسقين تنازعا هذا الأمر ؟ والله لوددت أن الأرض أخذتهما خسفاً جميعاً .

فبلغ ذلك يزيد بن المهلب فأتى الحسن هو وبعض بنى عمه إلى حلقته فى المسجد متنكرين

فسلموا عليه ثم خلوا به وصار الناس ينظرون إليهم ، فلاحاه يزيد ، فدخل فى ملاحاتهما ابن عم يزيد ، فقال له الحسن: فما أنت وذاك يابن اللخناء. فاخترط سيفه ليضربه به، فقال يزيد ماتصنع ؟ قال أقتله ، فقال له يزيد: أغمد سيفك، فوالله لو فعلت ذلك لانقلب من معنا علينا .

استشارة يزيد بن المهلب رؤساء جنده : لما تهيأ يزيد بن المهلب للمسير إلى واسط وانتظار جند الشام ، جمع رؤساء جنده وأجال الرأى معهم فيما يفعل .

كان رأى حبيب بن المهلب وغيره أن قالوا: الرأى أن تخرج وتنزل بفارس، فتأخذ بالشعاب والعقاب، وندنو من خراسان، ونطاول أهل الشام، فإن أهل الجبال يأتون إليك وفى يدك القلاع والحصون ، فقال يزيد: ليس هذا برأى ، أتريدون أن تجعلونى طائراً على رأس جبل؟ فقال حبيب: إن الرأى الذى كان ينبغى أن يكون أول الأمر قد فات ، قد أمرتك حيث ظهرت على البصرة، أن توجه خيلا عليها بعض أهلك إلى الكوفة، وإنما بها عبد الحميد مررت به فى سبعين رجلا فعجز عنك، فهو عن خيلك أعجز ، فسبق إليها أهل الشام وأكثر أهلها يرون رأيك، ولأن تلى عليهم أحب إليهم من أن يلى عليهم أهل الشام فلم تطعنى ، وأنا أشير الآن برأى : سرح مع بعض أهلك خيلا كثيرة من خيلك فتأتى الجزيرة ويسيروا إليها حتى ينزلوا حصناً من حصونهم وتسير فى إثرهم . فإذا أقبل أهل الشام يريدونك لم يدعهم جندك بالجزيرة يقبلون إليك فيقيموا عليهم، فيحبسوهم عنك حتى تأتيهم ويأتيك من بالموصل من قومك (أزد الموصل) وينفض إليك أهل العراق وأهل الثغور وتقاتلهم فى أرض رخيصة السعر ، وقد جعلت العراق كله وراء ظهرك . قال: أكره أن أقطع جيشى.

خرج يزيد بن المهلب إلى واسط ، وبعد أن أراح بها مدة خرج عنها وترك ابنه معاوية ومعه بيت المال والأسرى، ويمم بجيشه الكوفة ونزل موضعاً يقال له (العقر) وقدم أخاه عبد الملك نحو الكوفة فى جند ، فالتقى بجيش العباس بن الوليد فاصطدم الجيشان وانتهى الأمر بهزيمة جيش عبد الملك .

قواد الجيوش : كان قواد الجيش عند يزيد بن المهلب:

(١) عبد الله بن سفيان بن يزيد بن المغفل الأزدى : على أهل الكوفة وأهل المدينة .

(٢) أسد بن النعمان بن ابراهيم بن الأشتر: على مذحج وأسد .

(٣) محمد بن اسحق بن الأشعث: على كندة وربيعة .

(٤) حنظلة بن عتاب بن ورقاء التميمى : على تميم وهمدان.

(٥) المفضل بن المهلب: القائد العام للميدان .

وقد علمنا أن جند الشام كانوا جيشين: أحدهما مع مسلمة، والآخر مع العباس بن الوليد .

فأما جيش مسلمة فقواده:

(١) جبلة بن مخرمة الكندى على الميمنة.
(٢) الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابى: على الميسرة .
(٣) مسلمة بن عبد الملك: القائد العام للميدان.

وأما جيش العباس ففيه:

(١) سيف بن هانىء الهمدانى: على الميمنة.
(٢) سويد بن القعقاع التميمى: على الميسرة.
(٣) مسلمة بن عبد الملك: القائد العام للميدان.

وقد عبى كل أمير جيشه تعبية الحرب.

وقد تراسل يزيد بن المهلب ومسلمة فقال يزيد بن المهلب إنه يدعوهم إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسنة العمرين، فأظهر له مسلمة فى الرد أنه قابل لكل ما شرط راض به، ولم يكن ذلك من مسلمة إلا دهاء ومكرا حتى إذا استناموا إلى ذلك غدر بهم.

استشارة ابن المهلب أصحابه : استشار يزيد بن المهلب أصحابه فى أنه يريد أن يبيت مسلمة وجيشه بأن يبعث اثنى عشر ألفاً مع أخيه محمد بن المهلب معهم الأكف والبراذع ليلقوها فى الخندق المتحصن به جيش مسلمة ويمده بالرجال حتى إذا أصبح لحق به فى بيضة الجند، وأنه يرجو النصر بهذا التدبير.

وكأنى بالرؤساء والبارزين من الناس فى جيش يزيد قد كانوا على مثل ما كان نظراؤهم فى جيش على بن أبى طالب، ليس لهم تدبير ولا مكر ولا رأى أريب ، فانبرى له السميدع من وجوه أصحابه وقال له: إنا قد دعونا القوم إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله، وأجابونا بأنهم قابلون ذلك منا، فلا ينبغى لنا أن نغدر بهم أو نمكر حتى يردوا علينا ، وقال رؤبة رئيس الطائفة المرجئة وأصحابه ، صدق: هكذا ينبغى.

رد عليهم يزيد قائلا : ويحكم ! أتصدقون بنى أمية؟ إنهم يعملون بكتاب الله وسنة رسوله وقد ضيعوا ذلك منذ كانوا ؟ إنهم يخادعونكم ليمكروا بكم فلا يسبقوكم إليه ، إنى قد لقيت بنى مروان فما لقيت منهم أمكر ولا أبعد غدراً من هذه الجرادة الصفراء (يعنى مسلمة) فكان جوابهم: لا نفعل حتى يردوا علينا الذى قالوا .

هكذا غلب يزيد بن المهلب على رأيه وأفسد أصحابه عليه تدبيره ، كما غلب على بن أبى طالب على رأيه يوم رفع المصاحف ؟

(يتلى) عبد الوهاب النجار

حياتنا الادبيـــــة

بقلم الدكتور زكى مبارك

كتب الأستاذ الدكتور طه حسين كلمة فى (الدنيا المصورة) تحدث فيها عن الحياة الأدبية فى مصر، وأعلن شكه فى قيمة الأدب الحديث؛ وفى تلك الكلمة جوانب تستحق النقد، لذلك رأينا أن نناقشها مناقشة هادئة غاضين النظر عن بعض المؤاخذات التى واجهناه بها فى محادثة خاصة؛ وتتقدم كلمتنا هذه بملاحظة صغيرة عن رأيه فى اهتمام رجال الأدب عندنا بما يكتبه عنهم المستشرقون، وتنحصر هذه الملاحظة فى التأمين على ما كتبه الدكتور طه فى هذا الصدد، لأن الدكتور طه نفسه لم يسلم من الحرص على التعلق بما يكتبه عنا المستشرقون، وكل ما فى الأمر أنه تجاوز ما يكتب عنه، ثم تعلق بما يكتب عن الأدب العربى فى جملته، فأعلن حرصه على تدوين ملاحظات المستر (جيب) عن الأدب الحديث؛ وملاحظات المستر (جيب) هذه صارت عند الدكتور طه قرآناً لا ينبغى العدول عنه عند تقدير الأدب الجديد.

فما هى ملاحظات المستر (جيب) التى انبنى عليها حكم الدكتور طه على حياتنا الأدبية؟ هى ملاحظات بسيطة لا تخرج عن أن الرجل ينتظر ظهور القصة فى الآداب العربية! صدق الله العظيم!

الأدب العربى الحديث رهين بظهور القصة، فان لم تظهر تلك العروس الغالية فلا أدب عندنا ولا أدباء!

وفى نقض هذا الوهم ـ وهم الدكتور طه والمستر (جيب) ـ أكتب هذا المقال.

لا ينبغى مطلقا أن نحرص على ظهور القصة فى الأدب الحديث، لأن لذلك الحرص نتائج مشئومة أيسرها أن تغلب على أدبنا صبغة «الافتعال» والافتعال عدو الفطرة، وهو شر مستطير على الآداب والفنون.

إن القصة لن توجد فى الأدب العربى إلا إذا وجدت المرأة، ولن يكون لكتابنا قصص ماداموا لا يرون المرأة فى حرية وصراحة، ولا يتأثرون بجبروتها فى ميدان الحياة؛ ولا أمل فى أن نرى لكاتب قصة جيدة، ما دام الكتاب بعيدين كل البعد عن المرأة التى تلون الوجود بشتى الألوان، فتحيله تارة جحيما يرمى بالفزع والهول، ثم تعيده حين تشاء جنة وارفة الظلال.

القصة فى جميع الآداب موقوفة على ظهور المرأة، وهى لا توجد فى أدبنا لأننا لا نعرف

المرأة فى حياتنا ، وقد تحدثت بهذا مرة أمام جماعة من الشبان المفتونين بالقصة فقال قائل منهم : « نفترض وجود المرأة » ، ومعنى هذا فى نفس ذلك الشاب أنه لا مانع من افتراض وجود المرأة فى سياق القصة إن كان وجودها من الحتم فى وضع القصص .

واقتراح ذلك الشاب هو بعينه ما أسميه «الافتعال» ، فليس يكفى أن نفترض وجود المرأة ، وإنما يجب لنكون قصصيين أن تكون المرأة بين أيدينا ، وفى أوهامنا وأحلامنا وظنوننا نساجلها الصدق والرياء ، والمكر والخداع ، والغدر والوفاء ؛ ولا عبرة بما يتاح لأحدنا من غرام ببنت خالته أو بنت عمته ، وما يقدر لنا أحياناً من هفوات الحارات والشوارع والأسواق ، فان الرجل لا يفهم المرأة بنظرة مختلسة ، ولا يدرك أسرارها باللحظ المخطوف ، وإنما يفهمها وتفهمه فى أزمان طوال ، وتلك الأزمان هى خميرة القصة عند من يفهمون !

وقد يكون خيراً من هذا كله أن نسأل هذا السؤال : « من الذى ينتظر ظهور القصة ؟ »

الجواب حاضر : ينتظر هذه القصة أحد رجلين : مستشرق يريد أن يزن الآداب العربية بميزان الآداب الغربية ، وشرقى مفتون بالتقليد يريد أن نساير الأجانب فى كل شىء .

ومن عجيب الأمر أن نجد القصصيين عندنا فى الطبقة الدنيا بين أدباء اللغة العربية ، وللقارىء أن يعدهم واحداً واحداً ، فسيرى أنه من النادر أن يكون من بينهم من ظفر بثقافة أدبية وافية تبيح له أن يكون ذا رأى خاص أو أسلوب طريف ، وهم جميعاً عالة على الآداب الأجنبية ، يستوحونها بلا فهم ولا تبصر وينقلون عنها نقلا سخيفاً مشوهاً يجرح الأذواق والنفوس .

وقد أتيح لبعض أولئك الأدعياء أن يزور ما سماه قصصاً مصرية ، ثم ألح على فى لؤم وفى فضول أن أقرظ قصصه فى (البلاغ) ، وظل يكاتبنى برسائل لا تخلو أصحها من عشرين غلطة بين نحوية وإملائية ، فلما كتبت ملاحظاتى على قصصه فى رفق وعطف ، غضب واستشرى وراح يعلن أنى أحسده على فنه الجميل !

لانتظار القصة شر محقق وهو إغراء الشبان على أن يفهموا أن الأدب إما أن يكون قصصاً وإما أن لا يكون ، وعلى ذلك تخف فى وزنهم قيمة الفنون الأدبية ، التى لم يتح لها أن تطبع بذلك الطابع السخيف ، طابع الألوان المحلية المبرقشة التى صارت فى وهمهم شارة الاجادة والابداع .

وقد سرى هذا الشر إلى إدارات الصحف ، وصار من اليسير على أى شاب أن يدخل فى أقصوصته بعض الأسماء البلدية : كالحاج مشحوت والحاجة عيوشة ليقال إنه أتى بأدب جديد .

وقد آن أن تفهم هذا الجمهور الغافل أن الأدب لا يكون أدباً ، إلا إذا صدر عن صاحبه كما تصدر الزفرة عن فؤاد المصدور ، والدمعة عن عين المحزون ؛ فللكاتب أن يعبر عن فهمه للحياة

بالرسالة أو القصيدة أو القصة على شريطة أن يكون صادقاً فيما يكتب ، فلا يكون أدبه لهواً ولا زوراً ولا اختلاقاً ولا افتعالا، ويومئذ يكون عندنا أدب وأدباء ، أما أن نحمل طبائعنا ما لا تطيق طاعة للمستر (جيب) فتلك إمارة الخبال. وبعد فهل تريدون الحق أيها الناس ؟

اسمعوها كلمة تتردد بين الجد والمزاح، ثم انظروا كيف تحكمون !

من الخطأ أن يقاس أدبنا على أدب الانجليز أو الفرنسيس أو الألمان، وإنما يقاس الأدب على مزاج الأمم التى يصدر عنها ، وملاك الأمر فى ذلك كله أن يعبر الأدب عن عقول أهله وأحلامهم وشهواتهم ، وما يجرى فى خواطرهم من نزق وطيش ، ويتضاءل فى أذهانهم من خطأ وصواب، ويتناحر فى سرائرهم من كفر وإيمان؛ وأريد بذلك أن يشغلنا الأدب بأنفسنا فيصور جهلنا وحلمنا ، وضلالنا وهدانا ، وغينا ورشدنا ، بحيث نجد لأنفسنا صورتين: أولاهما فى الضمائر، وأخراهما فوق بياض القراطيس .

هذا هو الأدب إن كان عند الدكتور طه أو المستر (جيب) شوق إلى الاطلاع على رأى فى فهم الأدب جديد !

فان صح هذا الذى أقوله، فان حياتنا الأدبية لا تغرى بالتشاؤم كما يتوهم بعض الناس ، فان أدبنا فى الصحف والمجلات عن طرائق القصائد والمقطوعات والرسائل والمقالات يصور جوانب كثيرة من أزماتنا العقلية والروحية والوجدانية ، ولولا رقابة الحكومة من جانب ورقابة الجامدين من جانب آخر، لكانت لنا جولات فى دراسة العواطف والمشاعر والأهواء والأحاسيس والآراء والمعتقدات والأوهام والظنون، لا تقل فى خطرها عن جولات المفكرين فى الأقطار الأوروبية والأمريكية... ولكن أين نتنفس وقد حبستنا التقاليد فى أقفاص من حديد؟

ومع هذا، فنحن أحفاد العرب وأسباطهم ، ومن واجبنا أن ننظر إلى ماضيهم حين نفكر فى حاضرنا ، وقد كان العرب تكفيهم اللمحة والاشارة فى أشعارهم ورسائلهم حتى عرفوا بين الأمم بقوة الايجاز، وقد تطورنا بالفعل فانتقلنا من الأدب الذى كان يكتفى بالأسجاع والأمثال والفقرات والرسائل القصيرة والمقطوعات الصغيرة إلى الأدب الذى نراه اليوم، أدب المقالة أو الرسائل المطولة ، فلا تنتظروا أن نتحول فجأة، فنقصر الأدب على القصص الطويل رغبة فى محاكاة الأجانب من غربيين وشرقيين .

خففوا من تحاملكم قليلا أيها المتأدبون واحكموا منصفين، فان تعلمتم فانى واثق من أن مجموعة قديمة كمجموعة زهر الآداب أو العقد الفريد قد تكون فى حكمكم - حين تنصفون - أغنى وأعمق وأدل على نفوس أصحابها وعقولهم من الثرثرة الجوفاء التى رميتم بها فى وجه الأدب الحديث .

والخلاصة أننا نريد أدباً يمثلنا نحن ، فيصور نفوسنا وعقولنا وقلوبنا ، ويصور كذلك طرائقنا الفطرية فى عرض ما نشعر وندرك ونعقل فى عالم الفكر والخيال ؟

زكى مبارك

بركان الشـــــرق الاقصى

كما يصوره أحد الصينيين

نشأة الحرب — أطماع اليابان — جبهة متحدة ـ المسلمون المحاربون — نظرات إلى المستقبل

تعرف الي (المعرفة) الاستاذ محمدا براهيم شاه كوجين رئيس البعثة الصينية فى الازهر ، فانتهزنا الفرصة للتحدث معه عن وجهة النظر الصينية فى كفاحها مع اليابان فأفصح عنها فيما يلى :

الحروب الأهلية : ليس كالصين أمة فى الأرض لقيت من أوضار الحروب الأهلية مامكن لها أن تكون سباقة فى هذا الضرب من ضروب الكفاح الوبيل .

إن القادة الذين تجتمع إليهم أشتات الطوائف لايعنيهم إلا أن يرتفعوا إلى سارية الحكم وأوج السيادة، وكثيراً ما تناولوا الحرب كأسلوب يأتى بالنتيجة الحاسمة والنهاية التى يأملون؛ ومن ذلك ترى أن الصين لاتخبو منها شعلة النار .

ولقد أدركت اليابان هذه الحقيقة المؤلمة فأخذت تترقب وتتهيأ ، وأخذت تتحفز للقضاء على جارتها ، ورأت فى هذه « الحروب الأهلية » باعثاً لها على تعجل هذه الضربة التى شاءت أن تقوض بها أمة عظيمة .

الوثبة الأولى : كانت مفاجأة لانذرلها ولا لون ولا مذاق ، فان الجنود اليابانية قدسبقت إلى منشوريا طفرة واحدة ، بينما كانت الصين لم تتأهب ، لأن جنودها فى غمرة الكفاح بعضهم تجاه بعض، ولم تجد اليابان مايعوقها عن التقدم بداءة ذى بدء، فانسابت كالسيل تكتسح هذا الجانب من جوانب الصين حتى قدر لها أن تبلغ منه إربتها .

جبهة متحدة : على أن الصينيين قد أدركوا مافى هذه المفاجأة من سر خبىء ، وفكرة مكنونة ، ورأى دفين ، أدركوا أن العاصفة تريد أن تحصدهم جميعاً، وأن تكتسحهم دون أن تسأل عن هويتهم وأحلامهم وأمانيهم... أدركوا كل ذلك فاذا بزعمائهم قد انقلبت من صدورهم الاحن ، وانعدمت من نفوسهم الخنائظ، وخبت فى قلوبهم شعلة الحقد ؛ وإذا بنا نرى آخر الأمر أن الجبهة الصينية فى مجالدة العدو الألد قد جمعت بين المتناقضين وألفت بين الأعداء .

وما من ريب فى أن هذا كسب له أثره ، وله خطره ؛ لأن الصين قد علمتها هذه الحرب الطاحنة كيف تكون مآثر التضامن وكيف يكون نتاج الاتحاد .

قوة الصين : لقد تروعك الأنباء التى تتجاوب بها جوانب العالم، ففيها كل يوم حدث جديد يدلك على أن اليابان تكتسح الصين فى شىء من السهولة ، وكثير من السرعة ؛ ولكنى

أؤكد لك بأن النصر سيكون فى النهاية حليفنا ... قد لاتصدق هذه الحقيقة ، على أنها جماع الصواب ، فان فى الصين قوة لاتهدأ وجنوداً لايغلبون ؛ وكيف كان ذلك ؟ كان ذلك لأن رجالها قدنشأوا من طورهم الأول وكل واحد منهم يعتقد فى نفسه أنه خلق ليكون (تحت السلاح) ولقدعلمتهم الحروب الأهلية فنون الحرب كما دعتهم كثرتها إلى إتقانها .

الجنود المسلمون : وإنه ليحلو لى أن أقرر لك حقيقة لايلم بها الكثيرون ولم تذكرها أنباء الحرب ؛ إن فى الصين عشرات الملايين من المسلمين المخلصين ، وإن فيها جنوداً لهم الرمية الصائبة ، والقذيفة التى لا تخطىء ؛ ولقد دلت حوادث الحرب الأهلية على أن الجانب الذى تنحاز إليه تلك الجنود منتصر أبداً ، قاهر خصيمه أبداً ؛ ولقد علمت الآن ـ فى كثير من السرور والحبور ـ أن أولئك الجنود المسلمين قد اندفعوا إلى غمرة الكفاح مسترخصين الحياة مستهينين بها .

إن فى اندفاعهم هذا مايثير الاعجاب ويدعو إلى الاكبار جماً ؛ ذلك أنهم يسكنون الشمال من بلاد الصين المترامية الأطراف الرحيبة المساحة ، وأنت ترى أن الحرب ماتزال فى الجنوب بعيداً عنهم ؛ فاذا ماوزنت هذه الحقيقة بميزان النصفة أدركت ما فى إقدامهم من وطنية صادقة وتضحية رائعة بليغة .

حقيقة الموقف : يدل الموقف الآن ــ أعنى موقف الحرب ــ على أن اليابان قد بلغت (شنغهاى) وأنها تحرق اليوم (شابى) وتضرب بمدافعها حصون (ووسنغ) وهذا فى يقين الناس نصر لها أى نصر ؛ ولكنى أريد أن أقرر لك بأن اندحارها سيكون اندحاراً تاماً ، لأنها سترى أن تأهب الصينيين سيتضاعف ويبلغ منتهاه ؛ ومتى تأهب جنود الصين ، فلن تصدهم عن التقدم عاصفة هوجاء ، ولاعادية جارفة .

لماذا تحاربنا ؟ إن اليابان تريد أن تجعل من بلادنا سوقا كبيرة لمنتجاتها ، ... تنشد الذهب كما تنشد المهجر الذى تستطيع أن تدفع إليه بنيها بعد أن دلت الأحصاءات الرسمية على كثرتهم الخارقة عاماً إثر عام .

ولكنها يئست من الصين لأنها لم تجد فيها السوق الرائجة ، فأرادت أن تستعمرها ، أو تستعمر جزءاً منها ، حتى إذا مادعيت إلى الصلح ، تركت وراءها نوعاً من أنواع الامتيازات .

نظرات إلى المستقبل : على أن اليابان لن تبلغ من ذلك الحلم شيئا ، ولن يكون لها من الصين مستعمرة ، ولن تكون لها من أبنائها قوة تعتد بها فى مكافحة البلاء الذى ينصب عليها من بوار أسواقها التجارية فى الشرق والغرب . ولن يقدر لها أن تستعمر جزءاً من الصين .

وأؤكد لك مرة أخرى بأن جارتنا التى تحكم بالسيادة علينا لن يوفقها الله .

تجاربي في الحيـــــــاة *

بقلم الاستاذ أسعد لطفي حسن

— ٢ —

العائلة الجديدة : عمى وزوجته وأبوها وأمها وأخى وأنا وعجوز شمطاء تخدمنا . ولا أنكر أنى أحسست بريح الشقاء والآلام ، ومع صغر سنى لم تتركنى ملاحظة ، فان عمى ترك أمورنا بين رحمة صهره وتصاريفه ، وهذا كان رجلا جشعاً ، دأبه جمع المال ، وغرامه فى تكديسه ، فأشار بارسالنا إلى (الكتاب) وزيادة فى التظاهر بالعناية بنا تفضل ورافقنا لتوصية الفقيه .

توجهنا إلى (الكتاب) وإذا به قاعة فسيحة مرتفعة الجوانب ، ونوافذها الصغيرة قريبة من سقفها الذى يوجد به منور خلو من الزجاج تهب منه الرياح بما تحمله من الأتربة والرمال ، ويتساقط منه المطر فى وقت الشتاء حتى تتبرك المياه ، وتتحول الأرض إلى أوحال تتراكم وتصعد منها الروائح الكريهة ؛ وتوجد بجوانب حوائطه مقاعد خشبية للطلبة الذين يدفعون فى كل يوم خميس قرشاً كاملا ، وفى وسطه حصير ممزقة لمن يدفع نصف القرش ! وقد وضعت دكة فى ناحية منه يجلس عليها الفقيه ، وفى مواجهتها يجلس مساعده العريف ؛ وكان الفقيه فى الحلقة الخامسة من عمره ، والعريف ابن الثلاثين .

رحب بنا العريف ووعد بالعناية بنا ، ووعده الحاج حسين بما يسره ويرضيه ، وانصرف وجلسنا على أحد المقاعد ، لأننا سندفع القرش ، وتسلمنا لوحاً من الصفيح الأبيض اللامع ، وأعطى كل منا محبرة من الصينى ، وقلما من الغاب .

والحق أن جميع صبية المكتب أظهروا لنا ، من صنوف الترحيب والتكريم ، ما شجعنا على دوام البقاء به واستمرار التوجه اليه ، وقد كرمنا الفقيه باعطائنا الدرس بنفسه ، فسطر لنا الحروف الأبجدية ، غير أن غوغاء المذاكرة العامة ومختلف المحفوظات التى كانت من الطلبة ، كانت تشغل البال ، وتوجه الفكر لالتقاط ما كنت أسمعه ؛ وبينما كنت أحفظ الدرس من اللوح ، كنت أستمع لقائل «ألف لا شى عليها ، والباء نقطة من تحتها» وآخر يتلو «ويل لكل همزة لمزة» وثالث يجود فيما حفظه «ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم» .

(*) راجع القسم الاول من هذا الموضوع في الجزء التاسع من (المعرفة)

انصرمت مدة تقرب من الثلاثة أشهر ، وتمكنت من كتابة اللوح، وإذا بالفقيه يطلب منى (الصرافة) ، وما هى الصرافة؟ هى الاعلان بأنى تجاوزت مرحلة من التعلم لينال بعضاً من المنح، وحقاً لقد منحه عمى قطعة من النقود ذات قيمة العشرة قروش؛ فتناول الفقيه اللوح منى وزخرفه بجميل ما يتقنه من النقوش، ورده إلى لحملته فرحاً مسروراً ؛ وشعرت بأنى عالم إذ بدأت أكتب بعض السور الصغيرة وأحفظها ؛ وكان يساعدنى على سرعة الحفظ رغبتى فى (صرافة) جديدة.

فى هذا (الكتاب) كان يوجد عدد كبير من الطلاب من مختلف الأعمار ، وكانت سيادة الفقيه وسطوته تجعلهم جميعاً فى هدوء وسكينة ؛ وما كنت تجده يوماً يخلو من شكاية والدية، فترى الطالب المشكو فى حقه ملقى على ظهره، وقدماه فى (الفلقة)، وسيدنا الفقيه يتمطع ويتحفه بعصاه الرفيعة، وكانت أناته تبعث فى قلوبنا رهبة ورعباً ؛ ولذا أبعدنا الله بفضله وكرمه عن هذا الموقف الرهيب.

وفى هذا المعهد ملاحظات شتى : أولها العناية بحفظ القرآن ، والسعادة التامة، والغبطة الوافرة لمن تمكن من حفظه وتجويده ، ومن وراء ذلك التمسك بالدين ، فقد كنت تجد من الفقيه قسوة وشدة مع الطلبة صغيرهم وكبيرهم إذا أحس بتقصير واحد منهم عن تأدية الصلاة، ولا أنسى أنه كان حريصاً جد الحرص على تعويد الطلبة على عدم الحلف ، وأذكر أنه عاقب طالباً بحرمانه من أدم الطعام أسبوعاً لأنه كذب عليه مرة ، وكانت له ــ رحمة الله عليه ــ طرائق حكيمة فى التربية، إذ كان يكلفنا ترك ألواحنا ومحابرنا فى مواضعها ليعلم مبلغ الأمانة منا واعتداء أحدنا على حقوق الآخر ؛ إلا أنه لفقره وقلة موارده، كان يجالسنا وقت الغداء ، ويستخدم سلطانه فى جمع الأطعمة ، وله مايختار من غير منازعة؛ وكان لايترك فرصة تمر دون معرفة مابأيدينا من ملاليم، وكان يبيعنا بعض أصناف الحلوى بواسطة قريب له يقتسم الأرباح معه ؛ ومع أنه كان رقيق الحال ، فلم يتأخر عن سداد ما كان يطلب منه ، وكان فى مجموعه عاقلا رزيناً مهاباً محترماً ، وكانت له خلة الاهتمام بتلاميذه ، إذ كان يراقبهم فى أيام العطلة مراقبة عملية بالمرور فى أزقة الحى وحواريه ، حتى إذا شاهد واحداً منهم فى حال لايرتضيه نبهه إليه ونصحه ، ثم ذكره بين أقرانه بما رآه عليه ليتعظ الكل فى وقت واحد .

ولا يفوتنى أن أذكره بواسع الرحمات ، إذ كان شديد العناية بكرامته كبير الاهتمام بعزة نفسه ، فقد شكاه أحد الطلبة لأبيه لأنه كان وحيده ، وقد قصر فى واجبه فضربه الفقيه وكبر ذلك على الوالد ، وحضر إليه فى أشد سورة الغضب ، وبدأه باللوم وأغرق فى القول فلم يأبه لقوله وتركه فى حدته غير مكترث بتهديده أو متلفت لوعيده ، حتى إذا ما هدأت ثورته وتمكن من صوابه قال له الفقيه: (بينى وبينك وابنك أن تحجبه عنى) فلما هم بسحب ولده بكى الولد وقال لوالده : أنا أفضل البقاء ؛ فلم يرض الفقيه إلا بعد ترضية من أبيه .

أراد الله وتمكنت من حفظ القرآن بالكتاب وجاء دور المدرسة وتوجهت وأخى إليها وكانت المصروفات المقررة لها عشرة قروش فى الشهر، ولما أن علم الناظر أننا يتيمان أراد معافاة أحدنا منها، فكبر ذلك على عمى، وخشى المعرة وملامة الناس، وأصر على دفعها لنا الاثنين.

أين هذا من الوقت الحاضر والآباء يئنون من فداحتها، وهى فى الواقع تزيد مائة مرة عما كانت عليه؟ واليتامى لا يجدون الرفق والرحمة وربما أضاعت عليهم الحاجة والفاقة ثمرة التعليم أو اقتصروا طريقه وسعوا إلى التوظف، وقبر ذكائهم وحرمت عقولهم من التحصيل.

دخلت المدرسة، وأنا ابن ست سنوات، فكنت كالعصفور بين البواشق، إذ كان بها من يزيد عمره عن العشرين؛ وكان الطلبة يرتدون ملابس خاصة ـ جاكتة مقفولة ـ كانت تسمى (الفرتيكة) وبنطلون، ويوجد حزام من قماش لونه أحمر مخطط بالأبيض وله قفل من نحاس؛ فكنت فى هذا الزى موضع الانظار.

وفى المدرسة التى كان موقعها فى وسط المزارع (وهى فى مكانها إلى الآن) كان الفارق كبيراً بينها وبين (الكتاب) إذ هى مبنية على طراز صحى، خالية الجوانب تكتنفها الشمس، ويتخللها الهواء؛ وفى ناحيتها البحرية حديقة واسعة، وبها استعداد كامل حيث يوجد بها معمل للكيمياء والطبيعة، وبها مسجد وأماكن للوضوء، ولها حوشان فسيحان جداً، وكان على رأسها ناظر كريم، وقور غيور على مصلحة الطلبة، جمع بين الهوادة واللين والشدة والقسوة، لم يترك لكل طالب صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها له أو عليه، وقد أخذ مكانه بين الكبراء والعظماء، إذ كان محترماً فى كل الأوساط، وكان محبوباً عند المدرسين لاهتمامه بهم واحترامه لهم؛ وكنا نراه كل وقت يمر بأماكن التدريس ويشرف على المعلمين، ويقضى وقتاً غير قصير فى مناقشة الطلبة، وكان مهيب الجانب، وقد كان من سننه إذا علم بذكاء طالب منحه هدية تشجعه وتبعث فى نفوس زملائه الغيرة والتنافس، ولا يقصر عن الاهتمام بتلاميذه فقد أوجد بينهم الرغبة فى الموسيقى والتمثيل، وأنشأ من بينهم فرقاً اتقنوا كل نوع منها؛ وفى نهاية كل عام مدرسى يدعو آباء التلاميذ وعلية القوم وعظماءهم، لمشاهدة تمثيل رواية أدبية أخلاقية تهذيبية تصدح فى خلال أدوارها الموسيقى. فى ذلك العهد الذى مضى عليه الأربعون عاماً كانت الفنون الجميلة موضع الاهتمام والعناية ولم تكن هناك ضجة حولها كما كانت الرياضة، وأذكر أنها كانت ميادين الأدب، إذ كنا نتعلم الحركات على نظم الشعر الأدبية، وكان الطالب يحفظ أبيات الشعر الحماسية.

أما من ناحية الدروس والتدريس، فقد كانت اللغة العربية صاحبة السيادة، ولها فى كل فرع القدح المعلى والسهم الصائب؛ هذا مع العناية بحسن تدريس اللغتين: الفرنسية والانجليزية، وكان بقية من الموظفين الأتراك يقومون بأعمال الضباط، فكان تعليم اللغة التركية اختياريا.

فى ذلك العهد كان على رأس وزارة المعارف رجل مصر العظيم المرحوم على مبارك باشا

وقد حضر لزيارة مدرستنا بطنطا ؛ فكان يوم عيد وفرح احس كل من بالمدرسة بالسرور والحبور، وماوطأت قدماه عتبة المدرسة حتى عزفت موسيقى المدرسة بألحانها ونغماتها، واستقبله الطلبة بالهتاف، وقد قضى فى زيارة فصول المدرسة يوماً بأكمله، إذ لم يترك فصلا قبل أن يقضى فيه ساعة كاملة بين مناقشة الطلبة وسؤالهم ونصحهم ، ولما لم يستوف بقية الفصول أعاد الكرة فى اليوم التالى،وقبل مبارحة المدرسة اصطف التلاميذ فى حوشها ، وإذا بالوزير العظيم يستحضر حقيبة، وضعها بين يديه،ونادى من أعجبته أجوبتهم وذكاؤهم، وأهدى إليهم جوائز علمية كتب عليها بخط يده مايذكى فى أفئدتهم نار الغيرة والحمية والاجتهاد .

كان من بين جلائل أعماله أن حان وقت الصلاة فى إحدى فرص الفراغ ، وسمع المؤذن يعلن إقامة الصلاة ، فسارع إلى مسجد المدرسة، وخلع ثيابه، وتوضأ ، ووقف بين الصفوف، وصلى الامام وهو خلفه ، وأتم صلاته خاشعاً لله خاضعاً لقوته ، وقد خلع رداء الغرور بالدنيا ، ولم ينس الله بوظيفته ، فكان أسوة حسنة وقدوة صالحة،أفسح الله له جناته وضاعف أجره وثوابه وحسناته .

وأحسن مايذكر لذلك المصلح العظيم من الأثر الخالد ، والذكر الحميد:أن طالبا ختم الصلاة بتلاوة بعض آيات من القرآن ، وكان رخيم الصوت مجيد القراءة، حسن التجويد، فأعجب به،وسأل عنه،فاذا به يتيم الأبوين، فقربه إليه ونفحه عشرة جنيهات وقرر تعليمه على نفقته الخاصة فى كل أدوار التعليم، وكان ماقرر، وهو الآن من كبار رجال القضاء يذكره بالرحمة والغفران.

انقضت السنة الاولى ، وفزت فيها بالنجاح ، وبدأت العطلة الدراسية ، وكانت فى أشهر رجب وشعبان ورمضان،فوجهنى عمى إلى الجامع الأحمدى لأعادة حفظ القرآن ودراسة بعض الدروس الدينية، وهناك لم توجد أية رابطة بين الطالب والمدرسين ، إذ كانت حلقات الدروس هى التى تجمع بينهم .

كان فى ذلك المعهد الكبير حلقات للتدريس ، وكان إقبال المستمعين كبيرا ، وبتلهف ، وكان من بين المدرسين من فطاحل العلماء ورجال الأدب والدين كثيرون،وهؤلاء زهدوا فى الدنيا إلا قليلا من صدقات ذوى البر الذين أوقفوا لها العقارات والاملاك ، ومن هؤلاء كنت تجد من يقضى طوال أيامه فى إفادة الناس واستفادتهم،وكان فضل العلم وأثره كبيرا جدا إذ كانوا اهل تقوى وورع تتجلى وجوههم بنور الأيمان واليقين وهؤلاء افسحو صدورهم للبحث والمناقشة والسؤال ؛ وكانوا بعملهم هذا يحافظون على سمعة المعهد ؛ وقد امتاز المعهد الأحمدى قدما بتحفيظ القرآن وتجويده ، فكان لشيوخ القراءة مكانتهم ومهابتهم يسعى اليهم من أقصى البلاد ؛ وقراءة القرآن فن واسع عنى الأقدمون به ، خصوصا القراآت وما وعى منها ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام نقل عنه كل قراءة بما سمعها ، ففى المعهد الأحمدى من فطاحل

علماء القراآت عدد كبير ؛ ولم تكن مهمتى أن أحفظ على هؤلاء ماحفظت بل كنت أحضر درسهم للاستماع ؛ وأما ماكنت أسعى اليه دائما فهو درس العبادات ؛ وذلك لأن ما كان يدرس لنا بالمدرسة كان موجزا لتأدية الواجب الدينى فقط .

ولما انقضى شهران من الأجازة السنوية أقبل شهر رمضان ، وكنت قاربت على الثامنة من عمرى، وحفظنى الله من نزعة الافطار ، وصمت نهاره ، وكرمنى الله بالمحافظة على صلاة الجماعة للتراويح ؛ أقول هذا تحدثا بنعمة الله ، وأسفا وحسرة على ما نحن فيه ! إذ كان شهر رمضان من أقدس مظاهر الحياة الاسلامية، فيهتم المسلمون بقدومه ويتأهبون لاستقباله بكل وسائل التكريم، فاذا ماهل هلاله راجت سوق قراءة القرآن فتعمر البيوت والمساجد بتلاوته ، ويتبارى الأغنياء فى بر الفقراء، ويفتحون أبواب منازلهم للترحاب بهم حيث يؤمونها لاستماع القرآن ، وكانت منافسة كريمة طيبة فى إيجاد المقرئين، وكان المسلمون لايعرفون المقاهى والمشارب العامة، بل يجتمعون زرافات ووحدانا فى منازل الكبراء، يقضون ليلهم فى الخير ونهارهم فى الصوم، فكان الخير والبركة .

أما المساجد فهى مورد العابدين لايأتى وقت الصلاة إلا والجميع كبيرهم وصغيرهم وقوفا بين يدى الله عابدين عاكفين يعمرون مساجده ، وهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، تسمع أصواتهم يضرعون إلى الله ويسألونه النعمة والفضل والمغفرة ، وللدين سيادته ولله عبادته وللناس الهداية والتوفيق ؛ ياحسرتا على ما فرطنا فى جنب الله، فقد أضعنا الدين وهجرنا اليقين ونسينا الله فأنسانا أنفسنا وحلت بنا الرزايا والبلايا والمحن .

انقضى شهر رمضان وأعقبه العيد ، ووالله، كنت أشعر بالعيد لا بلبس الجديد وأكل القديد، ولكن بتزاور المسلمين ولقائهم ببعضهم اخوانا متقابلين ؛ والآن وقد يجىء رمضان وينقضى العيد، ولا من يعرف لذلك خبرا .

وعدت إلى المدرسة فى السنة الثانية ، وقد كان فى بدء افتتاحها فجيعتى بصديق لى يقرب من عمرى إذ قضى نحبه غرقا ؛ فقد سافر إلى قريته ، وكان بها ترعة يتعلم السباحة فيها ، فخرج اليها يوما ، كانت مياهها غزيرة ، فتغلبت عليه ، ووافته منيته ، فانتشل جثة هامدة، ودفن فى التراب، وقد كان شعلة ذكاء وأملا يرجى ، ولكن قضاء الله محتوم لامفر منه، وقد قص على قصته أخ له أكبر منه، وفهمت أن الطبيعة فى القرى تبسط سلطانها، والمناظر الجميلة الطبيعية تبهج النفوس ، وتنعش الأفئدة والمروج حافلة بخضرتها السندسية والأشجار مثقلة بثمارها المدلاة الشهية ، كان ذلك الضحية يقضى أوقاته على حافة هدير من الماء هادئا ساكنا فى عزلة عن الناس، حتى إذا جاء وقت الظهيرة نزل إلى الترعة ليتعلم السباحة فمات شهيد غايته الشريفة؟

أسعد لطفى حسن

تحيـــــــة

مرفوعة الى صديقى الشاعر

محمود أبو الوفاء

بقلم الاستاذ فؤاد صروف

«الشاعر أشبه شيء بجدول منبجس من سفح جبل ، يتلألأ في الضوء ، ثم يختفي في الظل ، ثم يقفز فرحاً في الهوة ، ثم ينبثق منتصراً متدفقاً في الوادي ، ثم يبطىء في المروج دافعاً في صدره أشباح الآكام وظلال الاشجار والغيوم ، ثم يمر بباب الكوخ مؤثراً متهللا وهو سائر الى البحر العظيم ، ليغني فيه » .

(انجرسل)

فى قرية عند سفح الجبل ، نشأ بهى الطلعة ، ممتلىء الأعطاف ، متوقد الذكاء . كان شاباً ، وفى شبابه كان ساهراً ، يرعى النجوم ، ويسائل الحياة ، ويرى رؤى الكمال ؛ وكان راعياً يسير بالقطيع فى كل صباح إلى المروج ، فتسرح أفراده فى خمائلها ، ويستلقى هو على ظهره ، يستنشق شذا الروض الفواح ، أو يتأمل قطع السحاب الساعية فى القفار ، أو يصغى إلى خرير المياه الواردة إليه من جانب الوادى على أجنحة النسيم ، أو يحاكى تغريد الأطيار وزقزقتها ، وقد اتخذت من ذرى الأغصان عروشا .

كان يقضى نهاره فى دنيا من الرؤى والأحلام ، لأن فى صدره إلفاً من شعلة الشعر .

وكان أحياناً يسلى نفسه ، بانشاء مقطوعات يفيض بها شعوره من دون كد للذهن أو إجهاد للقريحة .

وفى ذات يوم مر به رجل عظيم ، فى سيارة فخمة ، فجلس إلى الراعى يحدثه آنا ويصغى إليه آنا آخر ، فحدثه عما فى المدينة من المبانى الفخمة والسيارات الرشيقة والغوانى الحسان ، والحركة التى لا تفتر والأنوار المتألقة التى لا تخبو ، وأصغى إليه ينشد بعض الأشعار التى نظم .

وقبيل انصرافه قال : هلم معى يابنى إلى المدينة ، فآخذ بيدك إلى أعلى ذرى النجاح .

فلما انفرد الراعى ، بعد انصراف الزائر العظيم ، وخلا إلى نفسه ، ألفى فيها قلقا واضطرابا ؛ فحديث المدينة حفز خياله إلى تصور صور جديدة من الحياة ــ صور كانت على شدة إبهامها ــ كالعصا التى يسوق بها السائمة إلى المروج .

فلمعت عيناه واشتد خفقان قلبه .

***

طبع أشعاره فى ديوان فعاد عليه الديوان بكثير من الشهرة وقليل من المال، فاكتفى بهذا المال أولا ، لقضاء حاجاته ومطالبه القروية المحدودة؛ ولكن الشهرة سيد مستبد، والمشهور عبد ذليل ، فتنوعت مطالبه ، وتعددت حاجاته ، وازدحم حوله الأصحاب والأتباع.

وكان ذا شاعرية دقيقة الاحساس ، فرأى فى شؤون المجتمع موضوعات ، يستبدل بها فتون الطبيعة وسحر الحياة القروية، فأكب على النظم ، وقد أصبح شعره ذا سوق رائجة، فما كان ينظم قصيدة إلا ويرى بالباب من يطلب شراءها من دون مساومة، ولو شاء لمكنه ذيوع صيته من بيع كل ما ينظمه، سواء أطمأنت إليه سجيته أم لم تطمئن ؛ ولكنه كان ضنينا أن يبتذل الشعر رغبة فى المال .

على أن الشهرة سيد مستبد، ومطالبها تقتضى بدرات المال سواء أكان مصدرها شعراً زائفا أو شعراً ملهما ، فامتنع عن كثير من ملاهى الحياة ومسراتها ، وانقطع لنظم الشعر ، حتى أنهك الجهد جسمه، وأضعف بصره فلزم الفراش تعبا وإعياء .

ولكن عمله كان بالغا حدود الاتقان ــ مع أن معظمه كان خاليا من الشعلة التى تتوهج بها أشعاره القروية ــ فاتسعت آفاق شهرته وبعدت مذاهب صيته.

ولكن ...

ولكن ... نفد صبره ، وثارت ثائرته فخلع عنه فى ثورة الروح على المادة ثياب المدنية ، ونفض غبارها وعاد إلى القرية الراقدة فى حضن الطبيعة ، عاد إلى رعى القطيع يسوقه صباحا إلى المروج، وعاد إلى الاستلقاء فى الظل الوارف يستنشق العبير الفواح، ويطرب إصغاء الى خرير الجدول وهدير الشلال ، وتغريد الطير .

وإذ هو مستلق فى الصباح التالى لعودته ــ أحس كأن ركزاً خفيا يقول:

ما أغرب ما يفعله الناس ، وما أفدح ما يبذلونه ثمناً لتصفيق الأيادى !

* * *

إن من نفذ إلى صميم روحك أيها الشاعر الكريم فى شعرك وحياتك ، أدرك بعقله ورأى بعينه ، أن الشهرة لن تستهويك فتستعبدك ،وأن المال لن يفتنك فيذلك ، وأنك حر ــ أى حر ــ إلا من قيود فنك العالى وشعرك الصادق .

إن من عرفك كما أعرفك أيها الشاعر الكريم، عرف أنك تستكثر وتستسخف أضأل ما يبذل ثمناً لتصفيق الأيادى.

* * *

القلم فى يدك أيها الشاعر الكريم ، والقلم إذا سألت الأستاذ قال لك: هو القيد الذى تقيد

(البقية على الصفحة رقم ١٣٣٩)

شاعر شاكر الى اخوانه

قصيدة الشاعر المصرى النابغة محمود أبى الوفاء

التى ألقيت فى مهرجانه فى التاسع عشر من فبراير سنة ١٩٣٢

صيغ من قلبه ومن وجدانه   ليس من علمه ولا من بيانه
ليس من زخرف النظيم الموشى   بعقيق البيان أو عقيانه
بل هو الشعر لا هو الشكر يهدى   شاعر شاكر إلى إخوانه
ود لو ينظم القوافى مما   غرد الطير فى صبا ألحانه
ود لو ينظم القوافى وشيا   من نسيج الربيع فى نيسانه
ويغنى ماشاء أن يتغنى   شاعر شاكر إلى إخوانه

***

ليتنى كالحمام جسما وروحاً   ليت لى سجعه وصدق حنانه
كى أرى الناس فى أغاريد نوحى   رجع قلبٍ يذوب فى خفقانه
كى أرى الناس فى احتراق فؤادى   كيف تسمو آماله فى دخانه
كى أرى الناس ماهو الحب ديناً   والهوى خالصاً إلى ديانه
ويغنى ما شاء أن يتغنى   شاعر شاكر إلى إخوانه

***

•رهم الأصدقاء جرحا بقلب   حار طب الأساة فى إسيانه
يالهذا الجميل عندى لولا   عرفه قد طغى على عرفانه
يالها من يد على الشكر جلت   وصنيع عجزت عن شكرانه

***

لست قلبى ياقلب إن لم تكافىء   محسناً أو تزد على إحسانه
هش للقيد أكثر الناس عنفاً   وخروجاً على قيود زمانه
ملكت حرة الصنيعات حراً   ليتها أشفقت بحر عنانه
اجتبت قلبه فدان إليها   بالنفيسين : شكره وامتنانه

***

طاب فى روضه جنى الشكر حتى   كاد يذوى الجنى على أغصانه

صنع الله خير صحبة خير من وجوه الزمان من أعيانه

***

لعجيب أن يطرب الناس عود شب يسقى السموم من أحزانه
وقفوا ينتشون فى الزهر معنى كشذى الحق جاء قبل أوانه
يعرف الراح فى نداماه عرفاً وهو لما يزل وراء دنانه
زمن من عشية وضحاها وغدا الزهر خائلا فوق بانه
أزهر الروض وازدهى فكأن لم يك ما كان من صروف هوانه

***

قصة الروض قصة الشرق طرا لم يعق حره سوى خذلانه
ليس إلا على التعاون قامت قوة الغرب أو قوى عمرانه
بارك الله فيك يامصر داراً ليس فيك الغريب عن أوطانه
وطن كله هدى فسلام جرس ناقوسه وصوت أذانه

تحيـــــة

(بقية المنشور على الصفحة رقم ١٣٣٧)

به ملائك الفكر فلا تطير ، وإذا سألت الجار قال: هو الخدن الذى يعرب عن خوالجه، وإذا سألت التاجر قال هو سفينة مثقلة بالبضائع ، وإذا استنبيت الكاهن قال: هو العجيبة التى تنطق الأبكم .

على أن قلم الحق فى يد الشاعر... سلاح من أسلحة الأرباب
وقلم المثال الأعلى فى يد الشاعر... مهماز من مهاميز الكمال
وقلم الحب والجمال فى يد الشاعر... مفتاح من مفاتيح الجنان

إن قلم الشاعر فى يدك أيها الشاعر الكريم، فامض فى سبيلك بين ورد الحياة وشوكها ، غير حافل إلا بسجعياتك ترسلها من شق القلم أنغاما وألحانا... وغننا «حقا» نغلب به سفه الحياة ونسمو به فوق ضعتها، وصف لنا المثل الأعلى تحبب إلينا الكمال ، وارسم لنا صور الحب والجمال تلج بنا فراديس الخلود؟

فؤاد صروف

تاريخ البيمارستانات

فى العهد الاسلامى

بقلم الدكتور أحمد بك عيسى

— ٧ —

بيمارستان جنديسابور

هذا البيمارستان كان من أكبر البيمارستانات فى العصر السابق على الاسلام بثلاثة قرون الى عهد الخلفاء العباسيين ، حين ابتدأ المسلمون ينشئون البيمارستانات والمدارس فى بلادهم وأمصارهم التى افتتحوها.

وجنديسابور مدينة بخوزستان ـ ويقال له الخوز ـ وهو إقليم واسع بين البصرة وفارس ، بناها سابور الأول الساسانى بن ازدشير فى القرن الثالث بعد الميلاد ، وأسكنها سبى الروم الذين وقعوا فى أسره أثر حربه مع الامبراطور الرومانى أورليان ، OURELJEN وطائفة من جنده ، ثم افتتحها المسلمون صلحاً فى سنة ١٧ هـ (٦٣٨م) فى أيام عمر بن الخطاب الخليفة الثانى ، فتحها أبو موسى الأشعرى عقب احتلاله تستر. وجنديسابور مدينة خصبة كثيرة الخير وبها نخيل وزروع كثيرة ومياه، ومنها إلى تستر ثمانية فراسخ وإلى السوس ستة فراسخ، وتسمى بالسريانية بيت لاباط، ثم حرفت الى بيل آباد. قال ياقوت (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ١٢٢٨م) اجتزت بها مراراً ولم يبق منها عين ولا أثر إلا مايدل على شيء من آثار بائدة .

وقد اشتهرت هذه المدينة بمدرستها الطبية التى أنشأها كسرى الأول ، وجلب اليها المعلمين من يونان فكانت تلقى فيها التعاليم اليونانيـة باللغـة الآرامية ، واشتهر مع هذه المدرسة بيمارستانها العظيم ، ودامت شهرتهما الى زمن الخلفاء العباسيين، بما تخرج منهما من الأطباء والعلماء الذين برزوا فى الفضائل . قال ابن القفطى: «إن أهل جنديسابور من الأطباء فيهم حذق بهذه الصناعة وعلم من زمن الأكاسرة ، وذلك سبب وصولهم إلى هذه المنزلة» ثم قال: «ولم يزل أمرهم يقوى فى العلم ، ويتزايدون فيه ، ويرقبون العلاج على مقتضى أمزجة بلدانهم حتى برزوا فى الفضائل ، وجماعة منهم يفضلون علاجهم وطريقهم على اليونان والهند ، لأنهم أخذوا فضائل كل فرقة فزادوا عليها بما استخرجوه من قبـل نفوسهم ورتبوا لهم دساتير وقوانين وكتباً جمعوا فيها كل حسنة حتى أنه فى سنة عشرين من ملك كسرى اجتمع أطباء جنديسابور بأمر

الملك ، وجرى بينهم مسائل وأجوبتها ، وأثبتت عنهم ، وكان أمراً مشهوراً ، وكان واسطة المجلس جبريل درستياذ ، لأنه كان طبيب كسرى، والثانى السفسطائى وأصحابه ويوحنا وجماعة من الأطباء ، وجرى بينهم من المسائل والتعريفات ما إذا تأملها القارئ لها استدل على فضلهم وغزارة علمهم ؛ ولم يزالوا كذلك حتى ولى المنصور الخلافة ،وبنى مدينة السلام فعرض له مرض فاستدعى منهم جورجيس بن بختيشوع الخ)، ولقد كانت مدرسة جنديسابور وبيمارستانها المنهل الصافى والمنبع الغزير للطب والأطباء زمنا طويلا حيث كانت سوريا والعراق وفارس تستمد، أطباءها من بين طلبتها الذين كانوا يؤمونها من كل حدب وصوب.

وحينما ظهرت الملة الاسلامية لم يتأخر المسلمون عن استخدام الاطباء المتخرجين من بيمارستان جنديسابور.

فاستطب النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم من بعده، الحارث بن كلدة الثقفى، وابنه النضر بن الحارث بن كلدة من أطباء العرب الذين استمدوا علومهم من جنديسابور.

واستطب خلفاء بنى أمية ابن آثال الطبيب النصرانى الجنديسابورى ، اصطفاه لنفسه معاوية ابن أبى سفيان أول خلفاء بنى أمية، وأبا الحكم وحكم الدمشقى وتياذوق وغيرهم كثيرون.

ومن أطباء بيمارستان جنديسابور المتميزين الذين خدموا الدول الاسلامية، وكانت لهم يد فى نهضة العرب تذكر :

١ — جورجيس بن بختيشوع الجنديسابورى :

كان رئيس أطباء جنديسابور ورئيس البيمارستان بها، وكان فى صدر الدولة العباسية ،وله خبرة بصناعة الطب،ومعرفة بالمداواة وأنواع العلاج ، خدم المنصور بصناعة الطب ، وكان حظياً عنده رفيع المنزلة ، ونال من جهته أموالا جزيلة ،ونقل للمنصور كتباً كثيرة من كتب اليونانيين إلى العربية . إن أول ما استدعى الخليفة أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس لجورجيس، هو أنه فى صدر أمره عند مابنى مدينة السلام بغداد فى سنة ١٤٨ للهجرة، أدركه ضعف فى معدته وسوء استمراء، وقلة شهوة، وكلما عالجه الأطباء ازداد مرضه فتقدم إلى الربيع فى طلب طبيب ماهر،فأجمع الأطباء على فضل جورجيس بن بختيشوع، فتقدم المنصور باحضاره فأنفذه عامل جنديسابور ، ووصى جورجيس قبل خروجه من جنديسابور ولده بختيشوع بالبيمارستان، واستحضر معه عيسى بن شهلافا فتقبله الخليفة أحسن القبول وأمر بانزاله فى أجمل موضع من دوره، وأكرمه كما يكرم أخص الأهل، وأخبره بابتداء علته ،وكيف جرى له منذ ابتداء المرض وإلى وقته ذلك ، ولم يزل جورجيس يتلطف له فى تدبيره حتى برىء المنصور، وعاد إلى

الصحة ، وفرح به فرحا شديدا، وأمر أن يجاب إلى كل مايسأل.

ولما كان فى سنة ١٥٢ مرض جورجيس مرضاً صعباً ،وكان المنصور يرسل إليه فى كل يوم يتعرف خبره ، ولما اشتد مرض جورجيس،أمر به الخليفة فحمل على سرير إلى دار العامة ،وخرج الخليفة ماشيا اليه ،وسأله عن خبره ،فبكى جورجيس بكاءشديدا ،وقال له: إن رأى أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يأذن لى فى المصير إلى بلدى لأنظر إلى أهلى وولدى ،وإن مت قبرت مع آبائى ، فأمر الخليفة أن يخرج جورجيس إلى بلده، وأن يدفع إليه عشرة آلاف دينار ، وأنفذ معه خادما،وقال: إن مات فى طريقه،فاحمله الى منزله ليدفن هناك كما آثر،فوصل إلى بلده حياً، وله من الكتب كناشه المشهور،ونقله حنين بن اسحاق من السريانى إلى العربى.

٢— بختيشوع بن جورجيس :

ومعنى بختيشوع عبد المسيح، لأن فى اللغة السريانية البخت العبد،ويشوع عيسى عليه السلام، وكان بختيشوع يلحق بأبيه فى معرفته بصناعة الطب ومزاولته لأعمالها ، وكان بختيشوع مقيما بجنديسابور والمارستان نيابة عندغيبة أبيه فى معالجة المنصور إلى أيام المهدى،ومرض ولده الهادى ابن المهدى فاستدعى بختيشوع من جنديسابور،فمات موسى الهادى قبل قدوم بختيشوع،فأعيد مكرما الى جنديسابور، فأقام على حالته فى تدبير البيمارستان هناك،ولم يزل على ذلك إلى سنة ١٧١هـ فرض الرشيد من صداع لحقه، فطلب من يحيى أن يستحضر له بختيشوع من جنديسابور،فدخل على الرشيد فأكرمه،وخلع عليه خلعة سنية،ووهب له مالا وافرا،وجعله رئيساً على كافة الأطباء.

ولبختيشوع من الكتب : (١) كناش مختصر، و كتاب التذكرة ألفه لابنه جبريل .

٣— ابراهيم تلميذ جورجيس :

لما استدعى جورجيس بن بختيشوع إلى الخليفة المنصور ليطبه أخذ معه تلميذه ابراهيم ومعه عيسى بن شهلافا، وترك عيسى صهاربخت مكانه بالبيمارستان بجنديسابور مقيما.

٤— سرجيس تلميذ جورجيس بن بختيشوع :

أراد جورجيس أن يستصحبه حين استدعاه المنصور،ثم عاد فتركه لتدبير البيمارستان فى غيبته.

٥— عيسى بن شهلافا الجنديسابورى ، تلميذ جورجيس بن بختيشوع:

عند ما دعا الخليفة المنصور إليه جورجيس بن بختيشوع ليطبه استصحب معه تلميذه عيسى ابن شهلافا . ولما مرض جورجيس واستأذن فى العودة الى بلده جنديسابور خلف تلميذه هذا فى خدمة المنصور، فأمر المنصور باحضار عيسى بن شهلافا ، فلما مثل بين يديه سأله عن أشياء فوجده ماهراً،فبدأ عيسى يبسط يده فى التشاور والأذية خاصة على الأساقفة والمطارنة ومطالبتهم بالرشى،وأخذ أموالهم،وكان فيه شراهة وطمع ،فلما وقف الخليفة المنصور على حقيقة أمره،أمر بأخذ جميع مايملكه عيسى المتطبب وتأديبه ونفيه.

٦ — جبريل بن بختيشوع بن جورجيس:

كان طبيبا حاذقا نبيلا، خدم الخليفة هارون الرشيد ثلاثة وعشرين سنة، وخدم من بعده محمد الأمين، ثم الخليفة المأمون فى سنة ٢١٠هـ ٨٢٥م.

ثم مرض مرضا شديداً ومات سنة ٢١٣هـ ٨٢٨م ولجبريل بن بختيشوع من الكتب رسالة إلى المأمون فى المطعم والمشرب. وكتاب المدخل إلى صناعة الطب وكتاب الباه. ورسالة مختصرة فى الطب. وكناش. وكتاب فى صنعة البخور

٧ — بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع.

كان سريانيا نبيل القدر، وبلغ من عظم المنزلة والحال، وكثرة المال، مالم يبلغه أحد من سائر الأطباء الذين كانوا فى عصره، خدم الخلفاء الواثق بالله بن المعتصم ثم المستعين بالله بن المعتصم والمهتدى بالله ابن الواثق، سخط عليه الواثق ونفاه إلى جنديسابور فى سنة ٢٣٠، وبعد موت الواثق خدم الخليفة المتوكل على الله، فصلحت حاله بعد ذلك فى أيامه حتى بلغ فى الجلالة والرفعة وعظم المنزلة وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة ومباراة الخلافة فى الزى واللباس والطيب والفرش والصناعات والتفسح والبذخ فى النفقات، مبلغا يفوق الوصف، وكان موته يوم الأحد لثمان بقين من صفر سنة ٢٥٦هـ ٨٧٠ م، وله من الكتب: كتاب فى الحجامة على طريقة المسألة والجواب.

٨ — سابور بن سهل:

كان ملازما لبيمارستان جنديسابور ومعالجة المرضى فيه، وكان فاضلا عالما بقوى الأدوية المفردة وتركيبها، خدم المتوكل ومن تولى بعده من الخلفاء، وتوفى فى أيام المهتدى بالله وكانت وفاته فى يوم الاثنين لتسع بقين من ذى الحجة سنة ٢٥٥ هـ، ولسابور بن سهل من الكتب: كتاب الأقراباذين الكبير جعله سبعة عشر باباً، وهو الذى كان المعمول به فى البيمارستان، ودكاكين الصيادلة، وخصوصا قبل ظهور الأقراباذين الذى ألفه أمين الدولة بن التلميذ وكتاب قوى الأطعمة ومضارها ومنافعها، وكتاب الرد على حنين. والقول فى النوم واليقظة، وكتاب إبدال الأدوية.

٩ — ماسوية أبو يوحنا:

كان تلميذا فى بيمارستان جنديسابور، أقام به أربعين سنة يعمل فى دق الأدوية، إلى أن عرف الأدواء داء داء، وما يعالج كل داء، وهو أعلم أهل زمانه بانتقاد الأدوية واختيار جيدها ونفى رديئها؛ ولما أخرجه أبو عيسى جبريل صاحب بيمارستان جنديسابور من البيمارستان عكف على معاناة التطبيب إلى أن اتصل بالفضل بن يحيى، فأحسن لقاءه، وأجرى عليه، وأعطاه نفقة واسعة، وأوصله الفضل بعد ذلك بالخليفة هرون الرشيد، فأجرى عليه الرزق

ووسع عليه بالنفقة ، وألزمه الخدمة فى بيته واتخذه طبيبا له فبلغ المرتبة المشهورة ؛ وتوفى بسامرا سنة ٢٤٣هـ ٨٥٧م.

١٠ — دهشتك

كان رئيساً لبيمارستان جنديسابور ،فأمر الرشيد جبريل بن بختيشوع باتخاذ بيمارستان ، فأحضر جبريل دهشتك من بيمارستان جنديسابور ليتقلد البيمارستان الذى أمر الرشيد باتخاذه ، فامتنع دهشتك من ذلك ، وذكر أنه ليس للسلطان عنده أرزاق جارية عليه ، وانه إنما يقوم ببيمارستان جنديسابور وميخائيل ابن أخيه حسبة، وتحمل بطيمانيوس الجاثليق فى إعفائه وإعفاء ابن أخيه، فأعفاهما ورسم بدلا منهما ماسويه.

١١ — ميخائيل بن أخى دهشتك

كان مقيما ببيمارستان جنديسابور مع عمه دهشتك يعمل حسبة ، وكان جبريل بن بختيشوع قد دعاه لتقلد البيمارستان الذى أمر الرشيد باتخاذه ببغداد فامتنع مع عمه دهشتك .

١٢ — عيسى بن طاهر بخت :

طبيب من أهل جنديسابور له ذكر فى وقته وتقدم فى زمانه ومصنفات فى الطب، وهو تلميذ جورجيس بن بختيشوع الطبيب ، ولما طلب الخليفة المنصور جورجيس بعد رجوعه إلى جنديسابور كان مريضا وعوفى من مرضه اعتذر عن ذلك، وتقدم إلى عيسى هذا بالمضى إلى المنصور فامتنع؛ فسمى عوضه تلميذه إبراهيم، وبقى عيسى هذا بالبيمارستان بجنديسابور مقيما .

هؤلاء هم أشهر أطباء جنديسابور الذين تحققت أخبارهم، على أن غيرهم كان كثيرا يعمل فى بيمارستان جنديسابور ، ولم تصل الينا أخبارهم ، وقد خدموا الخلفاء والملوك والأمراء ، فكانت لهم الحظوة والتقدم ورفعة المنزلة ، وكانوا عاملا قويا فى النهضة العربية ؟

(انتهى) احمد عيسى

الصعلوك

بقلم القصصى الكبير الأستاذ محمود تيمور

الاستاذ محمود تيمور قاص لا ضريب له ، يتخير لشخصياته القصصية روحا التى تنفحها بالحياة ، وأساليبها العامية التي يأبى الا أن يبرزها بها ، وهو الى ذلك بعيد الشهرة في هذا الضرب من ضروب الادب الممتاز ، فقد ترجمت له بضع قصص الى لغات أجنبية ، وانه ليسر « المعرفة » أن تمتع قراءها بهذه القصة التى دبجها يراعته ؟ المحرر

دخلت نبيهة على سيدتها وحيدة هانم ، وأخبرتها بأن صلاح افندى حضر ، وأنه يطلب مقابلتها فى إلحاح ورجاء .

كانت وحيدة هانم فى ذلك الوقت مستلقية على مقعد طويل ، وفى يدها مجلة من مجلات (المودة) تتفرج عليها ، فلما سمعت كلام نبيهة التفتت إليها غاضبة وقالت :

— كيف يجرؤ على الظهور فى منزلى بعد أن طردته أمس شر طردة ؟

كان فى استطاعتها أن تأمر حسن السفرجى بأن يذهب إليه ويخرجه من المنزل فى الحال، طوعاً أو كرهاً ، ولكنها رأت نفسها بلا عمل ، وأنها فى حاجة لأن تشغل نفسها بشىء ما على سبيل التسلية ، فقامت من فورها وخرجت قاصدة حجرة الزوار .

ووحيدة هانم أرملة من الذوات تبلغ الثلاثين من عمرها ، تعيش وفق مزاجها ، لها حلاوة يحس بها الانسان بروحه، ولا يستطيع التعبير عنها بلسانه ، كل قطعة فى جسمها تتكلم ، وكل حركة من حركاتها غنج ودلال .

أما صلاح افندى فشاب ليس فيه شىء من الجمال ، خلقة مشوهة مخيفة تضرب بها الأمثال ، ليس له مورد غير القمار ، ويساعده الحظ أحياناً فيربح مبالغ لا يستهان بها ، له اتصال بالعائلات الراقيــة ، والسيدات يحببن مجلسه ، يغنى ويمثل أمامهن بعض الأدوار الهزلية ، ويحظى على مائدتهن بأفخر المأكولات وأحسن المشروب ، وينال منهن شيئا يذكر من المال .

دخلت وحيدة حجرة الضيوف ووقفت أمام صلاح وقفة الغاضب المتكبر وقالت :

— كيف تجرؤ ياوقح على الحضور إلى منزلى بعد الذى صدر منك أمس ؟ أنسيت مافعلته وما تلفظت به ؟ فأجاب صلاح وهو مطأطىء الرأس :

— كنت سكران ياهانم، والسكران معذور .

— سكران فى عينك وعين أبوك ، رجل دون ابن كلب... كيف يخطر على بالك أن أقبلك ثانيا فى منزلى بعد هذه الفضيحة الشائنة التى ألصقتها بى ؟

ـــ فضيحة ؟ معاذ الله !

ـــ إخرس. ألم تزعق بأعلى صوتك أمام جميع السيدات بأنك تحبنى ... وأنك تريد تقبيلى .. ؟ لم ينقصنى إلا أن يحبنى رجل بشع صعلوك مثلك . كنت تستحق على قولك هذا تقطيع لسانك ...

ـــ وأكثر من تقطيع لسانى، كنت أستحق أن أذبح ، وأن ترموا بجسدى النجس للكلاب ... ولكن هل يؤاخذ السكران على كلام ياهانم ؟ أقسم لك بأنى لم أكن أشعر بنفسى أين كنت ، ومن كان حولى ، وماذا قلت ، كله كان خيالا ... حلماً فظيعا لا أعرف له مبدأ من نهاية .

ـــ سكران غير سكران ... ليس لى شأن بذلك . المهم أنك أسأت إلى إساءة لا يمكنى أن أغتفرها لك .

ـــ لا أنكر أن ذنبى عظيم ... لا أنكر أنى دون، ابن كلب، أستحق ضرب الجزم ... والله أرضى أن تخلعى حذاءك وتضربينى به ... ولكنى مع ذلك مازلت أطمع فى رحمتك ...

وجلست وحيدة على (الكنبة) وجعلت تهز رجلها وتقول:

ـــ ... رحمتى ! هه ... ليس عندى رحمة .

واقترب منها صلاح وهو يبتسم فى (تمسكن) وقال:

ـــ والله انت كلك رحمة ، وطيبة، ورقة ، ومستحيل يغضب قلبك على واحد من محاسيبك...

ـــ لا تزيد فى الكلام من غير طائل .

ـــ أنسيت ياوحيدة هانم إخلاصى الكبير لك ؟ ألم أضح بكل شىء فى سبيل خدمتك؟ ألم أضرب وأبطح وأحبس مرة لدفاعى عنك ؟ ألم أعرض حياتى للخطر فى المهمة التى كلفتنى بها فى الصعيد فى العام الماضى ... ؟ وكم غير ذلك ! فهل تنسى كل هذا من أجل غلطة واحدة صدرت منى بلا قصد ... ؟

ـ غلطة فظيعة ...

ـ غلطة كبيرة ! إنى معترف بها ؛ ولكن كلما كانت الغلطة كبيرة كلما كان الصفح عظيما ، وأنت أهل لكل عظيم وجليل .

وجلس تحت قدميها وقال :

ـ أقسم بالله العظيم يا وحيدة هانم أنك لو بحثت فى الدنيا كلها عن شخص يخلص لك كاخلاصى ، ويجلك كاجلالى لما وجدت . إنك تجهلين قيمتى الآن ، ولكن بعد موتى سوف تذرفين على الدموع وتقولين : الله يرحمك ياصلاح ، لن أعوضك بعد الآن ، لقد أضحكتنى طويلا وسليتنى كثيراً فمن يضحكنى ويسلينى الآن ... ؟

ـ المهرجون كثيرون .

ـ ولكنهم ليسوا مثلى ولا يستطيع أحد أن يأخذ مكانى ... والآن ألا تريدين أن أحدثك بشيء مما فى جعبتى ؟ عندى أخبار الدنيا والآخرة .

ـ تظن أنى صفحت عنك ...؟ لا دا بعدك ...

ـ عندى أخبار من كل لون: سينما ، مسارح ، جواز ، طلاق ، مشاجرات عائلية ، أزمات سياسية واقتصادية ، كله ، كله ... ألم تسمعى شيئاً عن زكية هانم ؟

ـ مالها ؟

ـ إنها طلقت .

ـ كلام فارغ .

أقسم برأس أبى أنها طلقت أمس. هذه حكاية يطول شرحها سأرويها لك الساعة ، ولكن قبل أن أبدأ بالكلام أتضرع إليك فى طلب واحد .

ـ وما هو يا بارد ؟

ـ هو أن تصفعينى على وجهى عدة صفعات طيبة ... إنى أتكلم الجد والله العظيم . أشعر بأن أصداغى تأكلنى ... هاتى يدك ... والله لابد أن تضربينى ... هيا افعلى ... ها أناذا.

فمدت وحيدة يدها وأخذت تضربه على خده وهى تضحك ، ولكن صلاح جعل يحتج على هذا النوع من الضرب وقال :

ـ لا ، لا ، هذا ليس ضرباً ... أريد صفعاً محكما قوياً ... هيا اشتدى فى ضربك ... أقوى من ذلك ... أشد ... أنت مازلت رقيقة القلب نحوى... يدك لاتطاوعك على إيلامى!

ـ وحكاية طلاق زكية هانم ؟

ـ ألا تسمحى قبل ذلك أن آمر حسن السفرجى ليعمل لمحسوبك فنجاناً من القهوة ؟

ـ روح فى داهيه.

ـ أطال الله عمرك ياوحيدة هانم ، وأبقاك لى ذخراً لاينفد على ممر السنين .

وقام من فوره ومشى مشية الفقهاء الصعاليك وأخذ يغنى مردداً:

امبارح كنت بقرا فى قرافة المجاورين
وعنها واخد لك رزه من النسوان اللى قاعدين

وخرج وهو يغنى ويرقص ، ووحيدة تقرقع بالضحك، ثم صرخ بأعلى صوته قائلا :

ـ ياحسن! ياسفرجى! ياابن الكلب! فنجان قهوه مظبوط لسيدك صلاح بك ... حالا ... حالا يا ولد .

وعاد إلى حجرة الضيوف وجلس على الأرض فى مكانه السابق، تحت قدمى وحيدة هانم، وبدأ يروى لها حكاياته ونوادره الشيقة التى لاينضب لها معين ، وكانت وحيدة تصغى له

باهتمام وسرور، وأخيراً تعب صلاح فسكت وأشعل سيجارة، وتمددت وحيدة هانم على الكنبة وأشعلت هى الأخرى سيجارة، وطواهما الصمت برهة، وبدأت غبشة الغروب تكتسح المكان، وكل شيء ساكن حولهما، وكان كل منهما ينفخ دخان سيجارته، وهو تائه فى أحلامه، وانتهت السيجارة الأولى، فأشعلا ثانية فثالثة، وهما على حالهما لم يغيرا جلستهما ولم يفتحا فمهما بكلمة، وقبل أن يشعل صلاح السيجارة الرابعة التفت الى وحيدة وقال لها :

ـ عندى خبر لم أروه لك بعد ... خبر بسيط، أتريدين أن تسمعيه ؟

فأجابته فى إهمال وخمول وهى مغمضة العين :

ـ قل .

ـ لقد ربحت ألف جنيه .

ففتحت وحيدة عينيها، ورفعت رأسها وقالت :

ــ ربحت كم ؟

ــ ألف جنيه من ورقة يانصيب .

ــ ألف جنيه مرة واحدة ...؟ كلام فارغ !

ــ أقسم برأسك الغالى على ذلك، وها هو المبلغ معى ويمكننى أن أريه لك .

وأخرج صلاح من جيبه رزمة من الأوراق المالية وجعل يعدها أمام وحيدة قائلا :

ــ مائة . مائتان. ثلثمائة . أربعمائة ... ألف.

ــ وكيف حضرت إلى هنا ؟ بتاكسى ؟

ــ بالترام .

ـ ألم تخش أن يسرقك أحد ؟

ـ يسرقنى أحد ! وهل وجهى ينم على أننى من أصحاب الألوف ؟

ـ ولكن لماذا لم تخبرنى بذلك قبلا ؟

فتمطى صلاح وقال :

ـ خبر لا يستحق الاهتمام .

ـ عجيبه !

ـ ألم أكسب من القمار ومن السباق مئات من الجنيهات ؟

ـ ولكنك لم تصل إلى الألف .

ـ المبالغ عندى سواء ... كلها نقود ... تدخل جيبى وتخرج منه وأنا لا أشعر بها، ألا تذكرين الخمسين جنيها التى تبرعت بها فى يوم واحد لجمعية المواساة ... ؟

ـ أذكر .

ـ واليوم سأصرف الألف كلها دفعة واحدة هذا المساء .

ـ تريد أن تصرف الألف جنيه فى ليلة واحدة ؟

ـ ولم لا ؟

ـ والله إنك لتحرضنى على ضربك !

ـ ليتك تفعلين

ـ أليس فى رأسك ذرة من العقل ؟ ألا يخطر فى بالك ان تشترى لك شيئاً ينفعك ويدر عليك بعض الربح ... أطيان مثلا ، أو تشارك فى عمارة ، أو ... أو ... ؟

فضحك صلاح حتى أدمعت عيناه وقال :

ـ أتريدين أن تجعلينى من أرباب الأملاك ... ؟ حرام عليك ... وحق رأسك الغالى إنى لن أتغير ... سأظل طول حياتى : صلاح المجنون المهرج الذى يسكن فى درب القللى . . . آه يا وحيدة هانم ! أنت لم تفهمينى بعد !

ـ وكيف أفهمك وأنت لغز ؟

ـ كلا ، لست لغزاً ، بل أنا فكرة بسيطة يمكن كل إنسان أن يفهمها إذا استطاع أن يحس بالذى أحس به .

ـ وما الذى تحس به ؟

ـ إنى أحس بكره شديد نحو العالم كله .

ـ لماذا ؟

ـ لأننى مظلوم فيه .

ـ غيرك يحسدك على حياتك الرغدة .

ـ حياتى الرغدة ! اجل ، حياة الصعلكة والتهريج ! ولكن ما رأيك فى سحنتى ؟

ـ يا عمرى عليها !!

ـ إن الله سبحانه وتعالى لم يخلقنى يا وحيدة هانم ! إنه شلفطنى ... مسخنى ... أين عدله إذن ؟

ـ إنك تعترض على حكمته تعالى .

ـ كلا . ولكننى أتفلسف بعض الأحيان ، وفلسفتى هذه تريحنى ، ولى آراء شاذة لا يقبلها العقل السليم ، ولكنها آرائى التى أعتز بها ، والتى أسير فى الحياة على مقتضاها . . . أتعلمين كيف أنفقت المائة جنيه التى كنت أملكها منذ بضعة أشهر ؟

ـ يقولون إنك عشت بها عيشة المومسرين أسبوعاً واحداً فى هيليوبوليس پالاس !

ـ لقد عرفت فى هذا الأسبوع معنى العظمة والفخفخة والتبذير .

ـ وفى الغد انتقلت إلى درب القللى !
ـ وأكلت الطعمية عند المعلم عبده المخللاتى !
ـ ألم يكن الأجدر بك أن تعيش بهذا المبلغ شهرين أو ثلاثة فى بحبوحة من العيش ؟
ـ غيرى يستطيع أن يعيش به عاماً كاملا عيشة طيبة ، ولكنها فى نظرى عيشة بهائم ... ليست الحياة أن أعيش كما يعيش الآخرون ، حياة منتظمة ممهدة لا فقر فيها ولا غنى ، إنما الحياة عندى أن أذوق حلوها ومرها ، وأختبر فقرها وغناها ، سفالتها وعظمتها ، أريد أن أمرغ نفسى فيها فأصل إلى قرار هاويتها ، كما أصل إلى ذروة مجدها ؛ هذه هى الحياة فى نظرى أما سواها فلا .
ـ والله إنى لأعتقد أنك سائر بخطى واسعة فى طريق المارستان !
ـ وهذا اعتقادى أنا أيضاً !
ـ ولكنك لم تخبرنى بعد كيف ستصرف الألف جنيه فى ليلة واحدة ؟
ـ كيف أصرفها فى ليلة واحدة ! هل هذا أمر صعب ؟ أعطنى مليون وأريك كيف أصرفه فى ليلة واحدة ... عزومة هائلة ، طاولة البوكر ، شمبانيا ، نساء .

وأخذ صلاح يروى لها كيف يمكنه أن يصرف هذا المبلغ فى ليلة واحدة ، واندفع فى الكلام بلا حساب وهو محلق فى سماء خياله الغريب ، وكان الظلام ينتشر فى الحجرة بسرعة ويلفهما تحت ردائه الكثيف ، فلم يعد يرى أحدهما الآخر إلا كما يرى الانسان الأشباح ، وحل عليهما بعد حين الخمول ، فلم يفكر أحدهما فى إشعال النور ، وهدأت حركاتهما ، وخفت صوتهما ، وقال صلاح :

ـ على فكره . ألم تسمعى عن واحدة اسمها لوليت ؟
ـ يخيل لى أنى سمعت عنها .
ـ لوليت هذه من أشهر غوانى العالم ، رفيقة الأمراء والملوك
ـ جميلة ؟
ـ هائلة فى حسنها .
ـ هل رأيتها ؟
ـ وكلمتها .
ـ (غور)
ـ وعندى ميعاد معها الليلة .
ـ (إتلهى) .
ـ لماذا (أتلهى) ومحفظتى عامرة بألف من الجنيهات ... ؟ هذه الألف سأصرفها على لوليت الليلة ... سأصرفها كلها !

ـ هذا جنون .

ـ إنما الجنون أن يكون عندى فلوس وأستطيع أن أمتع نفسى بهذه « المرأة العظيمة » ولا أفعل .

وصمت الاثنان من جديد ، وأقفلا عيونهما ، واستغرقا فى أحلامهما الغريبة ، وبعد حين تكلمت وحيدة قائلة :

ـ تصرف ألف جنيه على لوليت فى ليلة واحدة ؟ ياسلام ! لابد أن تكون لوليت هذه حسنها لا يوصف ... وانها مستحوذة على فكرك !

ـ مستحوذة على فكرى ... ؟ أوه ! ليس إلى هذا الحد ؛ من هى لوليت التى تستطيع أن تستحوذ على فكرى ، وأنت هنا قائمة فى قلبى ...؟ يا سلام ياوحيدة هانم ! ألا تعرفين أن جزمتك تساوى ألف واحدة مثل لوليت ؟

ـ يا سلام ...!

ـ ألا تصدقينى ؟

ـ كلام فارغ !

ـ كلام فارغ ؟ إذن أنا كذاب ... أنا الذى لو تكلمت لأسمعتك أشياء لا يخطر على بالك أن تسمعيها منى .

وصمتا أيضاً ، ولكنه كان صمتا مضطربا يجيش بشتى الانفعالات ، وتنهدت وحيدة وقالت ، وصوتها لا يكاد يسمع :

ـ طبعاً تستطيع أن تستحوذ على لوليت بكل سهولة ؛ من يرفض ألف جنيه لأجل ليلة واحدة ؟

وشعر صلاح كأن تياراً كهربائياً قد مس جسمه ، وارتعشت شفتاه وقال :

ـ صحيح . من يرفض الف جنيه لأجل ليلة واحدة ...؟

ثم صمت على الرغم منه ، ومرت برهة شعر فيها صلاح أنه يحترق ، وأخيراً ، استجمع قواه وفتح عينيه على آخرهما ، والتفت إليها وقال :

ـ حتى انت ... لاترفضين ؟

وأجابت وحيدة وهى مقفلة العينين :

ـ ماذا يهم ... ليلة واحدة ؟

فقفز صلاح ورمى بنفسه على يديها وأخذ يقبلهما بجنون ، ثم رفع رأسه وأدناه من رأسها وهم أن يقبلها فى فمها ، ولكن ـ بغتة ـ أنيرت الحجرة ودخل حسن السفرجى بالقهوة !

وقام صلاح وقد شعر كأن دشاً بارداً انسكب على رأسه ، ونظر إلى الخادم نظرة شذراء وقال:
ـ ماذا تريد ؟
ـ أحضرت القهوة يا أفندم .
ـ قهوة فى عينك ، ياابن الكلب ... نريد شمبانيا ... شمبانيا ... هات شمبانيا ...

وكان يصرخ بانفعال ، فخرج السفرجى مهرولا ، ولبى طلبه فى الحال ، وأقفل صلاح باب الحجرة ، ووقف بجوار المائدة ينظر إلى القهوة وإلى الشمبانيا ، ثم صب كأساً وشربه دفعة واحدة ، ثم الثانى ، والثالث ، والرابع بالتتابع ، وملأ الخامس ودفعه ليشربه ، ولكن حانت منه التفاتة إلى مرآة بجواره انعكست عليها صورة وجهه ، وحول نظره من المرآة إلى وحيدة وكانت ممددة على الكنبة ينبعث منها سحر وجلال ، فارتعش وتقلص وجهه بابتسامة شنيعة ، وأخذ ينظر بالتتابع إلى صورته فى المرآة ، ثم إلى وحيدة وعيناه تزدادان احمراراً ، ثم أخرج الأوراق المالية من جيبه وجعل يدعكها بين أصابعه دعكا عصبياً ، وبغتة رمى بالكأس بقوة على الأرض وصرخ قائلا :
ـ كلا ، لا تقبلى ، لا تقبلى .

ونظرت اليه وحيدة فى دهشة وغضب وقالت :
ـ ماذا ...؟

فهرع صلاح إليها وركع أمامها متوسلا وقال :
ـ ستظلين دائما إلهى العظيم متبوئة عرشك السماوى ، يغمرنى ضياؤك الوردى ، فأعبدك وأنا خاشع ذليل ؛ أما أنا فسأظل دائماً ذلك الصعلوك القذر والمهرج البشع المخيف .

وحدج الأوراق المالية شذراً وقال :
ـ أما هذه النقود فانى أمقتها ! أمقتها!!

وأخذ يمزقها بيده وأسنانه كأنه وحش يمزق فريسته .

وكانت وحيدة تراقبه ودمها يغلى وعيناها تشعان ناراً ، وأخيراً هجمت عليه كالمجنونة ، وجعلت تضربه بيديها وقدميها ، وهى تقول :
ـ اخرج ياابن الكلب... اخرج يادون ، ياسافل ، اخرج من بيتى ياحشاش ،ياسكرى... اخرج ،اخرج .

وخرج صلاح يجر نفسه كالكلب الذليل ، وعادت وحيدة إلى الكنبة وانطرحت عليها تبكى فى ألم وغيظ وهى تردد قائلة :
ـ ابن الكلب الدون ... ابن الكلب السافل ...

المحاورات السقراطيـــــة *

بقلم الأستاذ ا. د. لندساى

تعريب الأستاذ إبراهيم عبد الحميد زكى

٤ — ختام البحث

يلزمنا أن نغير مدلول كلمة الجهل إذا أردنا أن نفسر عجز أولئك الرجال الخيرين عن تعريف ماهية الخير .

ولقد اعترف سقراط بأنه نفسه لم يستطع أن يعرف الفضيلة ولم يجد رجلا واحداً يمكنه أن يفعل ذلك ، فهل كل الرجال ـ وهو من بينهم ـ شريرون ؟

يناقش أفلاطون هذه المعضلة فى المحاورة (مينو) ويحلها بأن يضع بين المعرفة والجهل حالة ثالثة هى « الرأى الصحيح » .

فالرجال الذين يفعلون فعلا صائبا إنما يؤمنون بالصواب من غير أن يشعروا، ومثل هذا الايمان الصحيح منحة من الله، ولا يمكن أن ينقل بالارشاد والجدل ، وبهذا التعديل يتخلص افلاطون من هذه الورطة التى وقع فيها سقراط ، ومع ذلك فهو يظل محتفظا بالاعتقاد فى أولية المعرفة، لأن الرجل الذى يعرف الفضيلة هو القادر فقط على إرشاد الغير ، أو هو الكفء لأن يقيم بوساطة التشريع مقياساً يركن إليه الآخرون فى ثقة عمياء .

وعلى ذلك فالفيلسوف العارف يصبح الرجل الطيب الكامل الوحيد، لأن طيبته من صنع يديه، ومعرفة هذه يمكن أن تدرك بهذا الأسلوب الذى وضعه سقراط ، أى بالبحث الجدلى فى طبيعة الخير .

وهذا البحث الجدلى عند أفلاطون مركب، ويتضمن كل ما سواه بدرجة أعظم مما أدركه سقراط أو تصوره ، فهو يتبع أسلوب سقراط ، ولكن الغاية التى ينشدها ليست غاية منعزلة قائمة بنفسها ويمكن أن توصف مثل غاية الصانع ، بل هى وحدة التجاريب كلها ، ومن الممكن أن تدرك بالعقل ولكن لا يمكن أن تدرك بالحواس .

وحل أناس آخرون هذه المعضلة بطرق أخرى فقالوا إن فى الحياة أشياء هى غايات فى ذاتها وضربوا لذلك مثلين بالمعرفة واللذة ، فقد قال الميغاريون إن المعرفة هى الخير ، وقال القرنائيون إن اللذة هى الفضيلة ؛ ومن المحتمل جداً أنهم استرشدوا فى ذلك ببعض تلميحات فى تعاليم سقراط كما هو ظاهر فى المحاورة (بروتاجوراس) .

(*) راجع مجلة « المعرفة » ج ٣ و ٥ و٦.

قد ناقشنا الآن الحلول التى وجدها الآخرون لمعضلات سقراط ، والتى يحتمل أنه لم يعن بايجادها، فقلما يرى المكتشف موضع النقص فى اكتشافه؛ ولكن إذا صرفنا النظر عن ذلك نرى أن سقراط فى الواقع قد حل معضلات نظريته حلا عمليا فى أخلاقه ، وهو إذا لم يواجه الصعوبة الناشئة من ضعف الارادة فرجع هذا جهله بها، فقد كان رجلا ، إدراك الشىء وفعله عنده يسيران جنبا لجنب ، وما كانت له قوة الرأى وثباته التى لا يعتريها شىء من الضعف إلا لمجرد أنه كان خلوا من هذا الضعف ، ومع أنه لم يكشف طبيعة الخير فما تخلى يوماً عن إيمانه الثابت به ، ولا تردد عزمه القوى عن اتباع أحسن المعارف لديه ، ومع أن الجزء غير العاقل من النفس لم يحظ بمكان ما فى نظريته، فان أثره كان واضحا كل الوضوح فى أعماله .

ومهما كانت تلك الاشارة الخفية التى يؤولها البعض بأنه كان ذا مزاج عصبى صوفى تصحبه أطوار عقلية خفية، أو كانت ــ كما يقول البعض الآخر ــ ما نسميه صوت الضمير، فلا جدال فى أن تلك الاشارة الخفية لم تكن ثمرة التفكير والبحث، بل هى منحة من الله لتهديه أقوم السبل فى مفاوز السلوك ؛ وترى أفلاطون يجعله يقول عنها فى الجمهورية: إنها إحدى السبل التى يهبها الله عباده لارشادهم إلى الفلسفة الحقة عندما تكون ضدهم كل المؤثرات الخارجية .

إذن فلم تكن لسقراط كرجل تلك الجانبية الواضحة فى نظريته ، ومع هذا فلم يناصبه خصومه العداء بلا مبرر ، فقد كفر هو عن عيوب نظريته ، ولكن هل كان هنالك ما يؤكد أن تلامذته وأتباعه سوف لا يتلقون هذه النظرية بدون أن يعنوا باصلاحها بأخلاقهم ؟.

وقد قال سقراط أن ليس هناك خير جدير بالحصول عليه إلا إذا استطاع أن يقف فى وجه أسئلته ، ولكنه لم يجد ذلك الخير، وقد سد هذا النقص بأن أضاف من لدنه اعتقاده التام فى الخير الذى يسعى وراءه ، وهذا حسن ، ولكن ماذا تكون نتيجة تعاليمه لقوم لم يؤمنوا بهذه العقيدة ؟ وقد يقول خصومه : ها هنا رجل ينقد ويهدم عقائدنا ، ويسخر من أساتذتنا الأشراف ، ومن مثلنا ، ثم هو لا يستبدل هذا الذى هدم بشىء ، بل هو يعترف بأنه يعجز عن ذلك كل العجز ، وإذن فما هى النتيجة المحتومة لهذا التصرف ؟ وما الواجب علينا أن نفعله إذا كان لزاما علينا أن نتخلى عن كل شىء يقوم عليه المجتمع لمجرد أننا عاجزون عن تبريره على قاعدة معقولة ؟

وقد أجيب على هذه الاسئلة باجابتين :

ويمكن أن نلخص إجابة أفلاطون بتلك الكلمة المشهورة التى قالها هيجل وهى « إن مايجرحه الفكر يمكن أن يشفى بالتعمق فى التفكير» فقد كان يؤمن بأنه إذا كانت وظيفة النقد فى بادىء الأمر هى الهدم ، فانما هو يهدم ليبنى بناء خيراً من سابقه ، وليس التفكير هو الخطأ ، إنما الخطأ هو التقصير فى التفكير ، وحتى أفلاطون يعترف بأن النقد قد يؤذى البعض،

فهو يدعو فى الجمهورية إلى وجوب عدم تدريس الجدل فى مستهل العمر، لأن الصغار عند ما يبدأون فى تذوقه يتخذونه ألعوبة ، ويستعملونه لمجرد إظهار التناقض ، فيقلدون أولئك الذين يناقضونهم ويناقضون هم سواهم بدورهم فرحين بذلك مثل الكلاب التى تسحب وتتلف كل ما يكون قريباً منها .

ولكن إذا درس الجدل والنقد وطبقا فى عناية ودقة، ففى الامكان أن يضعا هما فقط الأخلاق والخير على أساس ثابت .

وقد قال أناس آخرون غير ذلك ، أو على الأقل أحسوا إحساساً مغايراً لذلك ، فلم يروا سوى الناحية الهدامة فى تعاليم سقراط ، وذلك بأنهم شعروا المرة بعد المرة - كلما جادلهم سقراط ونقد آراءهم - أنه قد غلبهم جدلا ، ولكنهم ظلوا يشعرون فى قرارة نفوسهم أنهم لم يقتنعوا، وأن عليهم -لأجل أن يكون كل ما يرونه ذا قيمة فى الحياة - أن يركنوا إلى تلك المعتقدات والأفعال التى لا يمكن أن يبررها العقل.

وفى الابولوجيا يجعل أفلاطون سقراط يقول: إن متهميه يمثلون السياسيين والخطباء والشعراء ، وهذا الجمع بينهم ذو معنى، إذ أنهم كلهم يعتمدون على ما يسميه أفلاطون الاستمالة أو الاغراء أو ما يقابل المعرفة ، وهؤلاء جميعهم مهما استعملوا المعارف فانهم يلجأون إلى تلك العناصر الغريزية العميقة فى النفس، وقد نقدهم سقراط بأجمعهم واتهمهم بالكذب .

وقد استطاع الرجل السياسى أن يرى كيف أن سقراط بالتجائه إلى تشبيه السياسة بالصناعات المتقنة أظهر الديمقراطية فى صورة مضحكة ، ولم يستطع الخطيب أن يتحمل سماع معلم يصر على أن الاقناع والاستمالة يجب أن يستمدا من المعرفة ، كذلك الشاعر لم يقو على احتمال هذا النقد الذى يقول إن سلطة الشعر يجب أن تلتمس فقط فيما ينطوى عليه من الحقيقة العلمية ، وعلى ذلك فان كان سقراط صادقاً فيتحتم أن يزول الشعر والسياسة والخطابة ، وكان أفلاطون على استعداد لأن يقول إن المجتمع يجب أن يقلب رأساً على عقب، وأن تخضع جميع العناصر للفلسفة، ولكن ليس بمستغرب - إذا كان جل من رأى فى تعاليم سقراط الدمار المنتظر ولم يكن لهم إلى جانب ذلك إيمانه هو وأفلاطون بالفلسفة - أقول ليس بمستغرب إذا شعر هؤلاء بأن تعاليم سقراط تعنى خراب أثينا ، وثمة اليوم من يوافقهم فيما ذهبوا اليه ، وهذا الحكم هو حكم جميع أولئك الذين يؤمنون بأن الحياة فى نهاية الأمر غير عقلية، وبأنها تعتمد على المعتقدات التى لا يمكن فقط ان تهبط إلى مستوى المنطق، بل إن من الواضح كل الوضوح أنها ليست منطقية ، وبأن الدين والأخلاق والفن كلها غريزية، وبأنها تفسد إذا خضعت للقوة العاقلة التى يجب أن تنحصر فى البحث عن تفاصيل آلة الحياة .

(البقية على الصفحة ١٣٦٠)

كيف ننتفع بقوانين الوراثة؟

للأستاذ حامد عبد القادر

أستاذ التربية وعلم النفس بدار العلوم وكلية أصول الدين

تبين لنا مما سبق(١) معنى الوراثة ، وفهمنا قوانينها ، وعرفنا الصفات التى تنتقل بها من الأصل إلى الفرع ، والصفات التى لا تنتقل ، وظهر لنا أن الاستعدادات والملكات تنتقل باعتبارها ملكات عامة ، وأن الصفات المكتسبة لا تنتقل كما هى ؛ والآن نريد أن نعرف الواجب علينا عمله للاستفادة من هذه الأول ، وإلا كان بحثنا فيها خطأ ، وإنفاق الوقت فى معرفتها من العبث الذى لا طائل تحته .

وربما يظهر لك بادىء ذى بدء أنه من العبث أن نحاول أن نعمل شيئاً ، وأن نعرض أنفسنا لذلك التيار الخطر : تيار الوراثة الذى لا يبقى ولا يذر ، ولا يمنعه من السير فى طريقه مانع ولا يصده عن غرضه صاد ، فالأمور الوراثية لا يمكن تغييرها ، والصفات التى تنتقل بالوراثة تنتقل — ولا بد — من الأصل إلى الفرع ، رغم أنف من يريد منعها ، فليس من الحزم إذن التعرض لها . أما الصفات المكتسبة فليست بوراثية ، وإننا لو حاولنا مهما حاولنا لا يمكننا أن نجعلها بحيث تنتقل من الأصل إلى الفرع بطريق الوراثة ، لأنا قد قلنا إن ذلك لا يحصل ولن يحصل .

وإذا لم يكن من الممكن منع الصفات الوراثية من أن تنتقل من الأصل إلى الفرع ، ولا جعل الصفات المكتسبة وراثية ، أصبح من غير الممكن أن نعمل عملا فى هذا الباب ، وصارت التربية إذن عديمة الفائدة ، وأصبحت المساعى التى يبذلها المصلحون الاجتماعيون مساعى باطلة كاذبة لا قيمة لها ، فالوراثة قد حددت مستقبل النوع الانسانى كما حددت ماضيه ، فما علينا إلا أن نقف مكتوفى الأيدى وننظر إلى قوانين الوراثة تعمل عملها بدون أن نحرك ساكنا فى سبيل التدخل فى شأنها .

وهذا القول له نصيبه من الصحة ، ولكننا لو أنعمنا النظر ، وتعمقنا فى البحث ، وأحطنا

---

(١) راجع الجزء العاشر من هذه المجلة : شهر فبراير سنة ١٩٣٢ .

بتاريخ النوع الانسانى ، وتتبعنا أطواره التى تطورها حتى وصل إلى الحال التى هو عليها ، لرأينا أنه من الممكن الانتفاع بقوانين الوراثة التى ذكرناها من وجوه عدة .

نعم إن الانسان نهج منهج الوراثة فى تطوره ، واتبع قوانينها فى جميع أدوار حياته ، ولم نعلم أنه خرج عليها ، أو شذ عن قاعدة من قواعدها ، ولكننا مع ذلك سواء إعترفنا بمذهب النشوء أم لم نعترف به ، نرى أن النوع الانسانى فى تقدم مستمر ، ورقى مطرد ، من يوم أن ظهر على سطح هذا الكوكب الأرضى حتى عصرنا هذا ، وأن تقدمه هذا ، وانتقاله من حياة بسيطة ساذجة ، إلى حياة معقدة ملتوية الأطراف ، متشعبة النواحى ، لم يكن راجعا إلى تحكمه فى شؤونه الوراثية أو إلى سعيه فى إصلاح نفسه ؛ ولكنه سلك فى ذلك مسلكا سلبيا، فكان تقدمه بطبيعته الميالة إلى الرقى ، النزاعة الى الرفعة .

وإذا كان النوع الانسانى قد تقدم هذا التقدم بطرق طبيعية ، وعلى حسب قواعد فطرية طبع عليها ، فهل لنا أن نفكر فى إمكان مساعدته فى ذلك الرقى بالتدخل فى شأنه تدخلا فعليا معقولا من طريق الوراثة ؟

وإذا ساغ لنا أن نتدخل فى شؤون الحيوانات العليا غير الانسان تدخلا أدى إلى تحسين أنواعها ، وتغيير ألوانها ، وتقوية شأنها ، أفلا يسوغ لنا أن نقوم بمثل هذه التجاريب مع النوع الانسانى كى نقومه ، ونصلح من شأنه ، ونعلى منزلة نسله ؟

وإذا كنا نرى أن الوراثة تعمل عملها الحسن فى بعض الأسرات ، فتعلى شأنها ، وترفع منزلتها الجسمية والعقلية والخلقية ، بينما هى تتسلط على أسرات أخرى فتضعفها إضعافا وتحط من منزلتها وتهوى بها إلى حيث تكون خطرا على المجتمع الانسانى ، فلماذا لانحرك ساكنا ؟ وحتام نترك هذه المشاهدات تمر بدون أن ننتفع بها ؟

أليس من الواجب ـ والحال كما نرى ـ أن نبحث عن أسباب تحسن النسل فنتبعها ونكثر من الانتفاع بها ، وعن أسباب تدهوره فنتجنبها ، ونعمل على التخلص منها ؟

وإذا صح أن أسباب التقدم تؤدى دائما إلى نتائج حسنة ، وأن أسباب التأخر تنتج نتائج سيئة ، وأن هذا وذاك حاصل أمام أعيننا بدون تدخلنا ، وبدون إرادتنا ، وبطرق طبيعية ساذجة يعوزها التنظيم ، وينقصها حسن القيادة ، تبين لنا أنه من الواجب علينا تنظيمها وقيادتها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتحكيم إرادتنا فيها ، كما حكمناها فى فصائل النبات فقويناها ، وحسنا إنتاجها ، وفى أنواع الحيوانات والطيور فقويناها ، وحسنا نسلها .

فما لا نزاع فيه أنه من الممكن أن يكون للارادة البشرية دخل كبير فى تحسين النوع الانسانى ، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون رغم أنف الطبيعة ، بل لابد أن يكون على حسب قواعد الوراثة ، وقوانين الفطرة .

فنحن إذا اقترحنا تحسين النوع الانسانى على العموم ، وتحسين أحوال شعبنا على الخصوص ، فاننا إنما نقترح ذلك معتمدين على قوانين الطبيعة ، وقواعد الفطرة التى فطرنا عليها ؛ وإنما نقترح تحسين الفرع الانسانى بالطرق الوراثية ، لأن ذلك من الواجب علينا ، لأننا إذا كنا نعد أنفسنا آثار آبائنا ، وأجدادنا ، وأكبادهم التى تمشى على الأرض ، فسيأتى جيل من الأجيال يخلفنا ، ويكون هو آثارنا ، وأكبادنا تمشى على الأرض أيضا ، فمن الواجب علينا الآن أن نفكر فى صالح هذا الجيل الذى سيأتى على إثرنا ، وأن نفسح المجال لارادتنا ، لتعمل على ترقية أعقابنا ، وتحسين أحوال أخلافنا . وكيف يمكن تحسين النسل ؟

الجواب : من جهات متعددة أوردها عليك .

١ — الوراثة والزواج :

مسألة الزواج مشكلة من اكبر المشاكل الاجتماعية التى حارت عقول الفلاسفة فى حلها ، وجرت اقلام الكتاب فى جميع الممالك فى سبيل الوصول إلى تعرف معمياتها وحل رموزها ، وإنما نشأت هذه المشكلة من صعوبة الجمع بين سعادة الزوجين ، وسعادة المجتمع ، وتقدم النوع الانسانى ، فكل زواج لايؤدى إلى هذه السعادة الفردية والاجتماعية يعتبر ناقصا يستدعى التضحية أو فقد الحرية الفردية او نقصها او انقراض النوع الانسانى او ضعفه .

وليس هناك من لا يقول بوجوب اختيار الزوجة لزوجها او الزوج لزوجته ، ولكن الناس يختلفون فى أساس ذلك الاختيار ، فلكل فيه وجهة ، قد تكون مالية ، وقد تكون اجتماعية ، أوقد تكون راجعة إلى العاطفة والشعور .

ولكن قانون الوارثة يوجب علينا الاختيار من الناحية الصحية ، فهو يحتم على الزوج قبل أن يخطو خطوة فى سبيل الزواج ، أن يكون واثقا من صحته وصلاحيته لأن يكون ابا أولا ، ثم يشرع فى اختيار زوجة له بعد ذلك بحيث تكون تلك الزوجة مثله صالحة لأن تكون أماً ، أى انه من الواجب ان يكون الزوجان قويين قادرين فى حالة صحية من الوجهة الجسمانية والعقلية والخلقية .

ذلك لما قدمناه لك ، من أن الانسان يرث عن أبويه المباشرين مايقرب من نصف صفاته الجسمية التى تتبعها الصفات العقلية ، فالأبوان القويان يزيدان فى قوة نسلهما ، والضعيفان لايلدان إلا ضعيفا مثلهما ، فان العصا من العصية ، ولا تلد الحية إلا الحية .

هذا أمر لاينازع فيه العقل ، وقد أتى الشرع بما يعضده ، ألم يخاطب سيدنا نوح ربه بقوله : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » ؟ وألم ينقل عن النبى أنه قال صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس »

وأنه قال : « إياكم وخضراء الدمن » قالوا « وما خضراء الدمن يارسول الله ؟ » قال: «المرأة الحسناء فى المنبت السوء » ؟

فقاعدة اختيار الزوج قاعدة أساسية ، شاهد آثارها من قبلنا ، ونحن نرى آثارها الآن ، فمن الواجب أن يعلمها أبناؤنا ، وأن يعملوا بها .

ولا ينبغى لنا أن نهمل هذه القاعدة اعتمادا على التربية والبيئة ، فالتربية لاتوجد المستحيل، والبيئة لايمكنها أن تخرج رجالا متساوين فى المقدرة العقلية ، إذا بدأوا معيشتهم فيها وهم أطفال متفاوتون فى استعداداتهم ، والمدرسة لايمكنها أن تحدث أى تغيير فى مقدرة الطفل ، ولكن يمكنها أن تخرج تلك المقدرة من القوة إلى الفعل ، وأقصى ما يمكنها أن تبرز تلك المقدرة إلى أقصى حد ممكن ، فكما أنه لايمكن للناطور أن يخرج من الشوك وردا ، أو من الزيتون مشمشا ، ولا للزارع أن يستخرج من الشعير قمحا او من القطن تيلا ، كذلك لا يمكن للمربى أن يخرج من العقلية الناقصة بالوراثة عقلية كاملة بالتربية .

ولكن ليلاحظ دائما، أن النقص الذى لا تمكن للتربية إصلاحه هو النقص الوراثى الذى يرجع إلى نقص فى تكوين الانسان ، وعلى الأخص فى تركيب المجموعة العصبية ، فمسؤولية الآباء حينئذ أكبر من مسؤولية المربين، والوراثة مسؤولة أكثر من التربية عما فى هذا المجتمع من النقص فى الخلق والخلق ، فالمربى كالتاجر الذى عنده رأس مال ينميه ويثمره بأحسن الوسائل الممكنة ، فقل لى ماذا يفعل التاجر إذا لم يكن عنده رأس مال ؟ ورأس مال المربى هو الاستعداد الذى يأتى به الطفل إلى المدرسة ، فعليه أن ينميه ويثمره إلى أقصى حد ممكن ، وليس فى مقدوره أن يغيره .

فعلى كل من يريد الزواج حينئذ أن يفكر ألف مرة ومرة قبل أن يقدم على هذا العمل الاجتماعى الخطير ، وعليه أن يقدر لرجله قبل الخطو موضعها كما يقول الشاعر العربى ، وعليه أن يتعلم كيف يمشى قبل أن يتعلم كيف يطير كما يقول الانجليز .

وإنى أنصح لشبابنا ألا يعتمدوا كثيرا على ذلك الشىء الذى يسمونه عشقا أو حبا، وليس هو بالعشق ولا بالحب فى كثير من الأحيان ، بل هو عاطفة عمياء ، ومرض اجتماعى أصابتنا به الحضارة الأوربية الزائفة ، وليس معنى ذلك أن يتزوج المرء ضد إرادته ، ورغم أنف عاطفته، ولكن معناه ألا يسلس القياد للعاطفة، وألا يجعلها المقياس الوحيد الذى يقيس به السعادة الأبدية؛ فالرابطة الغرامية قبل الزواج لا تكفى لأن يكون الزوجان سعيدين بعده ، فكم من آلاف غرتهم هذه العاطفة ، وظنوها تفضى بهم إلى النعيم الدائم ، والفردوس الخالد ، فاذا بها تنتهى بهم إلى الشقاء المقيم والعذاب الأليم ، فهبوا من سباتهم ، واستيقظوا من غفلتهم فندموا على ما فرط منهم حيث لاينفع الندم ؛ وكم من آلاف آخرين تزوجوا على غير علم تام بأحوال من

تزوجوا ، وما هو إلا عام أو أكثر حتى تعرف بعضهم أخلاق بعض ومشاربه ورغباته ، فعاشوا عيشة هنيئة ، وتمتعوا بسعادة يحسدهم عليها من غرتهم تلك العاطفة المشؤومة .

فالاختيار المبنى على المنزلة الصحية مع شيء من الميل الطبيعي أسلم من الاختيار المبنى على العاطفة المجردة ، على أنه لا مانع يمنع من تمكنت بينهما علائق المحبة أن يتزوجا على شريطة أن يكونا صالحين للزواج ؛ ولقد فطن بعض الأوربيين لهذا الأمر ، وشعروا بالواجب عليهم نحو المجتمع من هذه الوجهة فأخذوا على أنفسهم ألا يتزوجوا إلا إذا عرضوا أنفسهم على الأطباء ، كي يحصلوا على شهادات تشهد بجودة صحتهم وصلاحيتهم للزواج .

ولا يفهم من وجوب الاختيار وجوب اختلاط الزوجين قبل الزواج كما يفعل الناس فى معظم البلاد الأوربية ، فان هذا ليس من الضرورى ، إذ من الممكن تعرف أحوال الزوج أو الزوجة الصحية بطريقة مشروعة ، ويخيل إلى ان الشارع لم يحل للرجل ان يرى وجه زوجته المستقبلة ويديها ليتعرف مقدار جمالها فقط ، ولكن ليعرف أحوالها الصحية أيضا .

وعندى أنه من الأسلم تعرف أحوال الزوجة وهى فى حالتها الطبيعية ، فان ذلك أبعد عن الريبة ، وأنفى للشك ، وأقرب إلى معرفة الحقيقة من اختلاط الرجل بالمرأة قبل الزواج بالطريقة المتبعة فى أوروبا التى يجد التظاهر والتصنع فيها مجالا واسعا ، فحياة الزوجين قبل الزواج ومعاملة كل منهم للآخر فى ذلك الوقت لا تعتبر بحال من الأحوال مقياسا للحياة بعد الزواج ؟

حامد عبد القادر

المحاورات السقراطية

(بقية المنشور على الصفحة ١٣٥٥)

ونحن الآن إنما نختلف عن الأثينيين فقط إذا كنا نعتقد ما اعتقده افلاطون ، أى إذا قلنا كما قال : إن قواعد الحياة والمجتمع لا تفهم ولا توضح بنفس الأساليب التى يحتاج إليها فى حل المسألة الرياضية ، ومع ان الحياة قد تكون اعمق مما تستطيع قوانا توضيحه ، فان إدراك غايات الحياة ، والقوة القادرة على رؤية الحياة وفهم معناها ليست مضادة للعقل ، ولكنها تتطلب أسمى تمرين له ؟

ابراهيم عبد الحميد زكى

المنثـــــــــــور والمنظوم

أيهما أسبق الى الوجود؟

بقلم الأستاذ السباعى السباعى بيومى

مدرس الادب العربى بدار العلوم

أظنه من الملائم فى هذا البحث أن يعرض المتصدى له أولا وقبل كل شىء للمعنى العـام الذى يفهم من كلتا كلمتى: نثر ونظم، حتى إذا جلاه وأبان عنه، وجعل الفارق بين المعنيين واضحاً ملموساً ، عمد إلى هذا الفارق يحاكمه إلى الطبيعة ، ويستهديه القول ، فاذا هو الحكم الفصل والحق المبين . وأظنه من السهل محاولة ذلك ، مادامت كل كلمة فى ظاهر لفظها تمدنا بالمعنى الذى ينبغى أن يكون الوجه فى التفرقة والعامل على التمييز ، وأن ماعداه من مدلولات ليس إلا اضمائم متممة لها ، انحازت إلى أحد الجانبين، وظهرت فيه بمظهر المختص الملازم لا تعدو أن تكون شركة بينهما غير ناهضة وحدها أن تصلح فصلا ؛ فما هو ذلك المعنى البارز الذى تحمله كل كلمة ، والذى من أجله قدمنا تلك التقدمة، وله صدرنا هذا التصدير ؟ هو ـ بلا إجهاد فى الفكرة ، ولا إطالة فى التعبير ـ أن يلتزم الشاعر فى شعره وزناً وقافية يجعلانه مقيداً منظوماً ، ويتحرر منهما الناثر فيجيء كلامه مطلقاً منثوراً. وإذن، النثر أبسط من الشعر، وفى الشعر كلفة ليست فى النثر ، والنثر أقرب منـالا، ورجاله أكثر عدداً ، والشعر أصعب محاولة، والشعراء آحاد فى أوساط الناس ؛ وهنا نسأل نواميس الطبيعة والكون وعوامل النشوء والارتقاء : أيهما لذلك يجب أن يكون أسبق كوناً ، وأقدم وجوداً ؟ فيكون الجواب ـ لامحالة ـ ماأجبنا به آنفا من أن النثر أسبق من الشعر .

وليس انحيازنا فى التفرقة بين النثر والشعر إلى جانب اللفظ دون المعنى ، لأنا لا نعبأ بالمعانى، أو لأنا نسوى بينهما فيها ؛ فما يجهل أقل الملمين بالأدب أن الشعر يعتمد على الخيال أكثر مما يعتمد على الحقيقة ، وأنه يستوحى الشعور أكثر مما يستوحى الفكر ، على عكس النثر فيهما؛ ولكن مهما أغرقنا فى التفرقة المعنوية، فليس فى استطاعتنا أن نباعد بين الخيال والنثر، ولا بين الشعر والحقيقة؛ فكم نثر أوغل من شعر فى التخيل والتصوير ، والتعبير عن الوجدان والشعور؛ وكم شعر هو وعاء الحكمة والفلسفة ، وأدخل فى باب التفكير منه فى باب الخيال ؛ إنما انحزنا الى جانب اللفظ للأبانة عن وجه التسمية بالنثر والنظم ، وأنها لم تك عبثاً ؛ ولم تأت اعتباطاً

إنما وضعها الواضعون عن بصيرة وفكر، لتكون خير معبر عن الفارق ، وأوضح مترجم عن التمييز. نعم عطف الواضعون على النظم فوضعوا له اسماً آخر هو الشعر ، إشارة منهم إلى أن الوزن والتقفية — وإن وقعت بهما المفاصلة والمخالفة — ليسا وحدهما المكونين للشعر ، بل لابد أن يغلب على معناه الشعور ، حتى يكون اغترافه من ينابيع العاطفة والخيال أكثر مما يغترف من ينابيع الحقيقة والتفكير .

يقول المخالفون فى الفكرة: إذا كان النثر أسبق من الشعر ، فما بالنا نجد للأمم القديمة شعراً ولا نجد لها نثراً ؟ ولكن فاتهم أن تلك قضية لا نفهمها كما أصدروها ، ولا نستسيغها كما هيئوها إلا إذا سلمنا لهم بقضيتين أخريين كلتاهما أبعد عن العقل من الأخرى .

فأما أولاهما فانهم يعنون بالأمم القديمة ـ أول مايعنون ـ اليونان والرومان ، فينفون عنهما النثر ويستبقون الشعر ، كأنما كل أفراد هاتين الأمتين أو أفذاذهما كانوا شعراء ، وكأنما لم تهيىء أحوالهما الطبيعة ـ والأولى أمة فلسفة ومنطق ، والثانية أمة تقنين وتشريع ، ثم هما معا أمتا حكم وفتوح ـ أحدا من رجالاتهما ليدافع عن فكرة، أو يعلل لقانون،أو يدعو الى حرب ودفاع ؛وهلا كان الأسير مع العقل والأطوع للفكر أن يقولوا: كان لهما نثر وشعر،ولكن الشعر كان قليلا، والقليل محروص عليه،فوعته الأفهام وتناقلته الرواة فى وقت تفشو فيه الأمية وتندر أو تنعدم الكتابة التى تتسع لقيد النثر ، ثم الشعر مع ذلك أيسر حفظاً وأكثر ذيوعاً؟ نعم كان لهم أن يقولوا ذلك فيقبل القول ويستقيم الاستنباط ويكونوا بذلك منطقيين كما يدعون.

وأما الثانية فانهم يريدوننا على أن العرب فى جاهليتها لم يك لها نثر،وأن ما أثر عنها موضوع مختلق؛وهذا لعمرى تهجم على العقل، ومطالبة لنا أن نكون أمامهم أشباح أناسى لا أناسى ذوى عقول؛وإلا فكيف لم يك للعرب فى جاهليتها نثر، وقد تحداهم القرآن الكريم فيه،ووصفهم بأنهم كانوا قوماً لداً « واللدد فى اللغة شدة الخصومة والمحاجة » تمشياً مع ما هو مقرر معروف من أن التحدى لا يحتفظ بكيانه، ولا يكون له قوامه إلا إذا وقع لكل أمة فى الباب الذى تزعم فيه نبوغاً،وتدعى لنفسها عليه قوة واقتداراً؟وإذا كان الأمر هنا كما يقولون،أفما كان الأجدر بالقرآن أن ينزل كما نزلت سائر الكتب قبله بلغة لا يرتفع فيها الى ذروة الفصاحة كما ارتفع حتى يكونوا أفهم لمعانيه وأقدر؟وقد نزل لهم على الانتفاع بما حواه، ثم يلتمس النبى للتحدى منحى آخر غير الفصاحة والبيان؟ وإذا أبى المخالفون إلا الفصاحة والبيان فان فى مقدورنا ـ مجاراة لهم ـ أن نقول كان ينبغى لذلك أن ينزل القرآن شعراً لا نثراً؛لأنهم لا زالوا يدينون لبعض الجاهليين بالقدرة على قول الشعر،لولا أن فى تلك المجاراة هدماً لما لا نرتضى ولا يرتضون؛فقد جرد الله نبيه من أن يكون شاعراً كما جرده من أن يكون كاتباً، وباعد بين القرآن والشعر،فأعجز به منثوراً أمة ذات قدرة فائقة على النثر ، وقد أثر عنها منه مايؤيد تلك القدرة ويشهد بها؛ ولكن ضاع معظمه

وبقى القليل خضوعاً لسنة الكون فى الاضاعة والأبقاء، ولا محل إذن للشك فى هذا القليل؛ إنما الوجه فى الشك كان يتأتى اذا كثر أو باد.

ويقولون أيضاً إن فى عوام الأمم الحديثة من يقول الشعر بلغاتهم، بينا لا يحسن أحد منهم النثر؛ وهذا قول لا يسلم به من يختلط بطبقات العوام، ويرقب عن كثب مجرى أحاديثهم ومحاوراتهم؛ فان فى عوام المصريين مثلا سماراً تدار حولهم الحلقات، وترهف اليهم الأسماع، فلا يزالون يلقون من عذب الحديث وجميل القصص ما لو كان هناك تدوين للغتنا العامية لكان فى الذروة من نصوصها والقمة من آدابها؛ وإن فى تراشق امرأتين تختصمان فى أحقر الأزقة وأدنأ الحارات لروعة لهذا الخصام وقوة بيان لمناحيه لا تقل عن مثيلاتها فى محاورة أو منافرة مما دون للغة الفصحى مثالا لقوة العارضة وآية على الاقتدار. وهل تجردت حياتنا العامة من حوادث تدفع ذا زعامة ورياسة أن يحرض ويستنهض أو يخوف ويسترجع، وذا قرابة ولحمة أن يوصى ويرشد ويعظ ويذكر؟ أم هل خلت عاميتنا من حكم وأمثال تضارع فى قوة المعنى وشدة الايجاز نظائرها القديمة، وتحل من قلوب السامعين الآن المحل الذى كانت تحتله تلك فى القديم؟ بلى لم تخل فى نثرها من شىء هو لنثر أختها العربية؛ ولكن كثرته واقتدار السواد عليه صرف الأذهان عن تناقله وروايته إلى شعرها الذى خلا من كثير مما حواه الشعر الصحيح، فقل قائلوه واستخدم دون النثر فيما كان أبقى له وأدعى إلى حفظه من حداء وغناء، مع ما فى طبيعته، فضلا عن تلك الحاجة وهذى القلة من سهولة الحفظ وسرعة الاستذكار.

ثم هم يقولون: إن الشعر وجد قبل النثر، وحين ضاقت أوزانه عن مظاهر العقل تحلل الانسان منه إلى المنثور؛ ومعنى هذا — إن كانت لنا عقول — إن العقل الانسانى فى طفولته كان قديراً على أن يعبر عما يريده بهذا الكلام الموزون المقفى، ولكنه بعد أن ترقى وجاوز دور الطفولة والأدوار التى أعقبته فتم نضجه واستوى، ارتد عاجزاً عما كان عليه قديراً، ولجأ فى تعبيراته إلى الكلام المطلق من قيد التقفية والوزن. ياله حكما عليه من أولئك المخالفين! إلا أن يعاند الطبيعة وما اتفق عليه الناس مرغمين، دون أن يكون لهم إلى الخلاف فيه لو أرادوه سبيل؛ ولسنا ندرى أيذكرون نتيجة لهذا أن الانسان خلق متحضراً ثم تبدى؟ أم يزعمون أن اللغة وحدها شذت عن هذا الناموس العام، أو أن الشعر على فرض سهولة التقفية والوزن خلو من كل منطق وتفكير؟ الحق أنا لا ندرى عنهم ماذا تقول، فالشعر بالغا ما بلغ من تصور وخيال لا غنى له فى ذلك وفى مراعاة وزنه وقافيته عن عقل يسدى وفكر يهدى، فما بالنا إذا كان بالفلسفة ناطقا ولأدق نزعات العقل مصوراً؟ وقديما شبهوه بالدر المنظوم، وما كان النظم بغير مجهود وتدبير، وقالوا: «إن من الشعر لحكمة» وما خلا منها منذ عرف فى سالف الحقب وسابق الزمان.

بقيت قالة أخيرة حملهم عليها التسليم ببعض الواقع هى قولهم: إنا نقصد بالنثر المتؤخر عن

الشعر النثر الفنى؛ ولكنهم فى عجز أو تعاجز عن تحديد هذا النوع الذى يريدون، لأنهم إن أرادوا بالفنية الاجادة التى نطالعها فى أنواع المنثور من حكمة ومثل وخطبة ووصية ومفاخرة ومنافرة، على أن يسلموا للجاهليين فى ذلك بما هو مأثور، قلنا لهم: إن النثر قد بلغ إذن قبل الاسلام درجة تفوق فى مداها وقوة فصاحتها ماوصل إليه الشعر إذ ذاك، وإن تلك الدرجة ما كانت لتكون دون أن يضرب النثر فى القدم إلى قرون ينعدم فيها الشعر، أو يكون طفلا يحبو، بينا النثر قائم يجرى على قدمين؛ هذا إلى ماقدمنا من السنة القاضية بسبق البسيط على المركب، واليسير على العسير، وماتلاها من مناقشة مايقولون؛ فان أنكروا هذا المأثور كما يدعون رددنا عليهم هذا الانكار بما لا سبيل لهم معه إلى كلام؛ ذلك أنهم يعترفون بما ورد عن صدر الاسلام من كل هذه الأنواع، ثم يعترفون مع ذلك بما لها من فنية فائقة على هذا الاعتبار كما يتضح ذلك فى كلام رسول الله والصحابة وسائر المخضرمين؛ فهل كان هؤلاء جميعا قبيل الاسلام من الفهاهة بحيث يزعمون، ثم انقلبوا بين عشية وضحاها نثريين مهمرين؟ إنا ننتظر منهم الجواب.

أما إذا حددوا الفنية بالكتابة وأساليبها وصناعة الانشاء ونظمها مما يسوق اليه تحضر الامم ويدفع به تقدم العمران، فان فى ذلك التحديد انصرافا بهم إلى ما انصرف اليه الناس؛ وإذن فلا جدة ولا خلاف؛ ولكنهم يأبون فى هذا - شأنهم فى غيره - إلا أن يكونوا مخالفين وذوى جديد!؟

السباعى السباعى بيومى

الجبر والاختيار وأثرهما فى الأدب

قد يكون من الخير أن نبدأ بتعريف الجبر كما يفهمه معتنقوه ، وبتعريف الاختيار كما يفهمه معتنقوه كذلك ، ولعل من الواجب علينا أن نتحدث عن أقرب الأشياء إلى مسألة الجبر والاختيار ، وأعنى به القضاء والقدر ، حتى إذا استطعنا أن نرسم صورة واضحة عن ذلك كله ، بينا الأثر الذى ترتب على كل عقيدة من هذه العقائد ، والسمة التى تغلغلت فى الأدب شعره ونثره ؛ فان الأدب لسان المرء يعبر به عما يخالج قلبه ، ويجيش فى وجدانه ، ويتأثر إلى حد بعيد بما يدين به المرء ويؤمن .

كلمة الجبر يفهم منها أهل العقائد أن المرء فى تلك الحياة لا يستطيع أن يقوم بأمر ما بارادته واختياره ، وإنما يسير مكرها مسلوب القدرة والارادة ، فهو مسير لا مخير ، حدد له طريق خاص ، وعمل خاص ، فهو يقوم به مسخراً لا يقدر على الافلات منه ، وهم يشبهون الانسان على ذلك المذهب بريشة معلقة فى الفضاء ، تعصف بها الرياح كما تشاء ؛ ولقد أخذ أهل هذا المذهب بعدة آيات قرآنية يفهم من ظاهرها أن الله خلق المرء وخلق عمله ، فهو لذلك خاضع لقدرته وإرادته ، يتصرف فيه كما يريد ، وبدهى أن نظرة سطحية بسيطة تكفى لنقض هذا المذهب من أساسه ، فالمرء يأتى مايشاء بقدرته وإرادته ، ويذره كذلك بقدرته وإرادته ، ولهذا قام القانون بين الناس ، يفصل فيما يأتون ويذرون ؛ ولولا قدرة الانسان وإرادته لما كان ثمة مبرر لثوابه أو عقابه ، فلندع هذا المذهب المبنى على الوهم ، ولنتكلم عن أصح المذاهب وأقواها ، وهو مذهب الاختيار الذى يعزو كل مايفعله المرء فى تلك الحياة إلى قدرته الشخصية وإرادته النفسية ، مستمداً دليله من الواقع المحسوس ، والمعقول المبنى على الحجج والبراهين ، وعلى ضوء هذا المذهب نستطيع أن نمنح المرء ثوابا ، أو نصليه عقابا ؛ ولكن بقيت مسألة القضاء والقدر ، وكثيرا ما اعترض بها المعترضون ، إذ يحسبونها تنافى الاختيار وتناقضه ؛ ولكنهم لو رجعوا إلى الحقيقة لعلموا ألا تنافى هناك ولا تنافر ، وأظن الموضوع يحتاج بعض البسط ، فلنبسطه عسى ألا تكون بعد ذلك شبهة أو خلاف .

ليس القضاء والقدر إلا علم الله بما سيكون فى هذا العالم من خير وشر ، وما إليهما من باقى الأحداث ، ولأن علم الله كامل تام ، فهو محيط بكل شىء ، لا يغيب عنه كائن ، ولا يجرى فى الكون شىء إلا بعلمه ، ومن هنا جاءت شبهات الذين يعترضون على الاختيار ، ومنشأ ذلك أنهم رتبوا نتائج وهمية ، على مقدمات لاتنتج لهم تلك النتائج ، إذ قالوا إن علم الله شامل لكل شىء ، والانسان لا يعمل إلا ما يوافق علمه تعالى ، وإذن فما يفعله المرء فى تلك الحياة لا يكون مخيرا فى فعله ، بل مجبرا عليه ، مضطرا إليه ، وفاتهم أن العلم شىء ، والقدرة شىء آخر ، فالأول

من الصفات التى تكشف الشىء على حقيقته ، فتظهر ماهيته وكنهه ، والثانية من صفات التأثير، بها يوجد الفعل ويتحقق ، وأظن الفرق واضحاً بين صفة العلم والقدرة ، فأنا أعلم مثلا أن القاهرة تضاء ليلا بالكهرباء ، فهل لعلمى هذا دخل قليل أو كثير فى تلك الاضاءة ؟ وهل إذا لم أعلم يكون ذلك مانعا من إضاءتها ؟ وأيضا أعلم أن أخى سيذهب غدا إلى المدرسة ، فهل علمى هذا له دخل فى ذهابه أو عدم ذهابه ؟ أظن الفرق واضحاً جليا بين العلم والقدرة ، فبينا تبرز الثانية الفعل إلى عالم الوجود ، إذا بالأولى تكشفه وتوضحه فقط ، وكذلك علم الله - ولله المثل الأعلى - يكشف له كل ما كان وما هو كائن وما سيكون ، من غير أن يكون لهذا العلم تأثير فى فعل المرء أو تركه ، فالانسان يأتى مايشاء ، ويذر مايشاء ، بقدرته وإرادته واختياره ، والله يعلم فقط ما يكون منه من حسن وسيء ؛ ولعل معترضاً يقول : وهل يستطيع إنسان أن يفعل غير ماعلم الله وغير ما أراد؟ ويكفى للاجابة عن هـذا السؤال أن أوجه النظر إلى أن عجز الانسان عن الخروج على ما علمه الله ، ليس لأن الله سلبه القـدرة والارادة ، بل لشىء آخر ، ذلك أن علم الله شامل وصحيح ، فهو لايعلم إلا ما سيكون ، ويعلمه صوابا ، ولذلك كانت كل أحداث العالم معلومة لديه على حقيقتها ، وكذلك أوجه النظر إلى أن إرادة الله لاتقيـدنا بعمل خاص ، بل هو يريد منا كل ما نفعله ، وكل ما لا نفعله ، فكأنه يقول : إن فعلتم كان ذلك بارادتى ، وإن لم تفعلوا فهو بارادتى كذلك ، وإنى قد أعطيتكم الاختيار فافعلوا ماتشاءون ، وإذن فالعقيدة الصحيحة التى لا عوج فيها ، وتوافق العقل والمنطق ، هى تلك التى تثبت للمرء قدرة وإرادة واختيارا ، وتثبت لله علما كاملا شاملا .

والآن بعد أن بينا هاتين العقيدتين ، نريد أن نرى آثارهما فى الآداب ، ولعله أثر جليل ، محببة إلى النفس دراسته ، فان عقيدة الجبر قد أنتجت لنـا ثلاثة ألوان من الأدب ، يختلف كل منها عن الآخر اختلافا بيناً ، غير أنها جميعها تتفق فى شىء واحد ، ذلك هو المغالاة ، فبينا تراها قد أنتجت فى بعض الأدباء أدبا قنوعا راضيا بما يواتيه الزمن من حظ سعيد أو غير سعيد، لايفكر فى أن يجهد نفسه لينال عيشا أحسن مما هو فيـه ، لأنه يؤمن بأن عمله لا أثر له فى حياته، وجده واجتهاده، لادخل له فى تكوين مستقبله ، إذا بك تراها قد أنتجت فى البعض الآخر أدب حب اللذة والاغراق فيها ، انتهابا للسعادة التى لايراها إلا على شفتى كأس، أو بين أحضان غانية ؛ ولماذا يحرم على نفسه ذلك وهو موقن بأن كل ما ارتكبه ويرتكبه غير محاسب عليه ، لأنه لم يجن منه شيئاً ولم يرتكبه بارادته واختياره؟ وترى غير هذين أدب الزندقة الذى يلقى الشكوك فى الدين ، ويعرض الشبه عليه ، يصوغ أسئلة ظاهرها صواب وباطنها خطأ وباطل ، ولعل أظهر أمثلة لهذه الأنواع الثلاثة أبا العلاء المعرى الزاهد القنوع ، وعمر الخيام الساعى

بكل جهده لينال حظه من اللذة كاملا غير منقوص ، وصالح بن عبد القدوس الذى قتل بسبب زندقته .

أنتجت عقيدة الجبر هذه الألوان الثلاثة من الأدب ، وأنتجت أنواعا أخرى ، لا نكون مغالين إذا ادعينا أنها هى التى سيطرت على الفكر العربى حينا من الزمن طويلا ، فلم نر منهم تمرداً على هذه العقيدة ، ومن حاول التمرد لم يلبث إلا قليلا حتى يعود ثانية إليها ، ومن ذا ينكر أن أدب التشاؤم ، والتواكل ، والزهد ، والقناعة ، والرضا بالقليل ، والركون إلى الأمر الواقع ، والعزلة ، والضجر ، كل ذلك يمت بسبب قريب أو بعيد إلى تلك العقيدة الخاطئة ؟ فالتشاؤم ينشأ من ضعف النفس التى لاتستمد قوتها من بين جنبيها ، بل تؤمن بأنها مسيرة مقهورة ، فتخفق فى عملها — بلا ريب — لأنها لا تتقنه ولا تجيده ، وإن امرأ يعتقد أن ليس فى استطاعته أن يريد شيئا أو يفعل شيئا ، لابد مفرط فى عمله متهاون فيه ، فيفشل ويخفق ، ويظن أن المستقبل كالماضى يملؤه الاخفاق والخيبة ، فينظر إلى الدنيا إذن خلال هذا المنظار الأسود القاتم ، ولو كان يؤمن بعقيدة الاختيار ، لرأيناه واثقا بنفسه ، مطمئنا إلى همته وعزيمته ، وأنه سوف يتغلب على كل عقبة ؛ وكذلك التواكل يمت إلى عقيدة الجبر بأوثق الأسباب ، فرأينا الأدب وانيا متواكلا ، يدعو إلى الضعف والخمول ، وقل مثل ذلك فى باقى الأنواع التى عددتها ، فهى تتصل اتصالا وثيقا بعقيدة الجبر ، وترتبط معها ، وإذا شئت تعبيرا أظهر وأجلى فقل : إن كل أدب يقف دون تقدم العالم وسيره إلى الأمام فهو أدب جبرى بحت ، ولعل شعراء العربية كانوا يقفون مكتوفى الأيدى أمام القضاء والقدر ، فيختلط عليهم ويشتبه بالجبر ، حتى قل أن ترى فيهم شاعراً قوى الشخصية ، مؤمنا بنفسه ، يملؤك ثقة ويقينا ، ولعل هذا هو السبب الذى دعا الشعراء إلى التكسب بشعرهم ، فهم ضعاف الشخصية قليلو الثقة بأنفسهم ، لا يستطيعون أن يشقوا طريقا يصل بهم إلى المجد الحقيقى ، والخلود عن جدارة واستحقاق .

على أنه لايمكننا إغفال الفلسفة التى أنتجتها هذه العقيدة ، وما صبغت به التفكير العربى ، حتى جعلته محصوراً ضمن دائرة ضيقة لايتعداها ، فقد قصرته على أن يفكر فى العالم الآخر: فى الثواب والعقاب ، والجنة والنار ، وصرفته عن الفلسفة المنتجة ، وهى تلك الفلسفة التى تمت إلى الانسانية بسبب وثيق ، فساء ظنه بطبائع البشر ، ولم يفكر فى إصلاحها ، لأنه لا يأمل ذلك الاصلاح ، بل الخلق حسنه وسيئه من الله ، والمرء مجبر على السير فى أحد الطريقين .

والقول الجملى أن أثر هذه العقيدة كان فى الناحية الأدبية والناحية الفلسفية هداما بحتا ، يقوض دعائم كل تفكير منتج ، أو أدب إنشائى مجيد .

أما عقيدة الاختيار فهى على العكس من ذلك كله ، لأنها تعطى المرء فضيلة الفعل ، وفضيلة

الترك ، وتجعله محاسبا أمام نفسه على كل ماقدم من يقظة أو إهمال ، والمرء بطبيعته يميل إلى إسعاد نفسه وترفيهها بكل صنوف الاسعاد ، فان كانت عقيدته تملى عليه أن فى استطاعته جلب الخير لنفسه ودفع الأذى عنها ، أنتج لنا أدبا مشرقا ، مليئا بالآمال التى تجول فى نفس صاحبه ، متحفزا إلى الأمام فى كل حين ، فهأنتم أولاء ترون أن فلسفة الاختيار تنتج لنا ألوانا زاهية من الأدب ، وأخص هذه الألوان أدب القوة ، والجمال ، والتفاؤل ، والأمل ، وأظننى لست فى حاجة إلى أن أبين وجهة نظرى فى ذلك ، فقد يكون من الجلاء والوضوح أن المرء إذا اعتمد على نفسه ، واستمد منها العون ، وآمن من كل قلبه بأن نجاحه وإخفاقه إنما هو بما يقدمه من عمل ، ويبذله من جهد ، آمن بالقوة ، واعتقد أنها ألزم صفات الانسانية ، واحتقر الضعف ، وما يتبع الضعف من صفات ، فيبيد أدب الرياء والنفاق ، والخديعة والملق ، ويزول أدب الكسل وما يتبع الكسل ، من أدب القناعة ، والرضا بالقليل ، والخضوع للواقع ؛ وإننا إذا نقبنا عن أسباب تخلفنا وتأخرنا ، فلا يمكن إغفال أثر أدب الضعف فى هذا التخلف ، وأن له حظا من ذلك غير قليل ؛ ولعل أدب الجمال ، ونعنى به هذا الأدب الذى يرينا مباهج الحياة ومناعمها ، يتصل كذلك بعقيدة الاختيار اتصالا وثيقا ، وقل مثل ذلك فى أدب التفاؤل والآمال ، ولعل أكبر شاعر فى العربية استطاع أن يشعرنا بهمته وعزيمته ، وجعلنا نقر له بقوة الشخصية ، أبا الطيب المتنبى الذى نسميه بحق شاعر القوة والآمال ، فهو لا يعتمد فيما يريد إلا على نفس قوية وثابة ، وهمة ترى وقوع العوالى بينها وبين أمانيها هينا يسيرا ، ثقة منها بالنصر مهما طال الجهاد ، وأظننا اليوم فى هذا العصر أحوج مانكون إلى هذا الايمان القوى بالنفس والثقة بها إلى آخر حدود الثقة ، لننتج أدبا قويا نهاضا ، يقود النشء إلى ذروة العلاء ، وقمة المجد والجلال.

وقبل أن أختم كلمتى أشير إلى الحظ ، وتأثيره هو الآخر فى الأدب ، لاتصاله الوثيق بمسألة الجبر والاختيار ، وقد أكون صادقا إذا ادعيت أن جل شعراء العربية إن لم يكن كلهم يؤمنون بالحظ ويدينون به ، حتى أبا الطيب المتنبى الشاعر القوى ، وقد يكون من إنكار الواقع إذا ادعينا أننا اليوم لا نتأثر إلى حد كبير بمسألة الحظ ، بل نرى من الناس ذا الحظ الحسن وذا الحظ السيء ، ولعل الحظ – كما يبدو لى – هو القدرة على انتهاز الفرصة ، فنرى ذا الفكر الثاقب الرجيح لا يلبث أن ينتهز الفرصة ، ويقبض عليها قبل أن تفلت منه ، وقد يغفو عن ذلك أحيانا ، بينما لا يغفو سواه ، وهنالك تتفاوت الدرجات بين الناس فيصبح أحدهم فى السماء ، والآخر فى الحضيض ؛ وقد يكون من الحق علينا أن نذكر الدور الذى لعبه الحظ فى الأدب العربى ، فطالما سمعنا من الشعراء والكتاب أناشيد السخط والرثاء ، وطالما نقم الشاعر على سواه لأنه نال خيراً منه أو سالمه الجد ؛ ويجب أن أوجه النظر إلى أن أدب الاختيار لا ينافيه اعتقاد الحظ ، بل نرى – كما أسلفنا – أن الشعراء الذين يدينون بالاختيار يؤمنون بالحظ ويوقنون .

(البقية على الصفحة رقم ١٣٧٣)

بشـــــار بن برد

— ٤ —

قيمة غزله وأثره

بقلم الأستاذ أحمد حسنين القرنى

فتر الشعر على عهد النبوة حتى لم يعد له أثر إلا فى تهجم على مقام الدين الجديد، أو رد لهذه الغارة ، أو تشجيع على قتال ، أو إثارة لحمية فى سبيل الفتح والجهاد ؛ فلما وقع الخلاف بين على ومعاوية نشط الشعراء ، ووجد الشعر السياسى بالمعنى الذى يتأدى بهذا اللفظ ، بعد أن وضع أساسه فى عصر النبوة .

واستتب الأمر لبنى أمية فاستمالوا الشعراء بصلاتهم، وبقى لأبناء على أنصارهم؛ فالشعر السياسى مايزال إلى ذلك العهد ناشطاً .

ودالت دولة بنى أمية ، وخفتت أصوات شعرائهم، وقامت الدولة العباسية ، وغمرت المدنية دولتهم وعمتها الرفاهية ، وقام ما يلازم المدنية والرفاهية عادة من مجالس للغناء والشرب التى يكون قوامها الفاتنات من الحسان، ويتلو ذلك، أو هو من مقتضياته، التغزل... لذلك كان لا بد للشاعر فى هذا العصر أن يكون غزلا سيما إذا كان الشعر منهج حياته .

وبشار الذى لم يقل الشعر إلا ليكسب به قوتاً ومجداً حتى كان فى بدء حياته يهجو الناس فيفزعون إلى أبيه فيوجعه ضربا فيقول له: (هذا ياأبت هو الشعر الذى سنجنى — عما قليل — ثمره شهياً ، فإن جاءوك فقل لهم : أو ليس الله يقول «ليس على الأعمى حرج» ؟) فاذا جاءوه شاكين لقيهم بتلك الحجة المسكتة فاذا هم يعودون أدراجهم قائلين: « فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار» بشار الذى هذا شأنه لا بد أن يكون غزلا ؛ ولـكن ... أى غزل جادت به قريحة بشار ؟

هناك أمور لا بد من توفرها فى الغزل حتى يكون غزلا سائغا ، منها اللفظ العذب المختار، والتركيب المحكم ، والخيال السامى مع التناسب بين الغزل والمتغزل فيه ؛ وتلك جميعها أمور نال منها بشار ماليست بعده زيادة لمستزيد، فأنت لا تجد فى شعره إلا ماعذب من الألفاظ، ورق من التراكيب ، واستساغه الخاص والعام ؛ أما المعانى فقد ذل له صعبها ، وسلس قيادها حتى لقد كان يأسى إذا سطا غيره على معنى من معانيه فصاغه فى أروع من عبارته، كما وقع له مع تلميـذه سلم بن الخاسر حين قال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفـاتك اللهج

(*) راجع مجلة «المعرفة» : ج ٨ و ٩ و ١٠ .

فقفاه سلم بقوله :

من راقب الناس مات غما وفاز باللـذة الجسـور

وعندئذ رأى بشار أن الألفاظ استقام منها لسلم مالم يستقم له ، فجزع لذلك واغتم، وقال: (ذهب ابن الفاعلة ببيتى) وقطع تلميذه قطيعة كادت تكون الأبدية لولا من رأب هذا الصدع من الأصدقاء .

يدلك على ذلك ما كان يحرص عليه بشار من التعبير السائغ ، وحب التفرد، والاستئثار بهذا الامتياز ، وذان أمران يصلان بالشاعر إلى التفوق والانفراد .

ولبشار شعر قد تراه تافها، ولكنه يعلل لك تفاهته، فيعطيك بالتعليل صورة جلية لشاعريته التى كانت تناجى الناس على قدر عقولهم ؛ فبشار الذى يقـول :

حـوراء ، إن نظرت إليـ ـك سقتك بالعينين خمراً
وكأن رجع حـديثهـا قطع الرياض كسين زهـراً
وكأن تحت لسانهـا هاروت ينفث فيـه سحراً
وتخال ما اشتملت عليه ثيابها ذهباً وتبراً
تنسى الغـوى معـاده وتكون للحكماء ذكراً

وبشار الذى يقول :

ورائحة للعين فيها مخيلة إذا برقت لم تسق بطن صعيد
حسدت عليها كل شىء يمسها وما كنت لولا حبها بحسود
وأصفر مثل الزعفران شربته على صوت صفراء الترائب رود
كأن أميراً جالساً فى ثيابها تؤمل رؤياه عيـون وفود
كأن لساناً ساحراً فى كلامها أعين بصوت للقلوب صيود
تميت به ألبابنـا وعقولنـا مراراً ، وتحييهن بعد همود
إذا نطقت صحنا، وصاح لنا الصدى صياح جنود وجهت لجنود
ظللنا بذاك الديدن اليوم كله كأنا من الفردوس بين خلود

بشار الذى يقول هذا القول ومثله مما لا يسامى هو الذى يقول فى جاريته «ربابة» :

«ربابة» ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لهـا عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فهبك لم تقرأ هذا كله ، أو قرأته غير منسوب لصاحبه، فهل كنت تظنه لشاعر واحد؟ وهلا يداخلك الريب فى هذين البيتين ـ إن كنت من متمذهبى الشك ـ فتظنهما مدخولين عليه ؟ ولكنك

حين تطلع على رايه ، وقد جابهه كثير من النقاد بتسفيههما ، وحين تعلم شيئا عن حياته ، تراه كان بليغاً حتى فى هذا النظم الذى لاقيمة له .

لقد كان بشار يحب ذلك النوع الذى نعرفه الآن باسم (السلطة) وكانت تتولى صنعه له « ربابة » وكان يحب البيض ولايستطيبه من السوق ، ولم تكن جاريته « ربابة » بالمثقفة التى تخاطب بلسان الخاصة ، فانظر إليه وقد تنازل فى مخاطبتها إلى الدرجة التى تستطيبها ، وهذا من البلاغة بل هو البلاغة ، فان الكلمة البليغة التى لاتفهم كالطعام الشهى أمام المحموم ، ولهذا كان النساء يقصدنه دون غيره ليصنع لهن من الشعر ماينحن به أو يندبن به عزيزاً ، أو يراسلن به حبيباً .

ذلك شأنه فى ألفاظه وأساليبه ، وهو شأن من يستحق أن يوضع فى مقدمة الغزلين ؛ أما معانيه فكم له فيها من إبداع يكرهك على أن تحمله علم السبق والأولوية ، وحسبك أن ترجع إلى النتف اليسيرة التى عرضناها عليك من غزله ، وتستخلص منها المعانى الجديدة التى جادت بها قريحته الجبارة ، أو حسبك أن تقرأ له مثل قوله :

جفت عينى عن التغميض حتى   كأن جفونها عنها قصار

أو قوله :

لم يطل ليلى ، ولكن لم أنم   ونفى عنى الكرى طيف ألم

أو قوله :

ومرتجة الأعطاف مهضومة الحشا   غرور بسحر عينها وتدور
إذا نظرت صبت عليك صبابة   وكادت قلوب العالمين تطير
خلوت بها ، لايخلص الماء بيننا   إلى الصبح ، دونى حاجب وستور

وقد أخذ هذا المعنى « على بن الجهم » ولكنه تلطف فى الأخذ فأبدل الماء بالخمر إذ يقول :

ألا رب ليل ضمنا بعد هجعة   وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب
وبتنا جميعاً ، لو تراق زجاجة   من الخمر فيما بيننا لم تسرب

وكم أخذ عنه الشعراء من المعانى التى فتح له مغلقها !! بل مالنا ننسق البراهين ، ونستخلص الحجج على جودة غزله ، أو علو شأنه فيه ، نحن الذين فقدنا شعره فلم تصلنا منه إلا نتف لاتشفى غليلا ، وقد شهد له معاصروه بذلك شهادة قاطعة ؟

ذلك المهدى ، قاتله ، الذى كان ذا بصر بالشعر ومعرفة بغثه وسمينه ، ألم يختره من بين الشعراء غير مرة ، ليصف له شيئاً ، و ليقول فيما يشاؤه الخليفة ؟

فمن ذلك أنه أرسل إليه مرة يقول له : (قل فى « الحب » شعراً ولا تطل ، واجعل الحب قاضياً بين المحبين ولا تسم أحداً) .

أليست هذه شهادة لبشار تقطع بتفوقه على معاصريه وهم واسطة عقد الشعراء ؟

غير أنه وقد ملك زمام الغزل أسرف فى استعماله ، وأفرط فى توجيهه إلى كل من سمع بجمالها ، أو رن فى أذنه صوتها ، حتى لقد ذكر أنه سمع صوت امرأة ففتن به، فظل يراسلها وهى لاتجيب، فلما أزعجتها رسائله قالت لرسوله قل له : ماذا لك فيها وأنت أعمى لاترى جمالها؟ وماذا لها فيك وأنت قبيح الشكل؟ فهاج هائجه ، وجن جنونه وقال للرسول عد إليها فقل لها :

... له فضل على ... هم وإذا أشط سجدن غير أواب
تلقاه بعد ثلاث عشرة قائماً فعل المؤذن شك يوم سحاب

فشكت أمره إلى زوجها فأذن لها أن تدعوه إلى بيتها على مشهد منه ليسمع مايقوله لها هذا الأعمى !! فلما انفرد بها بشار — على زعمه — قال لها :

أمامة! قد وصفت لنا بحسن وإنا لا نراك فألمسينا

فأخذت يده ووضعتها فى حجر زوجها ، فقبض بشار يده منتفضاً فزعاً ، وهو يقول :

طلبت غنيمة فوضعت كفى على شىء أشد من الحديد
على ألية مادمت حياً أمسك طائعاً إلا بعود
ولا أقرى لأرض أنت فيها سلام الله إلا من بعيد

وهكذا كان مسرفا ، وكان مبالغاً فى الاسراف وكان لاسرافه أثر سيء ، فقد كان أحد الأسباب — لا كل الأسباب — التى اختزلت حياته ؛ ومما جعل لغزله أو لاسرافه فى الغزل هذا الأثر السيء أن شعره كان كالأنشودة القومية فلا يكاد يلقى القصيدة حتى يلوكها كل إنسان ، ويرددها كل مجتمع حتى حق له أن يقول :

وقصائد مثل الرقى أرسلتهن فكن شغفاً
أوجعن كل مغازل وعصفن بالغيران عصفا

فكانت أولى النتائج أن توجه العظماء بالرجاء إلى المهدى، ومنهم خاله، أن يأمر بشاراً بالكف عن الغزل ، فأجاب المهدى رجاءهم ولكن ... لابد للمصدور من نفثات، فكان مما قاله بعد هذا النهى :

يامنظراً حسناً رأيته من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومنى ثوب الشباب وقد طويته
والله ، رب محمد ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك ، وربما عرض البلاء وما ابتغيته
ونهانى الملك الهمام عن النساء فما عصيته
بل قد وفيت ولم أضع عهداً ، ولا وأياً وأيته
وأنا المطل على العدا وإذا غلا الحمد اشتريته

وأميل فى أنس النديـــ ـــم إلى الحيـاء وما اشتهيته
ويشـوقنى بيت الحبيـــ ـــب إذا غدوت ، وأين بيته ؟

قد تتوجه رغبة الكاتب أو الشاعر بعض الحين إلى غاية يأباها عليه الملوك فينهونه عنها، فاذا ارتكبت كان ارتكابها بمثابة إعلان لخصومة هى فى الحقيقة خصومة شخصية تلبس ثوب المصلحة العامة ، وإن شاهدت ذلك الآن فقس عليه الأزمنة الخالية ، فالملوك هم الملوك فى كل زمن ، والشعراء والكتاب هم عشاق الحرية وعبادها فى كل حين مهما تباينت مشاربهم ومهما سيموا من الخسف .

نهى المهدى بشارا عن الغزل ، واستجاب بشار لهذا النهى ؛ ولكنك ترى من قصيدته السابقة روح الاصرار على العودة ، وتتبين فيها نية الرجوع طوعاً أوكرهاً ؛ فلما طال الزمن على حبس لسانه الغزل بين فكيه ، فاض الاناء وتدفقت منه الشتائم موجهة إلى المهدى ، وداعية إلى الثورة ضده ، كقوله :

بنى أمية ! هبوا طال نومكمو إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم، ياقوم! فالتمسوا خليفة الله بين الناى والعود

فلولا رقة غزل بشار ، وافتتان الناس به ، مافزع القوم إلى المهدى ، ولولا فزعهم مانهاه المهدى عن الغزل، ولولا نهى المهدى له، واسترساله فى النهى ماهجاه بشار ، ولولا هذا الهجو وما تفرع عنه من الشعوبية ما قتل بشار قتلته السياسية الشنيعة التى قد أحدثك عنها .

ولكنك على كل حال قد علمت أن بشاراً كان من أرق الشعراء غزلا ، ومن أدقهم فيه معنى وأسلوباً ؟

أحمد حسنين القرنى

الجبر والاختيار وأثرهما فى الادب

(بقية المنشور على الصفحة رقم ١٣٦٨)

الآن بعد أن قررنا رأينا فى الجبر والاختيار ، وبينا أيهما يسير وفق العقل والمنطق ـ لعل طائفة لايروقها هذا التفسير ، فتسألنا إذن عن التوكل الذى أمرنا به الدين ، وكيف يتفق مع المبدأ الذى ننشده ، وهو الايمان بالنفس والثقة بقوتها ، والركون إلى الهمة والعزيمة ؟ ولكنى أوجه نظرهم إلى أنهم لابد متفقون معى على أن معنى التوكل غير معنى التواكل، فبينا يقصد بالأول ألا يغتر المرء بقدرته ، أو يتيه بعزيمته التى تسبب له النجاح والظفر ، لاعتقاد أن هنالك قوة أسمى من قوته ، وإرادة أعلى من إرادته ، إذا بالتواكل يدعو إلى الكسل والضعف، والاعتماد على غير ما يعتمد عليه ، فينتج أدبا ضعيفا خائر القوى؛ أما التوكل فانه يثمر فى الأدب أبرك الثمرات؟

أحمد أحمد بدوى

فن النشر والاعـــــــــلان

صناعة تفتقر إليها التجارة المصرية

بقلم محمد أمين حسونه

أصبح الاعلان فى العصر الحاضر من أهم الضروريات اللازمة للانتاج الكبير، حيث لا ينتج الصانع لنفسه أو للبيئة التى تحوطه فقط، بل للقريب منه والبعيد أيضاً ؛ ومن أهم الشروط اللازمة لنجاحه تعريف الجمهور عما ينتجه من سلع وبضائع، وعن موضع متجره أو مصنعه، حتى يتسنى لهم معرفته، ولا سبيل إلى ذلك إلا بطرق النشر والاعلان .

فالاعلان فى العصر الحاضر - عصر المنافسة والمزاحمة الصناعية - أصبح أداة لازمة فى نجاح التجارة ، ومن أشد الوسائل فى تقدمها ورقيها، والبيت التجارى الذى لا يعلن عن نفسه قد يعرض نفسه للخسارة الجسيمة وسط هذا التيار الجارف - تيار المنافسة - ولا يمكنه أن يتقدم التقدم الذى يرجى له ؛ وقد أرادت إحدى الشركات التجارية الانجليزية مرة أن تخفض فى ميزانيتها من باب الاعلانات، فكانت النتيجة أن خسارتها تعدت مجموع ما اكتسبته فى سنوات عشر، وانتهى بها الحال إلى كارثة الافلاس.

ومما لاشك فيه أن انتشار فن الاعلان مرتبط تمام الارتباط بتقدم فنى الطباعة والرسم مع اتساع نطاق الصحافة ورقيها ؛ فالمطبعة قد أكسبت الاعلان لونا جديداً ؛ ومن رأينا أن فن الاعلان قد سبق فن الصحافة، وهناك من الأدلة ما يثبت أن الصحافة إنما قامت على مجهود الاعلان ، فما من صحيفة فى العالم تستطيع أن تنتشر وتعيش بدون اعلان؛ وكثيرون من قراء الصحف العربية فى الشرق تتولاهم الدهشة حينما يقلبون بين أيديهم صحيفة امريكية مثلا فيرون أن ضخامة حجمها لا يناسب مطلقا ثمنها البخس الذى تباع به، والذى ينقص أحيانا عن ثمن الورق، ولو عرفوا السر فى ذلك - وهو الاعلان وكيف أن موارد رزقها إنما هى منه - لأقبلوا على نشره فى صحفهم متنافسين .

والاعلان فن قائم بنفسه يدرس فى الكليات الاقتصادية فى أمريكا وأوروبا على أحدث الأساليب والابتكارات العلمية العصرية ، وهناك شركات قوية للنشر والاذاعة ، تعتمد فى فنها على قوة الخيال وحسن الابتكار، والامريكيون ينفقون سنويا ما يربو على ٢٥٠ مليون دولار فى سبيل الاعلان عن متاجرهم ومصانعهم .

لقد ضرب الامريكيون فى هذا النوع من الاعلان بسهم وافر، وقلما تدانيهم أو تنافسهم أمة فى ذلك، فأينما ذهبت وحيثما أقمت، تجد أمامك اعلانات ملصقة على جدران الشوارع والميادين العامة، وفى دور التمثيل والملاهى و(السينما)، وعلى الشواطىء وفى البواخر والقطار وعربات الترام و(الأمنيبوس) وغير ذلك من وسائل النقل، فضلا عن انتشارها بين مختلف الصحف ومتباين المطبوعات.

وبمقارنة مصر بغيرها من الأمم التى تعتمد فى نشر تجارتها على الاعلان، نجد أنها لم تبلغ شأواً يذكر فى ذلك، فطرق النشر والاعلان الحديثة غير وفيرة، ويجهلها أكثر التجار الوطنيين، وهى معدومة بالنسبة للكثير من البيوت التجارية، وربما كان اكثر ذلك راجعا إلى عدم اهتمام الجمهور به، وإلى الأمية المنتشرة بين سكان القرى وبعض المدن، ونقص التعليم التجارى، وعدم وجود شركات نشر قوية؛ وأكثر البيوت التى تعلن عن نفسها فى مصر هى الشركات الاجنبية التى تعتمد على زبائنها الاجانب قبل المصريين؛ ومما يؤسف له غاية الأسف، أن التاجر المصرى لا يقدر الاعلان حق قدره، ولا يكلف نفسه مشقته، وتكون النتيجة أحيانا بوار تجارته وكسادها.

وليس لفن الاعلان قواعد مقررة لا يحيد الانسان عنها، بل إنه فن يرجع مصدره إلى تقع التاجر، يوحى به الخيال وقوة الابتكار، فيخرج للناس فى صورة طبقاً لتصور صاحبه، فان كانت عبقرية الناشر فذة، ظهر الاعلان فى شكل جذاب يغرى المطلع عليه على اقتناء ما يحويه؛ ومن أهم أسباب نجاحه أن يعرف المعلن عوائد وطباع وحاجة الجهة التى يريد الاعلان فى دائرتها، كما يجب أن يمثل الاعلان حقيقة ما يحويه، وأن يكون ما جاء به مطابقا للواقع؛ فالاعلان الذى يبنى على هذا الأساس القوى له أثر فى اجتذاب ثقة الجمهور، كما يجب أن يكون مشوقا بعيداً عن المغالاة، وهذا أمر يرجع فيه إلى تفنن المعلن وقوة ابتكاره؛ ومن مظاهره المعروفة أن يكون ممثلا بصورة جميلة تميل إليها النفس، وأن يكون غريباً فى بابه؛ ومن أمثلة ذلك:

أن دخلت أحد المسارح فى برلين طبقة من علية القوم يلبسون ملابس السهرة والقبعات العالية، وجلسوا فى الصف الأول من مقاعد التمثيل وقبعاتهم لا تزال على رؤوسهم، فتضايق الجمهور من ذلك وطلب اليهم خلع قبعاتهم؛ وبعد فترة ليست بالقصيرة، وبعد أن ضاق الجمهور ذرعا، خلعوا قبعاتهم بكل برود وتكلف، فاذا برؤوسهم صلعاء، وقد كتب عليها بحروف ظاهرة «استعملوا صابون سانلايت» فدوت القاعة بالضحك والتصفيق، واستطاعوا بحسن ابتكارهم اجتذاب نظر الجمهور

وعلى ذكر الصابون نقول إن إحدى الشركات الانجليزية، ولعل اسمها (شركة بيرس)، اتفقت مرة مع جماعة من شبان لندن على ارتداء أفخر الملابس وغشيان المجتمعات الارستقراطية؛ ولكنهم يستبدلون التحيات المألوفة عند الناس بقولهم لكل من يصافحونه «هل استعملتم صابون بيرس؟!!» فكانت دعاية قوية لهذا النوع من الصابون، ولا تزال هذه التحية الشاذة مألوفة على أفواه بعض سكان لندن كدعابة وللسخرية والمزاح.

وإذا خطر ببالنا التحدث عن غرائب الاعلانات لما انتهينا منها اليوم، وإنما نذكر على سبيل

الغرابة ما أعلنته جريدة (الديلى ميل) عن نفسها بواسطة طيارة تحلق فى الجو، وتخرج من مؤخرتها بخارا ظهر على شكل كتابة بحروف ضخمة « اقرأوا الديلى ميل » وظل هذا الدخان فى الجو نحو خمس دقائق فاستلفت أنظار سكان لندن اليه للغرابة التى ظهر بها .

على أن من دواعى نجاح الاعلان ايضا أن يكون قصير العبارة، واضح المعنى ، غير محشو بالكلام، وخاصة إذا كان ملصقا بالطرقات العامة ، حتى يمكن لراكب الترام أو السيارة أو السائر على قدميه ، أن يقرأه بسهولة وبدون حاجة إلى تهدئة سيره ؛ فكلما قلت الكلمات زاد أثر الاعلان؛

كما يجب ايضا أن يكون لافتا للنظر، بأن يوضع فى مكان يراه الانسان بسهولة ؛ وقد ثبت أن اللون الاحمر هو أكثر الالوان اجتذابا للنظر وإلفاتا للعين ، ولذا اصطلح على أن يكون علامة الخطر ، نظرا إلى أن الانسان يراه عن بعد، ولأنه يسترعى النظر بسرعة .

والكهرباء من الأمور اللافتة للنظر أيضا ،وخاصة المتحركة منها ، فهى لا تترك المارة يسيرون فى طريقهم دون إلفات نظرهم اليها ، وقد توضع فى أعلى العمارات ليشاهدها الغادى والرائح ، وتسمى أحيانا « بالجريدة الكهربائية » .

ويمكننا أن نقرر على وجه الاجمال أن كل عمل غير عادى فى الطريق من شأنه إلفات النظر ،فمن ذلك الاعلان بالموسيقى والراديو والتماثيل المتحركة وعمل الزينات الفاخرة، كما أن من شروط نجاحه وضعه فى المكان اللائق برواج التجارة المعلن عنها ، فليس من اللائق الاعلان عن قبعات فى الاحياء الوطنية ، أو عن الخمور فى مجلة دينية، أو عن مشرط الجراح فى مجلة قانونية، أو نحو ذلك .

وقد يعارض البعض فى مزايا الاعلان بحجة أنه يكون ضد صالح المستهلك، نظرا إلى أن الاعلان قد يكلف المحل المعلن نفقات باهظة لا بد وأن تضاف إلى ثمن البضاعة الأصلى، وبذلك يدفع المستهلك ثمن البضاعة مضافا اليه نفقات النشر ؛ وقد يكون الاعلان مبالغا فيه إلى درجة تغرى الجمهور بالشراء دون حاجة اليه ، وقد توافق أحيانا أوصاف الشيء المعلن عنه ما جاء بالاعلان نفسه ، فيتسبب من ذلك ضرر الجمهور ككثير من اعلانات العقاقير والادوية والمجهزات الطبية .

فاذا سلمنا بالاعتبار الأول، وجدنا أن الاعلان رغما عن تكليف التاجر ببعض نفقاته وإضافتها إلى ثمن البضاعة الاصلى ، إلا أنه يسبب مزاحمة قوية بين البائعين، فيضطر كل منهم إلى تخفيض أثمان بضائعه إلى الحد المستطاع، وهذا ـ بطبيعة الحال ـ فى صالح المستهلك، فضلا عن أن الاعلان يقرب المستهلك من المنتج ويجعل التعامل بينهما مباشرا، وبذلك يمكن الاستغناء عن الوسطاء وعن انتقال البضاعة من يد إلى أخرى، وفى هذا وفر كبير أيضا فى صالح المستهلك .

أما بالنسبة للاعتبار الثانى، فانا نرى أن الاعلان المبالغ فيه مبالغة غير شريفة، قد يسىء فى النهاية إلى المنتج، ويسبب له سمعة سيئة ، فيعرض القاصى والدانى عن ابتياع حاجياته .

وهناك من وسائل الاعلان وطرق النشر مالا يحصى، وسوف نعود الى ذكر بعضها فى العدد المقبل ؟

محمد أمين حسونه

في المغـــرب الأقصى

بقلم السيد محمد سعيد الزاهري

المغرب الأقصى أم مراكش ؟

أما الكتاب في مصر وفي غيرها من بلاد المشرق ، فانهم يطلقون كلمة « مراكش » على المغرب الأقصى ، ثم تابعهم على ذلك حملة الأقلام في الجزائر وتونس ؛ وأما أدباء المغرب الأقصى فانهم يطلقون « مراكش » على المدينة لا على عموم القطر ، وهم يكرهون منا أن نسمي بلادهم « مراكش » وأن نسميهم « مراكشيين » ، بل يريدون منا أن نسميهم « مغاربة » وأن نسمي بلادهم باسم « المغرب الأقصى » ، وقالوا إن كلمة « مراكش » بمعنى القطر هي تعريب لكلمة (MAROC) الفرنجية ، والحق أن هذه الكلمة الفرنجية هي التي نقلت عن العربية بلفظها ومعناها فقد كان الأدباء العرب يطلقون كلمة « مراكش » على القطر كما يطلقونها على المدينة ، وهناك أكثر من كتاب وضعه الأولون في « أخبار الدول المراكشية » وهم يعنون « أخبار دول المغرب الأقصى » ؛ وأنا شخصياً أستحسن أن أسمي « المغرب الأقصى » باسم « مراكش » المدينة التي كان لها على عهد دول الاسلام شأن عظيم ، والتي ماتزال إلى الآن من أكثر مدن المغرب الأقصى سكاناً وعمراناً ، والتي هي من أجمل العواصم التاريخية لتلك البلاد الكريمة ، كما أسمي المغرب الأوسط باسم « الجزائر » والمغرب الأدنى باسم « تونس » ؛ ومع ذلك ، ومع أننا كلنا « مغاربة » ، فاني أسمي « المراكشيين » باسم « المغاربة » ، وأدعوهم بأحب الأسماء اليهم ، وأدعو بلادهم « المغرب الأقصى » .

وهران (مراكش) !

لو أن كاتباً مغربياً (من الجزائر أو تونس أو المغرب الاقصى) كتب وقال إن مدينة الاسكندرية في فلسطين ، أو إن بيروت هي في مصر أو نحو ذلك ، لأكبر الناس منه هذا الخلط وعجبوا من أمره ، كذلك نحن المغاربة عجبنا وتأسفنا جداً عندما رأينا في هذه الأيام جريدة عربية من أكبر الصحف في بيروت تزعم أن مدينة وهران في مراكش (المغرب الأقصى) ، وعندما رأينا أيضاً جريدة كبرى من أمهات الصحف في مصر تنشر خبراً من أخبارها قالت عنه إنه جاءها من تونس بالمغرب الأقصى ! ! وهكذا كثيراً ما نرى الكتاب والصحفيين في مصر والشام والعراق وسائر بلاد العرب إذا تكلموا عن بلاد المغرب (الأقصى والأوسط والأدنى) خلطوا في كلامهم خلطا فاضحاً ، حتى كأنهم يتكلمون عن مجهل من المجاهل التي لم تطأها قدم

إنسان ، فتارة يحسبون أن وهران فى مراكش ، وأن تونس فى المغرب الأقصى ، وتارة يحسبون أن الدار البيضاء هى من مدن المملكة التونسية ؛ ومن العجب أن إخواننا فى مصر والشام وغيرهما يحسنون الكلام عن بلاد الانكليز أو فرنسا أو هولندا ، ويعرفون جغرافية البلاد الأوروبية وغيرها ، ثم هم مع ذلك يجهلون جغرافية بلاد المغرب جهلا يكاد يكون تاماً مطبقاً ، وليس من اللائق أن يجهلوا أو يتجاهلوا بلاداً تربطها ببلادهم جميع الروابط والصلات ، وليس فى بلاد المغرب كلها من يجهل ما بين هذا المغرب العربى وبين الشرق العربى من رابطة العروبة والاسلام ، ولا ما بينهما من صلات فى النسب والتاريخ وغير ذلك ، ولا من لا يعتقد أن هذه الأمة المغربية هى شعبة من الأمة العربية الكبرى بما فيها مصر ، أو أن هذه البلاد المغربية هى جزء لا يتجزأ من بلاد الاسلام ، وهذا هو ما يعتقده العامة والخاصة فى الجزائر ، وتونس ومراكش.

أصدق كتاب عن «فاس»

ولعل كتاب الأخوين (طارو) هو أصدق كتاب باللغة الفرنسية عن فاس أو هو أقرب ما كتب عنها إلى الصدق ، وأدنى الى الصواب ، فقد وصف فيه كاتباه الحياة المغربية بفاس وصفاً صادقا عميقا تغلغل من المجتمع الفاسى الى الدخائل والأعماق ، وجليا فيه الحالة الاجتماعية هنالك جلاء واضحاً مبيناً ؛ ولكن هذا الأمر لا يكون إلا بعد الدراسة الطويلة ، والبحث العميق ، والمسيو جيروم طارو لم يلبث فى فاس — وهو بمفرده — إلا أياما قليلة لا تكفيه لدرس نفسية الفاسيين ولا للاطلاع على عاداتهم وأخلاقهم ، وهو بعد لا يعرف اللغة العربية التى يتكلمها أهل فاس ولا يتكلمون سواها ، فكيف أمكنه أن يخرج للناس باسمه وباسم أخيه (الذى لم ير فاساً فيما نعتقد) عن فاس هذا البحث الوافى ، والدرس المستفيض ؟ لقد كنت فى حيرة شديدة من هذا الأمر الذى لا يستطيعه كاتب مهما أوتى من العبقرية والنبوغ ، ثم عرفت أن رجلا عربياً مغربياً من الجزائر لبث فى فاس أكثر من عشرين سنة وأصهر إلى بيت كريم من بيوتات فاس فتزوج بفتاة من بنات النعيم هنالك ، وهو اليوم من تجار فاس المشهورين ، قد كتب عن فاس كتابا وصف فيه مشاهداته ، وما رأى فى فاس من أخلاق وعادات وصفاً مستوعباً دقيقاً تغلغل إلى دخائل تلك الحياة وأعماقها ... ثم أحجم عن نشره باسمه ، لأن فيه أموراً لا تسر أصهاره وإخوانه وأصدقاءه من الفاسيين ، ولما لقيه المسيو جيروم طارو فى فاس — وهو كاتب فرنسى كبير — تعرف إليه ، وأهدى إليه هذه المذكرات أو مسودات هذا الكتاب ليقتبس منها ما يشاء ، فتناول الأخوان (طارو) ذلك بشىء غير قليل من التحوير ، وكسواه من فصاحة الأسلوب وسحر البيان أجمل الحلل وأبدعها ، فاستحقا بذلك أن يكون هذا الكتاب لهما لا لغيرهما ، وقد قالت العرب الأولى : « إن من استرقه ، فقد استحقه » (١) :

(١) على أن لطارو فيما كتبه عن فاس هنات وهفوات لا تخلو من سوء نية .

حوار طريف:

وقعت بين المسيو جيروم طارو وبين « شيخ الجماعة » فى فاس محاورة طريفة لم يذكرها طارو فى كتابه عن فاس، وهو أحوج ما يكون إليها، وقد ذكر محاورات جرت له مع وزير العدلية وغيره فيما كتب عن الرباط؛ وهى محاورات حول « دوران الأرض » أنكر فيها معالى الوزير المغربى، أن تكون الأرض هى التى تدور، وأتى بحجج على ذلك هى غاية فى السخف والتفاهة مثل قوله: لو كانت الأرض هى التى تدور كما يقال لسقط كل من عليها من إنسان وحيوان ودور وقصور، ولهوى ذلك كله فى مكان سحيق، وقوله: لو كانت تدور لتهدمت المنازل والبيوت ولشعرنا نحن بذلك، وما إلى هذا من الحجج والبراهين ...

وهذه المحاورة التى جرت بين طارو وبين « شيخ الجماعة » فى فاس هى من هذا القبيل، ولو أن طارو فهمها على وجهها لطار بها فرحاً وسروراً، ولوجد فيها لقلمه موضوعاً خصيباً؛ ولكن الترجمان الذى كان بينهما لم يكن ينقل إلى الأديب الفرنسى أقوال شيخ الجماعة نقلا مطابقا بل كان يحرف الكلم عن مواضعه، وكان يرد على أسئلة طارو بأجوبة من عنده هو، ويهمل أجوبة الشيخ عمداً ولا يترجمها.

و « شيخ الجماعة » فى فاس هو شيخ جامع « القرويين »، وقد أراد طارو أن يجتمع به وأن يراه، فطلب إلى ترجمان موظف هنالك أن يجمعه بشيخ الجماعة فوعده هذا الترجمان خيراً؛ قال الترجمان (وهو الذى نروى عنه هذا الحديث): لا أكتمك أنى فكرت فى مكان الاجتماع فوجدت أن فى هذا الأمر صعوبة وعسراً، فهل أجمعهما فى فندق (الترازا — تلانتيك) الضخم حيث يقيم المسيو طارو؟ وهذا أمر مستحيل لا يكون بحال، لأن الشيخ رئيس «القرويين» يرى أنه إن دخل هذا الفندق أو فندقا آخر مثله أو أى مكان من هذا النوع، فكأنما عصى الله ربه! أم هل أجمعهما عند الشيخ الرئيس فى مكتبه الخصوصى؟ وهذا أيضا لا يمكن، لأن الرئيس ليس له مكتب بالمرة لا خصوصى ولا عمومى؟ قال الراوى: ثم اهتديت أخيراً إلى حل المشكل، وجمعتهما فى مكتبى أنا، قال: وحضر طارو أولا ثم جاء الشيخ الرئيس فقام الأول إجلالا له وللسلام عليه، وحسر قبعته من على رأسه، ومد يده يصافح الشيخ، فمد هذا بدوره إليه يده متثاقلا كارها مشمئزاً كأنه يخاف أن يأثم بمصافحة هذا « النصرانى »!

وقال طارو للشيخ: إننا وإن كنا مختلفين فى الجنس واللغة، فإن بينى وبينك غير ذلك رابطة أخرى هى أفضل الروابط وأمتنها، وهى رابطة العلم والأدب ... قال الراوى: فكره الشيخ الرئيس هذا الكلام وقطب فى وجه الزائر لأنه يعتقد أن من لا يقرأ « مختصر خليل » فى الفقه المالكى لا يكون عالماً ولا أديباً، أى أن العلم والأدب فى نظر « شيخ القرويين » هما « مختصر سيدى خليل » فقط لا غير، وسأله طارو عن سير التعليم فى « القرويين » وهل

يسير على وفق المناهج والأنظمة المتبعة الآن فى الأزهر الشريف؟ قال الراوى: وكان طارو قد زار مصر، وحظى بمقابلة صاحب الفضيلة شيخ الأزهر، وعرف حالة التعليم هنالك، فأجاب الشيخ الرئيس بأن التعليم فى « القرويين » على غاية مايرام يسير على أحدث المناهج، وأفضل الأساليب قال الراوى: والواقع أنه لانظام فى « القرويين » البتة، بل ولا يكاد يوجد فيه إلا تعليم عقيم لافائدة منه ولا خير فيه، والشيخ لايفهم ما هى المناهج ولا ما هى الأساليب لافى التعليم ولا فى غير التعليم؛ ولما قام « الشبان المسلمون » وجماعة الاصلاح الاسلامى فى مراكش يطالبون باصلاح التعليم وتنظيمه فى « القرويين » كان هذا الشيخ الرئيس أول من أفتى بكفرهم!... وسأله طارو عن أساتذة « القرويين » هل يحملون شهادات علمية من جامعات معترف بها؟ وهل يتقاضون مرتبات شهرية كافية؟ فأجابه الشيخ بأنهم يحملون شهادات علمية من نفس « القرويين »، وبأنهم يتقاضون مرتبات شهرية كافية لايطلبون فوقها مزيداً؛ قال الراوى: والحقيقة أنه ليس فى « القرويين » أى نوع من أنواع الامتحان بالمرة، وليس فيه أية شهادة علمية، لا ابتدائية ولا غير ابتدائية، ولاينقسم طلبته إلى طبقات وأقسام ولا إلى فرق وفصول، وإنما يقرأون غالباً « مختصر خليل »، يجتمع عليه الصغير المبتدىء والكبير المنتهى فى آن واحد؛ وأما المرتبات فان من هؤلاء الأساتذة المدرسين من يتقاضى شهرياً مرتباً مبلغه خمسون فرنكا فقط، وأوفرهم جراية من يتقاضى ما مبلغه مائتان من الفرنكات شهرياً؛ على أن هذه المبالغ لم يكن يتسلمها مستحقوها بانتظام، فربما تأخرت، وربما « هلكت » فى الطريق. ومضى طارو يسأل الشيخ الرئيس أن يوازن له بين « القرويين » وبين « الأزهر » وبين حالتى التعليم فيهما، فأجابه الشيخ بأن التعليم فى « القرويين » هو خير وأفضل من التعليم فى « الأزهر » فقال طارو: وما هو وجه هذه الأفضلية؟ فاحتد الشيخ الرئيس وكاد يتميز غضباً وغيظاً، وجمع يده اليمنى بقوة وجعل يدق بها كف يسراه، ويعزقها عزقا عنيفاً وهو يقول: « التدقيق، التدقيق، التدقيق » قال الراوى: ولا أكتمك أنى حرفت كلمة الشيخ هذه، ولم أترجمها لطارو، كما حرفت غيرها من أجوبة الشيخ وأقواله لما رأيت فيها من عدم اللياقة.

وهنا لابد أن نذكر أن هذه المحاورة قد وقعت منذ أعوام؛ وأما اليوم فقد صدر ظهير سلطانى (مرسوم ملوكى) بتنظيم التعليم فى «القرويين»، وبجعله على ثلاث درجات، وبتصنيف المدرسين والمعلمين إلى ثلاثة أصناف؛ يتقاضى المدرس من الصنف الأول مرتباً شهرياً مبلغه ألف وخمسمائة فرنك، ويتقاضى المدرس من الرتبة الثانية ألفاً ومائتين من الفرنكات، ويتقاضى الثالث ألف فرنك. وتشرفت فى هذه الأيام بمقابلة صاحب المعالى وزير معارف المغرب الأقصى، وسألت معاليه عن هذا « الظهير » هل نفذ فعلا؟ وما هى النتائج التى تنتظر منه؟ فقال: «إن المراد من هذا الظهير هو تحسين مرتبات الشيوخ المدرسين فى كلية القرويين، وهذا

هو أهم ماحصل لحد الآن ، وما سيحصل من سريان العمل بهذا الظهير... » ، وهذه غاية شريفة جداً ؛ لأنه ليس من الحق أن يكون رجال الشرطة وصغار الموظفين بالايالة الشريفة يتقاضون مرتبات وافرة ضخمة ، ثم لايتقاضى علماء القرويين إلا مرتبات تافهة ضئيلة لاتسمن ولا تغنى من جوع ، وهذا ماجعل الناس فى المغرب الأقصى يقبلون على المدارس الفرنسية إقبالا كثيراً ، وجعل بعضهم يعتقدون أو يزعمون أنه لافائدة فى العربية ولا فى تعلمها.

« مختصر خليل » : وهذا الكتاب فى الفقه المالكى له قيمة عظيمة عند الناس فى بلاد المغرب كلها ، وربما قدسته العامة تقديساً ، وجعلته بمنزلة القرآن الكريم ؛ و « العالم » أو « الأديب » الذى لايبرز فى استظهار « مختصر خليل » وفى حفظه ، لا يكون له عند العامة وأشباه العامة من طلبة الجزائر ومراكش أدنى قيمة ولا اعتبار ؛ وقد يبلغ الرجل رتبة عالية فى العلم والأدب ويعترف هؤلاء الناس بفضله وعلمه ، وتكون له شهرة واسعة يتمتع بها بين مختلف طبقات الناس ، ومع ذلك فاذا تمكن أحد خصومه من أن يرميه بأنه « لايحب مختصر خليل » أو بأنه « لايهتم بهذا المختصر » كان ذلك وحده كافيا لاسقاطه من قمة الشهرة والمجد إلى الحضيض الأسفل من المقت والاحتقار ؛ ولهذا « المختصر » أنصار ومريدون فى الجزائر وتونس ومراكش يسمون أنفسهم « خليليين ».

وقد بلغ من عناية الناس بهذا المختصر أنهم جعلوا له فى جامع « القرويين » « حزابة » كما للقرآن « حزابة » ؛ و « الحزابة » هى جماعة من حفظة القرآن الكريم أو من حفظة « مختصر سيدى خليل » يجتمعون كل يوم فى وقت معين ، ويتلون معاً (حزباً) أو (حزبين) (جزء) من القرآن أو من (مختصر خليل) عبادة وتبركا ، ثم يهدون ثواب ذلك إلى أرواح أهل الخير الذين وقفوا أوقافا خيرية ينفق ريعها على هؤلاء (الحزابة).

ومن العجيب أن (حزابة مختصر خليل) فى (القرويين) يتناولون مرتبات شهرية هى أوفر وأسنى من مرتبات الكثيرين من (حزابة) القرآن الكريم !؟

وهران (الجزائر) محمد السعيد الزاهرى

الى حضرات المشتركين

ترجو الادارة حضرات المشتركين الذين لم يسددوا قيمة اشتراكاتهم أن يبادروا بارسالها رأساً إلى إدارة المجلة ولهم الشكر ؟

٤ — الكتاب والأدباء المعاصرون

أنطون الجميـــــــــــل

أو العاطفة الفنية فى صناعة الأدب

بقلم الـكاتب اللبق: الأستاذ احمد عبدالحليم العسكرى

إذا كان أدباء الغرب المعاصرون قد عنوا كثيراً بدراسة الأدب دراسة تحليلية مهذبة منظمة ، فأنى أعتقد أنهم أفادوا كثيراً بهذا النوع من الدراسة، وانتهوا فى إفادتهم إلى إفادة الناس وتثقيف ملكة الاحساس عندهم بما وضعوه من المبادىء والقواعد البيولوجية التى تصور لنا نفس الانسان وعقله وعواطفه فى مختلف الأطوار والصور والأزياء .

أريد أن أقول: إن أدباء الغرب وباحثيهم وفلاسفتهم قد استطاعوا أن يستنبطوا من الأدب العام الذى ندرسه فى المدرسة وفى الكتاب أدباً خاصاً أطلقوا عليه اسم « علم النفس » وجعلوه كالمرآة المزجاة المجلوة تترآى فيها نفس الجماعة الهدامة البناءة، المتحمسة الطائشة، الهادئة الرزينة؛ ونفس الفرد المنعزلة المتواضعة، الخاضعة المستكبرة، العاتية الظالمة، الجموحة الطموحة إلى معانى الشر وألوان الايذاء .

وأنت تستطيع بهذا العلم الجديد الوليد أن تميز بين الأجناس والطبائع، وأن تقرأ الأمم المختلفة المتباينة فى أخلاقها وطبائعها ؛ ولئن كانت اللغة العربية قد خلت من هذا النوع من الآداب ، فما ذلك إلا لأن أدباءنا قد انصرفوا فى دراساتهم وبحوثهم إلى المنفعة الذاتية دون سواها، أو أن المنفعة الذاتية قد ارتفعت أثمانها فى هذا العصر الذى ارتفعت فيه الأثمان وبخست البضائع ، فكانوا لها عبيداً نعم العبيد، وانطلقوا ينشدون مرضاتها ولو كانت فى انهدار الأدب وانحطاط معانيه ، وإدخال اللهجات التى لا تنم إلا على الزراية والتحقير .

أو فما ذلك إلا لأن الأدب قد تواضع فى هذا العصر حتى احترفه كثير من الغوغاء فوجهوه إلى غير قصده ، وذهبوا يقلبون سطوره وآياته عساهم يجدون بينها من « القروش » ما يتبلغون به ، وما يشد أزرهم فى مواطن الضراعة والدعاء والابتهال، غير ناظرين إلى ما ينشأ عن ذلك من الآثار والنتائج ، ولو كانت تلك الآثار والنتائج فى إراقة ماء الحياة وفى قتل العاطفة الخلقية وتشييع الفضيلة إلى مقرها الأخير !!!

والآن أشكرك ياصديقي ياصاحب « المعرفة » لأنك أتحت لى نوعاً من الدراسة التحليلية كنت أصبو إليه منذ زمان ؛ منذ ذلك اليوم الذى جلست فيه أنا بين طلاب الأزهر أستمع وأصغى فى تلهف وشغف إلى مايلقيه الشيخ علينا من المبادىء المنطقية والقواعد الفقهية الدينية، والأحكام التى خلص من بحثها أساتذتنا القدماء ، ولما تسلم هى بعد من الآفات والعلل ؛ وإنى لأعتذر لك عن مديحك والثناء عليك والاطناب بجهودك العظيم الذى تبذله فى سبيل صناعة الأدب ؛ تلك الصناعة الجميلة اللذيذة التى قلت لك إنها قد تواضعت فى هذا العصر حتى احترفها بعض الغوغاء والسوقة فنزلوا بها إلى غير منزلها ، وتدلوا بمعانيها الى غير ما خصصت له ؛ فأشفقت عليها أنت من هذا العرض المبتذل، وصرفت جهودك لترفعها ثم لتجلوها من ذلك الصدأ الذى كساها من جراء ذلك الاحتراف الوضيع .

ولـكننى أعود اليك فأوآخذك لأنك فرضت على نوعاً معيناً من الدراسة التحليلية، وجئتنى بشخصية كنت أود أن لا أتـكلم عنها لـكيلا أتهم بالتحيز والمحاباة ؛ فأن قبلت هذه المؤاخذة البريئة فاقبل معها تحيتى الصادقة على هذا الشعور الـكريم الذى جعلك تود منذ زمان دراسة أنطون الجميل ، وتحب أن تجعل منه مادة أدبية للدراسة التحليلية المهذبة المنظمة ؛ وإن مثلك فى هذا الشعور كمثل البستانى ينظم الحديقة، ويتعهد أزهارها وورودها لـكى ينتفع ويتمتع بها جميع الناس ، حتى أعداؤه وخصومه الألداء ؛ وأرجو أن يكون هذا المثل الذى أضربه لك غير قاصر عن الأداء ، إذ أنى أعتقد أن دراسة «أنطون» من الأشياء الثمينة التى تتمتع بها أنت قبل غيرك من الناس، وأتمتع بها أنا قبلك،ويتمتع بها الناس من بعدنا ؛ وقد تنتقل هذه المتعة الأدبية إلى أبنائنا وأحفادنا،فيحمدوا لنا هذا الصنيع وتلك اليد البيضاء .

كنت فى حياتى الدراسية الأزهرية أقرأ مجلة « الزهور » ويقرأها معى إخوانى الطلاب، وكنا نتسابق فى قراءتها لأنها تفيدنا كثيراً فى دروس: الانشاء ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة، والعروض ؛ وكان الشيخ الذى يدرس لنا تلك الدروس ألـكن العبارة، مبهم التعبير، قاصر الباع، لا يدرك أسرار اللغة وبواطن الأدب العربى كما يجب أن تدرك ؛ وكان يقال لنا: إنه فقيه وإنه عالم وإنه أديب من طراز صاحب الصناعتين والأغانى والأمالى ومن إليهم من فحول الأدب العربى ؛ ويقال لنا كذلك إنه مؤرخ عظيم يجيد التأريخ فى الآثار الاسلامية وفى «الخطط» التى اختطها الملوك والأمراء والغزاة المسلمون الذين تعاقبوا على حكم مصر الاسلامية، ووصفها المقريزى وابن إياس، وعبد اللطيف البغدادى، ومن إليهم من فطاحل مؤرخى الخطط والآثار ، وكان الطلاب جميعاً يصدقون مثل هذه الأقوال ويعتقدون أن سكوت الشيخ فى مواقف الاحراج بمثابة الوقار للعلماء ؛ وكنت أنا أشذ عن إجماع الطلاب وأعتقد أن الشيخ ، عفا الله عنه ، لا يعرف من الآداب العربية إلا بعض النظريات العامة التى يتساوى فى معرفتها الطالب

والمدرس، ويلم بها كل الألمام جمهور المتأدبين والمتعالمين؛ وكان الشيخ يحس منى هذا الشعور فيحنق على، ويدأب على التفنن فى الايذاء والأضرار بى، الى أن كانت مناقشة حادة بينى وبينه، قال الشيخ فى خلالها: إنك عاق وإنك غير مؤدب؛ وإنك كذا وكذا الخ؛ ومد يده فأخذ منى عدداً من مجلة «الزهور» كنت أقرأ فيه؛ وتصفحه ثم أعاده وطلب الى أن أقرأ علناً أمام الطلاب هذين البيتين:

إن الكريم اذا نالته مخمصة أبدى إلى الناس رياً وهو ظمآن
يطوى الضلوع على مثل اللظى حرقاً والوجه طلق بماء البشر ريان

فلما قرأتهما فى إبانة ووضوح طلب إلى أن أعربهما، وأن أصرف ألفاظهما فى مجال الاعراب، فصدعت بأمره وأجبت طلبه، ولما انتهيت أخذ المجلة ثانية وتصفحها ثم أعادها إلى وقال: إقرأ هذا؛ وأشار إلى مقالة مسهبة جاء فيها أن محمد بن واسع قال لقتيبة بن مسلم «إنى أتيتك فى حاجة رفعتها الى الله قبلك، فأن يأذن الله فيها قضيتها وحمدناك، وإن لم يأذن الله فيها لم تقضها وعذرناك»؛ فلما سمع الشيخ هذا الكلام العربى الجزل قال أعدنيه، فأعدته مرة واثنتين وثلاثاً، الى أن ابتسم الشيخ فى وجهى وقال صفحت عنك؛ وطلب منى أن أعيره ذلك الجزء من مجلة «الزهور» فأعرته إياه، ولما انتهى من قراءته أرسل إلى أنطون الجميل يقول له: عدنى مشتركا فى مجلتك، وكان كلما وصل إليه عدد أحضره بين يديه وأخذ يدرس لنا فيه الأدب العربى فى مختلف أطواره وعصوره حتى اشتهر عنا هذا وأذيع، فوصفنا بعضهم بأننا طلاب فى الأزهر اسماً وجسماً، وفى مجلة «الزهور» روحاً وعقلا وعاطفة.

***

أصبح معروفاً عنا نحن طلاب الفصل الرابع من السنة الخامسة الابتدائية، أننا نطلب العلم والأدب فى مجله «الزهور» التى كان يصدرها أنطون الجميل، وأصبح الشيخ الذى يدرس لنا الأدب من مشتركيها وقرائها؛ وكنا جميعاً نقرأ ما يكتب فيها من القصص الأدبية الرائعة والفصول الاجتماعية السلسة الخصبة بشغف وإمعان؛ وكنا جميعاً نستلذ من قراءتها فنستظهرها، ونتفهم معانيها ونتقصى أحكامها وعظاتها فى كثير من اللهف والحنان؛ فلما كان آخر السنة وتقدمت إلى الامتحان الشفهى، سألنى أحد الأساتذة أن أقرأ له شيئا من «المحفوظات» فى الشعر أو فى النثر، على أن أذكر المصدر الذى استقيته منه، فعدت إلى ذاكرتى أستحثها وأستجمها وأستعديها على هؤلاء الأشياخ الذين كنت أتمرد عليهم فى كثير من المواضع، كما تعرف أنت، وأخذت أقلب فى رأسى ما قد قرأته إلى أن تذكرت قصيدة للشريف الرضى كنت درستها فى مجلة «الزهور» جاء فيها:

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه أبى بعد طول الغمز أن يتقوما

تقبلت منه ظاهراً متبلجا ... وأدمج دونى باطنا متجهما
فأبدى كروض الحزن رقت فروعه ... وأضمر كالليل الخدارى مظلما
ولو أننى كشفته عن ضميره ... أقمت على مابيننا اليوم مأتما
كعضو رمت فيه الليالى بقادح ... ومن حمل العضو الأليم تألما
إذا أمر الطب اللبيب بقطعه ... أقول عسى ضنا به ولعلما
صبرت على إيلامه خوف نقصه ... ومن لام من لايرعوى كان ألوما
هى الكف مض تركها بعد دائها ... وإن قطعت شانت ذراعا ومعصما
دع المرء مطويا على ماذممته ... ولاتنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته ... على مضض لم تبق لحما ولا دما
ومن لم يوطن للصغير من الأذى ... تعرض أن يلقى أجل وأعظما

وبعد أن قرأت هذه الابيات سألنى رئيس اللجنة عن المصدر الذى استقيتها منه، فقلت: إنه ياسيدى الاستاذ مجلة « الزهور »، فأجابنى: مجلة الزهور ! ! ! فيم تصدر ؟؟!! ومن ذلك الذى يصدرها ؟ ! فقلت إنها تصدر فى القاهرة لصاحبها ورئيس تحريرها أنطون الجميل ؛ وهنا بدرت منه بادرة أعتقد أن شيوخ الازهر يستنكرونها الآن أو يعتقدون على الأقل أنها تتضمن الخطأ الصراح ، تلك قوله : لا أظن هذا صحيحا ، إذ لست أعتقد أن مسيحيا كائنا من كان قد تعمق فى الأدب العربى حتى انتهى إلى مثل هذا الاختيار الظريف ، العذب الخصب !!!

ولكنه ياسيدى الأستاذ مسيحى دينا عربى أدبا ؛ وقد انتهى فى دراسة الأدب العربى، إلى تعرف خططه وآثاره، وضعته وفخامته ، وبهائه ورواءه ؛ وقد انتهى من هذا كله الى أن نصب عقله ميزانا ووضع فى كفتيه صحيح الأدب وزائفه ؛ والى أن قال لنا فى مجلته: خذوا هذا الموضوع فادرسوه على شعاع تلك الحكمة التى يرمى اليها ، وخذوا هذا الشعر فاقرأوه وأمعنوا النظر فيه ، ثم صوروا لى العصر الذى قيل فيه ، وخذوا هذا المقال فابحثوه ومحصوه ، واستنبطوا من بين سطوره وألفاظه كل الغايات التى يرمى اليها ؛ وليس حسبنا أن تفعلوا ذلك فحسب، بل قارنوا غايات الأدب العربى ووسائله فى القرن الثالث للهجرة أو الرابع مثلا، وبين غاياته فى هذا القرن الذى نعيش فيه، وانظروا الى نفسية الشعراء والكتاب والأدباء والفلاسفة فى تلك العصور الخوالى، ثم انظروا الى شعرائنا وكتابنا وأدبائنا وفلاسفتنا فى هذا العصر ، واقتدوا بهم فيما هو حسن وجميل ، واعذروهم فيما بدر منهم من النقص أو العقم .

وليس الأدب عندى هو أن تقرأ كتب الأدب وتستظهرها عن ظهر قلب، وأن تعرف تاريخ المؤلفات الادبية العربية، وتاريخ مؤلفيها وأشهر الحوادث التى حدثت لهم فى حياتهم ؛ وليس الأدب عندى كذلك أن تفهم تاريخ قيام الدولة الكلدانية أو الأشورية، وأن تبحث فى حروف اللغة

العربية المعروفة عندنا بحروف الهجاء، أهى ياترى كلدانية أخذها العرب عن الكلدانيين دون تبديل أو تغيير؟ أم أن العرب هم الذين أنشأوها واصطلحوا على وضعها بهذه الكيفية التى نراها؟ وهل هذه الحروف قاصرة عن الأداء والتعبير أم أنها سلمت من كل آفة وأضحت من الكمال بحيث تطأطىء لها الرؤوس وتحنى لها الرقاب والهامات ؟ أو أن تبحث فى تاريخ السيادة القومية فى الاسلام والمسيحية أو البوذية أو الوثنية أو اليهودية، أو فى غيرها من الديانات والملل ؟ وأن تقرأ أشهر الحوادث التى وقعت للأنبياء والرسل والقديسين إبان تبليغهم الرسالات التى نيطت بهم، وهل يا ترى تلك الرسائل موضوعة أم موحى بها ؟ وهل جاءت إلينا كما أوحى بها من غير تحوير أو تبديل أم قد زيد عليها أشياء لانزال نجهلها الى اليوم ؟ أو أن تعجب من الدولة الفاطمية لم أكثرت من بناء المساجد وإقامة المعابد والتكايا فى مصر ؟ وهل كان الحكم السياسى عند الدول الاسلامية غير مرهوب الجانب إلا إذا اصطبغ بالصبغة الدينية ؟ أم أن تلك الدول كانت تجهل السياسة وكان الدين عندها هو كل شىء ؟؟

أقول ليس الأدب عندى مثل هذه الأشياء فحسب، بل إنه هذه الاشياء كلها مجتمعة بشرط أن تلبسها نفس الأديب، وأن تتفانى تلك النفس وتحتجب عن الجماعة فى صورتها المادية، على أن تغذيها وتمتزج بها فى صورتها المعنوية، أى أن نفس الأديب هى التى تهدى الجماعة وتؤمها وتضىء لها طريق المستقبل الشائك الوعر من غير أن ترى الجماعة ذلك الذى يمسك لها المصباح .

وهكذا «أنطون الجميل»، تراه يغذيك فى كل يوم بغذاء جديد، ويضىء لك الطريق الذى تسلكه من غير أن تراه، وهكذا ظللت أعرف أنطون وأتغذى بأدبه وعلمه وبيانه زهاء العشرة أعوام من غير أن أراه، فلما رأيته وجلست بجانبه شعرت أنه أديب بالفطرة وبالسليقة .

وتلك هى العاطفة الفنية فى صناعة الأدب، بل هى العاطفة التى تلبس كل عاطفة، وتغذيها وتضىء إليها الطريق من غير أن تعلن عن نفسها، ومن غير أن تقيم حولها لوناً من ألوان الجلبة والضوضاء، وذلك هو الأدب كما يجب أن يكون، أو بعبارة أوضح:

هذا هو «أنطون الجميل» كما يجب أن نفهم، أنطون قبل أن أعرفه أو أتصل به ؛ فأما الحديث عنه بعد ذلك : بعد دراسته وبعد تحليله أديبا وفنيا، فذلك أمر يطول شرحه نرجئه إلى مقال تال إن سمحت «

أحمد عبد الحليم العسكرى

تحـــــــذير

يحذر صاحب « المعرفة » حضرات الكتاب والأدباء، وأصدقاء « المعرفة » ومشتركيها جميعاً وأصحاب المسارح وغيرها، من اعتماد أى شخص يتقدم إلى حضراتهم بدعوى تمثيلنا أو الاتصال بنا أو العمل معنا، مالم يحمل كتابا يوضح صفته، وموقعا عليه من صاحب المجلة ومحررها.

قصة مصرية

الاعـــــتراف

بقلم الاستاذ محمد السيد

عزيزتى سميرة !

لست أعرف والله ياعزيزتى كيف أكتب إليك وأنا أنوء بأعباء ثقيلة من الوجد والألم ؛ فأنا الآن تحت تأثير ذكريات ناهكة ؛ نعم إنها ذكريات مؤلمة ومحببة إلى نفسى التعسة بقدر مافيها من سخرية ولذعات ، ولكن يخففهاعنى ما يخيل إلى من أنا فى هذه الدنيا مسوقون - تحت ضغط قوى مجهولة - إلى مقارفة أشياء قد تكون محببة إلى نفوسنا وهى مليئة بالنذالة والجبانة ...

وأريد أن أعترف لك أن الانسان مهما أوتى من فطنة وذكاء لا يستطيع مطلقاً أن يدفع عن نفسه الأقدار ... الأقدار الموفقة أو الأقدار القاسية على السواء ، ثم ألسنا فى النهاية مسوقين إلى ماهو مقدر لنا وسنلاقيه كما هو فى سجل الأزل ؟

والمرء يسعى لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل

ولكن ، ألا يوجد ما يخفف آلام العذاب ، أو ما يلين من حدة الألم وقسوة وخز الضمير وتبكيت النفس ؟

قد يكون الاعتراف مخففاً ، نعم قد يكون فى الاقرار بالذنب نوع من طلب الغفران ... ثم أليس فى طلب الغفران استجابة للنفس ، وإراحة للضمير المعذب بتخفيف الويلات والمصائب ؟

نفسى تحدثنى بهذا ، وهى تكرهنى على أن أبوح لك بسرى ، وأطلب إليك أن تغفرى لى هذه الزلة ؛ كأنك أنت من أجرمت فى حقه ، وكأنك أنت صاحبة الحق فى المغفرة دون سواك !

ولكن ألم تبوحى لى بسرك ... وتظهرينى على خبيئة نفسك حين كنا جارتين فى ضاحية (واحات عين شمس) وكان ذلك الجار الأعزب يشاغبك دائماً ؟

لقد قلت لى أكثر من هذا ، وكيف أن يد الهوى قد لعبت بك فنزلت إلى الميدان ... ولكن الفارق بيننا أنك كنت عاقلة موفقة ، صهرتك التجربة ، ثم خرجت منها سليمة نقية كقطعة الذهب لا تزيدها النار إلا صفاء ونقاء ... أما أنا المسكينة فقد انعكست معى الآية ، وحاربتنى الأقدار .

تذكرين قريب زوجى ! ذلك الرجل الطويل الأسمر الذى كان يزورنا كثيراً ... وتعرفين أنه كان تاجراً واسع الثراء ، وكان ذاك الرجل قد بنى لنفسه منزلا أنيقاً (فيلا) بالضاحية ، وكان زوجى قد ضمنه لدى بعض البيوتات المالية ... ومن سوء الحظ أن الظروف عاكست ذلك الرجل فأفلس ، وقد خسر زوجى بسببه مالا كثيراً ، ثم اشترى من وكيل الدائنين منزله ، وأقمنا به ، وأعتقد أنى لست فى حاجة لأن أعرفك من هو زوجى ؟ فأنت تعرفينه ... سليم القلب مفتونا

يحب أهله ؛ ولا أطيل ، فقد شاءت طيبته أن ينشىء لقريبه ذاك مسكنا فى زاوية الحديقة الشمالية الغربية ، أقام فيه الرجل هو وأهله .

***

وكان لذلك القريب ولد نجيب يطلب العلم فى المدرسة الثانوية ... قعدت به ظروف أبيه الطارئة عن إكمال دراسته ... ولست فى حاجة لأن أصف لك من هو ؟ فلقد رأيته فى مخدعى فى إحدى زياراتك لى ، نعم هو ذلك الفتى الأسمر ذو العينين المتوقدتين ذاتا الأهداب الطويلة والنظرات الساحرة ... حقاً لقد فتننى بنظراته وإلحاحه .

ولقد كنت قدمت له يداً ؛ ذلك أنى رجوت زوجى فى أن يتولى إتمام تعليمه ، فحفظ لى هذا الجميل ، وعرف لى تلك اليد ...

وقد تكون قصة مسلية أو مضحكة أو مبكية ، أن يهوى طفل امرأة ... ولكن المؤلم حقاً أن تجاريه تلك المرأة فى الغواية والضلال .

ولقد كانت فتنة بل وسخرية يا سميرة ! فانا كنا نستضيف ذلك الولد فى أحيان كثيرة إشفاقا عليه ورحمة به ... إذ ما كان يتهيأ له مطالعة دروسه فى بيت أهله فى هدوء ، وكنت أرى من صالح أولادى أن يطالع دروسه معهم فى منزلنا حتى يشجعهم ويغريهم بالاجتهاد ؛ فلقد كان مجتهداً موفقاً للغاية ، فأفسحت له من صدرى أو من صدر منزلى ، وشجعنى زوجى على هذا وأعاننى عليه .

وفى بعض الأحيان كنت ألحظه وهو يرمقنى بعين حائرة فى نظرات متقدة جامحة فيها من معانى الفتنة والغواية الشىء الكثير ، وما كنت أعبأ بهذا ، فلعله يرانى مشفقة عليه فينظر إلى شاكراً متألماً ، لكن تلك النظرات تكررت ثم تمادت فى التكرار ، وفى بعض الأحيان كان يصوب إلى عينيه الناعستين ولا يخشانى .

وأخيراً فلأعترف : لقد هزمتنى نظرات ذلك الولد ، وألهمتنى معانى كثيرة ما كنت أعرفها من قبل ، حتى لقد كنت بعد هذا أحس كأن نظراته إلى ، شىء أحبه ، أو على الأقل أرتاح إليه ، وانه حين لا يرمقنى بحدقتيه الحلوتين أشعر كأننى لست منشرحة ولا مغتبطة بالحياة .

أواه يا ربى ! لقد أسرتنى عيونه ، فهى سر سعادتى وسر شقائى ؛ فأنا لم أعرف هذا الذى يدعونه الحب « الحب الأثيم » إلا فى تلك العيون ، وفى سحرها الجذاب .

أحببت ذلك الطفل ، ولقد كانت كبيرة على أن أحبه ؛ ولن أنسى خجلى منك وإشفاقى على نفسى حين لحظت على ذلك ، وحين ألقيت إلى أنه يريد منى شيئاً .

ولقد كانت زيارات منعشة ومحببة إلى ، تلك التى كان يمنحنى إياها فى غرفتى أو فى الشرفة حينما كنا نلعب (الورق) أو نتخذ أية سلوى أخرى ... وما كانت لى حاجة بلعب الورق غير

أن يجلس أمامى طوال الوقت يتملى بنظراته وابتساماته؛ فأنا أجد كثيراً من اللذة فى أن تكون نتيجة اللعب أنى مغلوبة وأنه الفائز .

لم يكن زوجى يعرف عن هذا شيئاً؛ فهو لا يظن فى الخيانة ، لأن الزمن الذى عشناه معاً كان كفيلا بأن يبقى من جهتى مطمئنا راضيا عنى، ناعما بى وبأولادى.

ولست أحيف الحق ولا أزكى الباطل، إذا قلت لك الآن: إن إغفال زوجى لأمرى ـ فانه ما كان يمنحنى العناية الواجبة بمراقبتى ـ شجعنى على أن ألقى بنفسى إلى الرذيلة، وأن أقع فى حمأة الجنون ... ثم من تلك التى تستطيع أن تزعم لنفسها العصمة فتدعى أنها هبطت من السماء ، أو أنها ليست إحدى بنات حواء ...؟

* * *

ولقد شاءت العواطف الجامحة ونزوات الهوى الشريرة أن يرتفع التكليف من بيننا، وأن نقارف أموراً ما كان أحرانا بالبعد عنها ؛ فما كنت أتحرج عن أن تمتد يدى اليه بلطمة أو لكمة حينما كنا نتلاعب، فأغراه هذا على أن يبادلنى أعمالى سواء بسواء.

* * *

وفى إحدى تلك الأمسيات التى كان يذهب فيها زوجى وأولادى للرياضة ـ وكنت أتخلف فى المنزل ... لكى أقابل صديقى وأنعم به ... ففى الحق أنى كنت قد سئمت التنزه والترييض ؛ وسئمت كل شىء لا يكون معى فيه ـ رحنا نلعب أنا وهو، وكم بدا لى اللعب فى تلك الليلة حاراً ممتعا، فكنت أجره من لعبة إلى أخرى، وكم جرينا وكم لعبنا وكم تصادمت أجسامنا بقصد وبغير قصد ... ولكن كلما التقى جسمانا كنت أحس الحياة وأحس لذاذة ومتعة حلوة، بل وإسرافا فى متعة محببة؛ وكنت تحت تأثير هذا الشعور أستزيد صاحبى من اللعب والمرح، وكان هو يبارينى فى النشاط... أوه !! لست أعرف لعبنا ساعة أو اثنتين؟ وربما ثلاثا ، ونحن لم نمل ولم نتألم ، بل ولم يبد أحدنا رغبة فى طلب المهادنة ... وأخيراً، وأخيراً جداً ـ وقد احتوانى الاجهاد وأضنانى الاعياء ـ اصطدمت قدمى بالأرض فوقعت على المتكأ ، وكان هو يجرى خلفى فوقع فوقى ... أية حماقة وأى جنون ياسميرة أحدثك عنه : لقد غبت عن الوجود لحظة ثم قمت أبكى، وراح هو الآخر يبكى، وجلسنا فى الشرفة صامتين كأنما قد أصبنا بمكروه .

كم أنبنى ضميرى، وكم احتملت من آلام تلك الصدمة!. نعم! كم عانيت! وكم أذرفت دموعا! وكم قتلنى وخز الضمير حتى صممت على أن أقطع بصاحبى كل صلة .

لكن حينما كان يأتى إلى منزلنا كنت أرانى ـ من غير وعى ولاشعور ـ قد هيأت له الفرصة ... فكم كنت مجرمة ... وما كنت أحسب قبل هذا أن مقارفة الرذيلة والادمان على مقارفتها يميتان القلب، حتى ليكون شيئا عاديا أن يقارف الانسان أية حماقة تكررت . ثم لقد أتم دراسة

الحقوق، وجعله زوجى سكرتيراً له؛ ثم تعين بعد هذا وكيلا للنائب العام وسافر للأقاليم وعلاقاتنا كما هى ... وكنا نتقابل فى المنزل وخارج المنزل ... وكم شكا لى ألم الفراق ... كنت أكتب له ويكتب لى، وتبادلنا رسائل الحب وكتب الغرام، وكنت أحسب أن الزمان قد صفا لى وأنى جد سعيدة ومغتبطة؛ فهأنا امرأة متزوجة يحبنى زوجى ويحب أولادى، وأنا أحب زوجى وأحب صديقى، وأنعم بالاثنين، وكل له فى قلبى مكان؛ فأية سعادة؟ وأية غبطة؟ لقد كنت حين أفكر فى هذا أغبط نفسى ثم أخشى المستقبل؛ وكان زوجى رجلا محبا للحياة ملحا فى هذا كل الالحاح، وكان سعيداً بى طوال تلك السنين، وأنا به جد مغتبطة، فهو لا يرهقنى بتكليف، بل ولا يطلب إلى أن أكون إلا كما أريد؛ وهاهو صديقى يحرق نفسه بخوراً كلما رآنى، وحين لا أبدو أمامه مرحة طروبا كان يألم وتضيق به الأرض على رحبها وسعتها؛ فلماذا لا أسعد؟ ولماذا لا أحلم؟ ثم لماذا أخشى المستقبل؟

لزوجى أيامه، ولحبيبى أويقاته المعسولة الحلوة، وهى دائماً فى مخيلتى وفى قلبى.

وكان من حسن الطالع أن أحداً منهما لا يفكر فى صاحبه، وأنا بين الاثنين لعوب طروب، أمنحهما السعادة، وأجنى من كليهما ثمار الحب وجنى البهجة والسرور.

وكنت أخشى أن يقع زوجى برسائل صديقى التى أقدسها، فهى لدى نعم السلوى عند الغياب ... فاذا خرجت لبعض شأنى، وضعت «حزمة الرسائل» الملفوفة فى مخمل أحمر والمحزومة بخيط من الحرير الأخضر جانباً فى حقيبة يدى ... فما كنت أخاف على شىء فى الدنيا غيرها.

وفى بعض الأيام ذهبت إلى المدينة واشتريت بعض لوازمى، ومنها خطابات كنت أوصيت عليها من أوربا كى أبعث بها إلى صديقى رسائل غرام ... ولما وصلت إلى (ميدان العتبة) افتقدت حقيبتى فلم أجدها، وكنت قد تأبطتها منذ زمن وجيز.

وأنت تعرفين ماشملنى من قلق وخوف على مافى الحقيبة؛ فعدت دهشة مرتاعة أذرع (الموسكى) كالمجنونة ولا مجيب، ولا من مغيث؛ ولما يئست من العثور على الحقيبة لم تكن لى ندحة عن الرواح ففعلت، ولكن كان اليأس والقنوط باديين على وجهى؛ وفى المساء علم زوجى بالحادث من الخادمة ... فأبت عليه مروءته إلا أن يرفه عنى، ويطيب خاطرى، ثم طلب إلى نسيان هذا الحادث التافه الذى يقع فى كل يوم لكثير من الناس.

ولقد مر ذلك اليوم، وكأنى قد نسيت ما كان؛ فان القلق الذى ساورنى كان منشؤه الخوف على الرسائل؛ وقد هدتنى فكرتى إلى أن الحقيبة قد وصلت يد السارق، وهو ما شأنه بالغرام، ورسائل الغرام؟ إنها لا تهمه، فسيحرقها أو سيمزقها، وعلى أسوأ الفروض فسيلقيها فى ذلك الوكر الذى يعيش فيه، فتلتهمها الأرضة والعناكب.

وفى أحد الأيام حضر زوجى فى الظهيرة كعادته، ولكن وجهه كان أصفر مغبراً كأنه

قادم من سفر طويل ، وكانت عيناه تقدحان بالشرر، ونواجذه بادية، وكان يحمل بنفسه «حافظة» القضايا على خلاف عادته، فقد كان يحضرها له أحد موظفيه .

سألته فى إشفاق وخوف: ماوراءك ياحبيبى ؟ فأشاح عنى بوجهه المصفر، وتركنى ومضى لغرفة مكتبه ، فلم أشك حينذاك فى أنه قد خسر بعض قضاياه الهامة، وهو من أجل هذا محزون؛ وكان من طبيعته أن يحزن إذا خسر بعض قضاياه كأنه هوصاحبها ، وليس محامياً صناعته إبداء الدفاع وتقديم الأدلة والبراهين، وبعدذلك فللقاضى الحرية فى أن يحكم لمن يريد. ..

ماشككت لحظة فى أن غضبه من أجل هذا ، فدخلت عليه متوسلة مستعطفة أن كف ياحبيبى عن هذه العادة السيئة وارحم نفسك ، وماذا يضيرك وقد أديت واجبك فأخطأ القاضى التقدير ؟

لم يجب بل فتح «الحافظة» بحذر وغضب، وأخرج منها خطابا ناولنيه فقرأت:

حضرة صاحب العزة الأستاذ ... المحامى: ميدان ...

رداً على كتاب عزتكم الرقيم ٨ الجارى نرسل مع هذا حقيبة يد تعلق السيدة حرمكم ، وكان قد عثر عليها بعض الأشخاص فى (السكة الجديدة) ومعها مايأتى:—

عدد	صنف	بيـــان
١	منديل حرير رجالى كبير كتب عليه بالأفرنجى حرفا F.I	
١	حزمة ملفوفة من الرسـائل بعنوان السيدة شوقات (يحفظ بشباك البوستة)	
٥	جنيهات ورق بنك نوت وعشرون مليما.	

وقد حجزنا من المبلغ قيمة العشر وتسلم لمن عثر بالحقيبة كالاصول.

وتقبلوا تحيات ... مأمور قسم الموسكى — ١٧ مارس سنة ١٩٢١

***

لقد كانت النظرة الأولى إلى ذلك الكتاب اللعين قد ذهبت بى إلى الجحيم، ولقد بقيت لحظات واجمة جامدة ، فماذا حدث؟ وماذا كان ؟ ثم ثقلت قدماى وتضعضعت قواى، وهويت إلى الأرض، ولا أعرف بعد هذا ما كان .

وفى اليوم الثانى تيقظت نوعا ما، لكن ماكنت أحس بنفسى، بل كان يخيل إلى كأن السماء قد أطبقت على الأرض، أو كأن حملا ثقيلا فوق ظهرى فأنا أنوء به مثقلة متعبـة ؛ وفى لحظات أخرى يخيل إلى كأن هذا الحمل قد أصبح جبلا ، إلا أنه من ثلج ، فتأخذنى الرعدة وأغيب عن الوجود ثانيا ؛ وفى لحظات كنت أتنبه فأذكر أن زوجى قد كشف السر وعرف ما كنت أريد أن لا يعرف فيرعبنى الخوف من هول الخطب وفداحته ، فأتصور فى تلك اللحظات كأن حيوانات الجحيم تمد إلى أعناقا طويلة وأفواها واسعة تريد أن تبتلعنى، أو كأن ناراً أضرمت من حولى وسألقى فيها... آه ! ياهول العذاب ! وسوء مالقيت ... بالاختصار قد عدت إلى

الدنيا مرة أخرى ، ولكن ماعدت لأعيش كما كنت ، بل لألقى جزائى وأتقبل سوء ماصنعت يداى ... فأنا أعيش الآن عيش الحقارة والنذالة ، فزوجى قد أضرب عن دخول البيت ، وتسعة شهور قد ذهبت وهو لم ينس لى جرمى ؛ ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لكان الخطب مما يحتمل أو يهون . . . ولكن هناك أموراً أخرى تسبب العذاب ، وتثير الشجون ، فقد سئم زوجى الحياة وعافها ، فهو يحيا حياة المكره أو المريض الذى أزمن معه داؤه العضال فهو لا يبرأ ، فلا هو حى ولا هو ميت فيستريح .

ولقد أخبرنى (سكرتيره) أن حال المكتب المالية فى سوء مستمر ؛ لأن (البك) لا يواظب على الحضور فيه ، وأن عملاءه لا يجدونه حين يطلبونه ، وحتى إذا وجد فإن أحداً من الناس لا يستطيع الدخول عليه ... وهو الآن لا يترافع فى قضاياه الهامة . . . وقد أضاف السكرتير : أن خيراً لسمعته أن يصفى أعماله . . . تصورى معى ثم ارثى لحالى ، فإن أربعة آلاف أو خمسة آلاف جنيه سنويا كانت إيراداً للمكتب قد ضاعت وعلى شفا أن تضيع نهائياً من أجلى ومن أجل حماقتى ، ثم تصورى الأنكى فى الألم الممض ، ذلك أن الرجل يكاد يموت هو الآخر ...

وابنى وابنتى ماذنبهما إذا كان هذا حظ أبيهما وأمهما المقدور لهما فى سجل الأزل ؟

آه ياسميرة ! ... فالبنت مخطوبة منذ سنتين من موظف كبير ، ونحن منذ هذا الحادث المشئوم نسوف ، فماذا عساه يحدث لو عرف السر ؟ ماذا عساه يقول لو علم أن أم زوجه خاطئة ؟

وابنى البكر ! ذلك الفتى الغض الذى يتيه فى بذلة الضابط يحمل السيف ليدافع عن الوطن ، ماذا يكون حاله لو عرف أن أمه خائنة ؟ ... آه يارب ! ماذا يفعل هذا الشاب الذى يتقد نشاطاً وفرحا بالدنيا لو علم الحقيقة ؟ نعم ! ماذا يعمل بنجومه المضيئة على كتفيه ، وبسيفه اللامع فى يديه إذا عرف أن أمه خاطئة قد خانت ... واستحقت قرارة الجحيم ؟

ثم ماذا أفعل أنا لأرتاح ويذهب هذا العار ؟ أأموت ؟ وكيف أموت إذا كان فى الموت ما ينجى هؤلاء البؤساء ؟ .

أأنحر نفسى ؟ وكيف أنتحر ؟ وماذا يكون نصيب زوجى وأولادى من العار والفضيحة ؟

لقد طلبت الموت ولم أجده ، وأنا الآن حائرة مرتاعة ... ويلاه ! ويلاه ! لقد أصبح الموت غالياً يطلبه الناس ولا يجدونه .

ستسألين : وماذا فعل صاحبك ؟ سأشبع فضولك : لقد مات ، نعم ! مات منتحراً بالسم الأبيض ؛ وها أنا قد خسرت زوجى وخسرت من كان السبب ، ثم إنى على وشك أن أخسر نفسى وأبنائى ...

أليس لهذا الداء من دواء ؟

فى انتظار الجواب . . . أختك : و . ك

طبق الأصل محمد السيد

لويـــــــــزا

للكاتب الفرنسى اندريا تيربت

١٨٣٣ — ١٩٠٧

ترجمها عن الانكليزية

محمد بهجت — الموظف بالمساحة

غادر القطار محطة (سيسترون)، ولم يبق من المسافرين سوى المصور أسبريت كابنديت وأمامه فتاة؛ ولأنه استقل القطار فى بدء رحلته فى الفجر من (بيرتس)، فقد غلبه النوم فراح فى سبات عميق، واستقيظ عند بذوغ الشمس فى الوقت الذى فتحت فيه الفتاة عينيها الناعستين، وألقت الخمار ذا الخيوط السوداء السميكة الذى كانت ترتديه جانبا، وأخذت ترجل شعرها المبعثر الجميل، وتجمل وجهها فى مرآة صغيرة.

ويلوح أنها تناهز الرابعة والعشرين من سنيها، مملوءة صحة، عيناها زرقاوان جميلتان، تشعان شعاعا جذابا، على شفتها العليا خال الجمال.

لاحظ المصور هذا الجمال، وأشداه خصرها النحيل، وقدها الأهيف الجميل، وصدرها الناهد، ويداها البضتان؛ وبينا يرمقها خفية، إذ رآها قد أخرجت من حقيبة سفرها رغيفا من الخبز الجاف، ثم أخذت تبحث فيها عن شىء بلا جدوى، فلما أعياها البحث، استكنت فى مكانها، بعد أن تنهدت تنهدة قصيرة، فأخرج المصور من حقيبته، مدفوعا بعامل الشفقة، قطعة من الشيكولاتة، وقدمها إلى الصبية، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تنم عن طيبة طبعه، ويده اليسرى تعبث بلحيته الجعدة قائلا: اسمحى لى أن أقدم لك قطعة من الشيكولاتة عوضا عما نسيته ...

وبعد تردد، قبلتها شاكرة، واقترحت أن يقبل هو أيضا نصف رغيفها، فقبله؛ وأخذا يأكلان بشهية قوية، بينا كان القطار ينهب سهل (بوش)، فلم يفتهما أن تكتحل أعينهما بمشهد الجبال الشامخة المترامية على بعد سحيق، وكذا الحدائق الغناء النامية حول الدور التى تعلوها، وأن يزودا أنظارهما بمرآى أشجار البرقوق والكريز، والجداول التى تجرى على المنحدرات المنعكسة عليها أشعة الشمس فترى كالفضة الجارية، والكلأ النامى فى المروج والزهر يبدو فيه كالنجوم الساطعة.

وهذه الأكلة البسيطة أزالت الكلفة بينهما ، وفاز المصور بثقة رفيقته ؛ فأخذ يحدثها عن سنه ، وصناعته ، وأشغاله ، وأخبرها أنه آت من (سان روفايل) ، وذاهب إلى (جرينوبل) ليقابل عملاءه بشأن بعض الصور ؛ وهم عائلة واحدة يتجرون فى صنع القفازات ، ليس فيهم فرد يفخر بحسن خلقته ، ينعمون بثروة طائلة ، ومعاملاتهم حسنة ، ثم أخذ يشرح بعبارات تهكمية وصف نماذجه المستقبلة ، فضحكت الفتاة من قرارة نفسها ، وأخذت أواصر الصداقة تستحكم بينهما ؛ وفهمت منه أنه يشتغل فى التصوير ، وفهم هو أيضا منها أنها تدعى الآنسة لويزا ؛ وعرض عليها أن يعمل لها صورة ، على أن تمكث يومين فى (جرينوبل) .

فقالت له وحمرة الخجل تكسر وجنتيها : أشكرك ، ولكنى لن أذهب بعيدا إلى ذاك البلد ، وسأتخلف فى مونستيردى كايرمونت .

وبدأت تقص عليه تاريخ حياتها : فهى مربية تشتغل فى أسرة مسجل فى (اكس) ، يتيمة ، ليس لها من تمت له بصلة القرابة سوى عم وعمة يعيشان فى (مونستير) ، وهما يعملان على زواجها من تاجر معروف هناك أعزب ، ليس له أبناء ، يدعى (ليشوديل) ؛ وهى آتية لزيارتها فى إجازة عيد الفصح ، ولتقابل هذا السيد فى دارهما ، لأنها لم تر سوى صورته الشمسية .

واستمرت فى حديثها بصراحة قائلة :— وإن هذا الرجل قد بلغ من الكبر عتيا ، ذو مظهر لا يبعث على الرضى ؛ غير أنى تعبت من سيطرة الغير على ، ويحزننى أن أحيا وحيدة لا أنعم بمن يبادلنى الحب الذى لم أتذوق أى قطرة منه ، ولو أنى أؤكد أن عشرته لا تسرنى ؛ ولكن أظن أنى سأقبله كزوج .

وبينما كانت تلقى هذه الاعترافات ، كانت تتأوه وشفتاها الحمراوان الجميلتان مفتوحتين قليلا تظهر من بينهما أسنانها اللؤلؤية ، ورأى المصور فى عينيها الزرقاوين الجذابتين ذلك البريق المغرى ، الدال على عذاب المرأة التى تنشد الحب ، وتتلهف عليه ، وتشتاق له ؛ وهذا القول الملقى على عواهنه ، وهذا الاسترخاء بغير حذر ، يغرى على القبل التى تتطلبها شفتاها ، واعترافها الصريح بتعبها من وحدتها فى الحياة ، أيقظ فيه الرغبة إلى مغازلتها ، وتلك العوامل مجتمعة ، بعثت فيه الميل الشديد فى أن يحل محل هذا الشريك المجهول ، الذى تحن هذه الفتاة لقضاء سنى شبابها معه .

فصاح قائلا : عجبا ! أتحكمين على نفسك بالزواج من صاحب حانوت عجوز دميم الخلقة ، وتسجنين فى قرية ؟! هذا أمر مستحيل ! أنت فتاة جميلة ، وليس من حقك أن تضحى بنفسك على هذا الوجه ، وتقضى على فؤادك ، أرجو أن لا تقترفى هذه الحماقة .

وليقوى احتجاجه أمسك بيديها ، فضحكت فى بادىء الأمر واستسلمت إليه ، ولكنه أخذ يضغط عليهما شيئا فشيئا ، ففزعت وحاولت عبثا أن تسحبهما من بين يديه ، وفى أثناء ذلك اعتلا القطار هضبة عالية قد ران عليها الضباب السابح ، ثم اجتاز بعدئذ مرجا أضاءه نور الشمس ، فدفع إلى العربة هواء يحمل بعض الزهور البيضاء الساقطة من أشجار الكريز ، يكسوها الثلج

فامتلأت العربة بأريج الربيع ؛ وسار القطار بعدئذ فجأة فى ظلمة نفق شديد الحلك ، فاستخدم المصور هذا الظرف ، وجلس بجوارها يلاطفها ، ولف ذراعه حول خصرها ، والفتاة فى حيرتها تدافع عن نفسها ، يكسو وجهها الخجل ، ويملأ مشاعرها الوجل ، حتى خرج القطار إلى الضوء ، فعاد إليها بعض الاطمئنان ، بينما كان يناجيها المصور قائلا : دعينى أحبك .

ولم يلبث أن عاد القطار إلى سيره فى نفق ، حتى فزعت لويزا ، إذ شعرت بشفتى رفيقها الجسور ، تنهالان على عينيها وشفتيها تقبيلا ، واعتراها فى الوقت نفسه شبق ورغبة مغرية ، إلا أنها أمالت رأسها وقاومت بضعف ، وأنقذها من هذا الموقف عودة القطار إلى الضوء ووقوفه أمام محطة (سيلنز) ، فتنهدت وتراجعت خجلة ، وقالت : ياإلهى ! سنكون فى أقرب حين فى (منستير) ، فأرجوك أن تدعنى بمفردى ، وانتصبت على قدميها وأمسكت بقلنسوتها ، ونظمت شعرها بسرعة ؛ فأخذها المصور بين ذراعيه ، وقال : ماشأن (مونستير) بنا ؟! أنا أحبك ، ومحال أن أتركك ، إذ لابد لى أن آخذك معى . فتمتمت قائلة : إنك مجنون ، أحمق . وتخلصت منه قليلا ، ونظرت من النافذة فظهرت لها أطراف القرية المنعكسة عليها أشعة الشمس فى وسط الحقول وغابات الصنوبر ، وأمكنها أن تميز محطتها المنعزلة عنها ، ورأت على رصيفها ثلاثة أشباح مجتمعين فى هيأة المستقبلين ، فقالت له : إنى أرى عمى وعمتى ، ولا بد أن يكون ثالثهما السيد (ليشوديل) . فأجابها المصور بدهاء : إنه دميم الخلقة جدا — وقام سداً حائلا بين الفتاة والباب ، وبحركة فجائية أقفل النافذة وبسط ذراعيه ، وقال مؤكدا : كلا لن تكونى ضحية لهذا الشرير ، إنى أحبك ولا بد لى من الاحتفاظ بك .

وبعد أن هدأ سير القطار ، وقف ، وسمع صوت الخفير وهو يجرى بجانب العربات صائحا : مونستيردى كليرمونت !

ولاعتقاد المربية أن كل هذا إن هو إلا دعابة ، حملت حقيبتها ومظلتها ، وقالت : تعال ياسيدى ، وكن جادا ، أفسح لى الطريق .

فأجاب المصور مؤكدا : لا يمكن مادمت حيا .

ثم انهال عليها بالقبلات ، بينما كان صوت العم والعمة مسموعين يناديان لويزا ويطلان على العربات ، ولكن نداءهما ذهب مع الريح ، وحال المصور بجسمه دون رؤيتهما ابنة أخيهما .

وناشدته لويزا والدمع يترقرق فى عينيها أن يفسح لها الطريق ، إذ أن هذا لايليق ، ولكن عبثا كانت تحاول ، فصفر القطار ، وسار ؛ وسرعان ما اختفت المحطة كالحلم ، وقد أوهن لويزا التعب من المقاومة غير المجدية ، فجلست على المقعد ، وحاول المصور أن يطوق خصرها بذراعيه ، فصدته بشدة ، وأخفت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء . وحاول المصور أن يسرى عنها بكلمات عذبة ، غير أنها أخذت تعبر عن كراهيتها واستنكارها لفعله الشائن ، فصمت ، إلى أن وصلا إلى محطة (فيزيل) ، وعندها امتلأت العربة بالمسافرين إلى (جرينوبل)

لقضاء عطلة الأسبوع، واستكنت الفتاة فى ركنها عابسة مولية إياه نصف ظهرها، وأخذ هو يستعرض فى نفسه هذا الفعل الجنونى الذى اقترفه نحو هذه الفتاة، والتبعة التى تقع عليه من جراء ما ارتكبه، ولم يتبادلا أية كلمة حتى وصلا (جرينوبل)، فقادها إلى خارج العربة صامتا وحمل حقيبتها، وهى تنظر إلى مايفعله والخجل والدهشة يملآن مشاعرها فكأنها كالمخدرة، وتبعته منقادة كما ينقاد المنوم. فتأبط ذراعها، وأخذها إلى فندق فى ميدان المحطة، وما أن انفردا فى إحدى غرفه حتى جلست لويزا على مقعد وأخذت تبكى بصوت عال، وتدق يداً بيد كمن فقد الأمل، تنبعث التنهدات من صدرها بحالة تنم عن الحزن الشديد، ففزع المصور لأنه لم يك ينتظر هذا الانفجار الشنيع، وركع أمامها، وأخذ يحاول تهدئتها بضمها إليه، ولكنه كان يحاول عبثا، إذ تضاعفت تأوهاتها، وصدها له بازدراء، وصاحت قائلة: اذهب عنى، لو كان باق فيك ذرة من الشعور الحى، لما أتيت أكثر مما اقترفت، ماأتعس حظى! فسيستعلم أقربائى عنى فى (اكس)، وسوف يكون الرد مما لايثلج له صدرى، وستعتقد تلك الأسرة فى أسوأ الاعتقاد، وعندها أطرد شر طردة يتندى لها الجبين خجلا، وأبقى بلا عمل، كل هذا من جراء خطأك وسوء ظنك، ومعاملتك لى معاملة المرأة السيئة السيرة، لقد فقدت كل شىء!

وتقاطرت دموعها ثانية، وتنازعت العوامل الشديدة فى نفس (اسبريت)، وتأكد من سوء مافعل، وأن ما هى إلا جريمة خطيرة.

والواقع أنه لم يك شريرا، ولم يعرف عنه سوء الخلق، وتجلت أمام نظره جريرته الكبيرة، وهى إرغام امرأة على فعل شائن على كره منها، وآلمه أن يرتكب هذا الجرم نحو هذا المخلوق الجميل الباكى، فافترسه توبيخ الضمير، وعول على أن يكفر عن جرمه، وأن يمحو هذه الاساءة، فقبض فجأة على يدها، وقال لها فى احترام: سامحينى، ولا تندفعى فى الحزن إلى هذا الحد، وسأعود بك توا إلى المحطة، وبذا سيقلك أول قطار يعود إلى (مونستير)، وبهذا أكفر عما فرط منى، وتصفحى عما ارتكبت من طيش ونزق، وتخبرين أهلك أنك كنت نائمة فى القطار ولم تستيقظى إلا فى (جرينوبل)، جففى عينيك فانى وإن كنت قد أجرمت جرما كبيراً غير مغتفر فى نظر العاقلين، غير أنى رجل ذو أخلاق مرضية.

وعاد بها إلى المحطة، واشترى لها تذكرة، واعتلت القطار، فزودها أيضا ببعض الحلوى والفاكهة والكعك، فشعرت بالنجاة، وعادت إلى حالتها الأولى، وهدوئها، وتجلى فى أعينيها الزرقاوين ذلك البريق الجذاب، وارتسمت على شفتيها الحمراوين ابتسامة الشكر له عندما أوصد عليها باب العربة.

وسار القطار، فوقف المصور ينظر إليه، وقد امتدت على عرباته خطوط من الدخان الكثيف ثم تنهد بحزن، وقال: وارحمتاه! فستتزوج السيد ليشوديل! وارحمتاه!

محمد بهجت

بين المتناظرين

— ١ —

تقييد النسل

أثبتنا بالأعداد السابقة من «المعرفة» أن تقييد النسل والزنا ، ماهما إلا جسم واحد لاسمين، فان الغرض منهما على السواء : هو جعل المرأة تمثالا حيا للمضاجعة والتلذذ ، وإن خاف أصحاب هذا المذهب من التصريح برأيهم، وقد اضطربوا إذ جوبهوا بهذه الحقيقة المرة، وقالوا: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

وقبل الكلام فى موضوع «قتل الجنين» أحيل حضرات القراء على ما كتبه بعض أفاضل الأطباء فى موضوعنا السابق باحدى المجلات ، ولو أنهم تكلموا فى هذا الموضوع من ناحيته العمرانية (تكوين الشعوب) وما يترتب عليها من النتائج السياسية .

تكوين الجنين : يتكون الانسان بمجرد اللقاح أى بواسطة اتحاد البذرة الذكر بالبويضة الأنثى فباتحادهما يتكون الانسان تدريجيا ،وفى هذا يقول الدكتور فخرى فرج: (والبذرة الذكر، والبويضة الأنثى، والجاذبية ، هى التناسل، هى الانسان الجديد ، هى الحياة بأكملها) وعلى ذلك يقول : إنه بالجماع ينصب المنى (الذى يقذفه الذكر) فى مهبل المرأة فيسير حيواناته المنوية إلى الرحم ويساعدها فى سيرها حركة امتصاص تحصل فى الرحم نفسه فاذا وصلت إلى الرحم ذهبت إلى البوقين وهناك تتجمع وتعيش بضع أسابيع فاذا صادفتها بويضة لقحتها وإذا لم تتلقح البويضة تموت بعد خروجها من الحويصلة ببضع أيام .

والتلقيح : عبارة عن دخول رأس الحيوان المنوى وجسمه فى البويضة مع سقوط ذنبه فيتحد الرأس بنواة البويضة بعد أن ينفصل عنها جزء كبير منها ويتكون من اتحادهما نواة واحدة وهو يحصل عادة فى بوق (فللو بيوس) .

وليس الجماع ، أو بعبارة أصح ـ إيلاج الذكر فى فرج المرأة ـ شرطا لحصول التلقيح ، بل لقد ثبت علمياً، أنه قد يكفى قذف المنى على باب الفرج ، ولو كانت الفتاة عذراء، أو نائمة أو مخدرة بالبنج ، فان للحيوانات المنوية من الحركة ما يكفى إلى توصيلها إلى البوقين .

ويؤلمنا والحق يقال ، أن هنا عادة منتشرة يطلق عليها الشبان (ضرب الفرشة) ؛ يستعملها

جماع الشبان والشابات فى مصر ، على أمل أن يتحصلوا على اللذة المحرمة ، فى وقت يحافظون فيه على بكارة الفتاة ، أو خيفة حملها ، وقد ظهر أن هذه العادة لم تكن واقية من انتشار الأمراض السرية من ناحية ، ومن حمل الفتاة من ناحية أخرى، وسنتكلم عنها فى موضوع آخر انشاء الله ، فى بحث عن تدهور العائلة المصرية ؛ والمهم الآن فى هذه النقطة ، أنه قد يكفى قذف المنى على باب الفرج ، ليتم الحمل .

ومما يثبت ماذهبنا إليه أولا فى مسألة التلقيح قوله تعالى: «يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث»، وقد يراد بالظلمات ظلمة البطن ، وظلمة الرحم، وظلمة الأغشية المحيطة بالسائل المنوى ؛ أو أن تكون ظلمة المبيض الذى يكون البويضة فى داخل الحويصلة ، ثم ظلمة البويق حينما تتلقح البويضة بالحيوانات المنوية ، ثم ظلمة الرحم الذى يتم فيه صنع الانسان .

وقد اكتشف فى سنة ١٦٩٠ ، العلامة الهولندى (ليونيهوك) ان فى عناصر التذكير ، جراثيماً خيطية الشكل ، شرطها فى تمام اللقاح ، كشرط البويضات التى للأنثى تماما ، وكم كانت دهشة العلماء حين ذلك ، إذ تحققوا أن هذه الجراثيم الخيطية ، حيوانات صحيحة سابحة فى المائع المنوى ، وأنها السبب الموجد للتناسل ، وكم تكون دهشتهم أعم ، لو علموا أن ما اكتشف سنة ١٦٩٠ م ، أنزله الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل اكتشافهم هذا بنحو ألف عام ، قال تعالى : «يأيها الناس ، إن كنتم فى ريب من البعث ، فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام مانشاء ، إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لايعلم بعد علم شيئا» صدق الله العظيم . . .

أخيراً نفهم مما تقدم أن السائل المنوى للذكر حيوانات لها روح وأنها تتحد مع السائل المنوى الانثى فينتج من اتحادهما (الانسان) .

فالشروع فى قتل هذه الحيوانات الصغيرة ، وسلب حياتها ، بالعقاقير الطبية وغيرها ، جريمة فظيعة ، ضد حياة جديدة ، ضد انسان جديد.

وقد نصت المادة ٢٢٥ ع أهلى (كل من أسقط عمداً امرأة حبلى باعطائها أدوية ، أو باستعمال وسائل مؤدية إلى ذلك ، أو بدلالتها عليها ، سواء أكان برضاها، أم لا ، يعاقب بالحبس) وجاء بالمادة ٢٢٦ منه (المرأة التى رضيت بتعاطى الأدوية مع علمها بها ، أو ، أو الخ، وتسبب الاسقاط تعاقب بالعقوبة السابق ذكرها) .

ومن هنا يتضح لنا أن القانون يحكم على من يسقط الجنين ـ وإن كنت أراه متساهلا ، إذ يجب أن يحاكم كقاتل ـ وهذا مما يؤيد نظريتنا .

تقييد النسل : يقول دعاة تقييد النسل إن هذه الحيوانات المنوية تموت فلا مانع من التعجيل بقتلها وسلب حياتها وهذا أغرب ماقيل أوتأويل مدهش وغريب جدا لأننا نفهم جميعا أن جميع الأشياء الروحية مثل النبات والحيوان الاعجم ومنها (الحيوانات المنوية) والتى سبق أن قلنا إنها الانسان الجديد والحياة الجديدة فى دور التكوين لحياتها آجال عند انقضائها تموت بالطبع كما أن بشر هذا العالم مصيره الزوال والموت، أفلأجل أنه صائر إلى الموت نعجل فى موته وهلاكه؟ هذا تفكير عجيب ومدهش، ولله فى خلقه شئون؟

على نجيب

— ٢ —

الدعوة الاسماعيلية وآدابها

رداعلى الاستاذ الهمدانى

للسيد عبدالله أحمد يحى العلوى

الحمدالله — وبعد — فقد رسى إلى مينائى العدد السابع من مجلة « المعرفة »، تلك السفينة العلمية التى عرفت بمواضيعها الشيقة، والتى امتاز رجالها الذين يكتبون فيها بسعة الاطلاع وحرية الفكر، واشتهر محررها وصاحبها الفاضل بالأدب الجم، والفضل الوافر والعلم الغزير؛ فصعدت فى سلمها، وعلوت فوق سطحها، وتجولت فى غرفها؛ وتروضت فى ساحتها، وتفكهت من ثمارها التى تحملها، وتغذيت من طعامها ماشاء الله لى ذلك فرحى مرحى!!

ومن بين تلك الغرف التى زرتها وأنست بها واطمأننت إليها، غرفة الدكتور حسين الهمدانى، وقد أعجبتنى طلاوة حديثة عن الدعوة الاسماعيلية وآدابها كثيراً، غير أنه استوقفنى فيها حادث تاريخى، أرى أن الدكتور الهمدانى قد كبا جواده فيه (والله أعلم) لاعن عمد؛ وإنما لعله لتحريف فى المصادر التى نقل منها.

فللحقيقة والتاريخ أخذت اليراع وكتبت مايأتى، لأشارك الدكتور فى بعض نقط من مبحثه الجليل، وليكون لى بواسطة « المعرفة » فى هذا، الفضل الاول فى التعارف معه على بعد الشقة وطول المسافة.

جاء فى مقالته فى صفحة ٧٩٨ مانصه (ولما توطدت الدعوة للداعى الصليحى وصارت فى حوزته جميع البلاد اليمنية من أقصاها إلى أقصاها ترك امرأته الحرة المصونة الصليحية أسماء بنت شهاب بمدينة صنعاء والية عليها لتوجهه لحج البيت بمكه الشريفة الخ) ثم قال بعد أسطر (وجد عزم السلطان الصليحى للحج للبيت مرة ثانية الخ).

والمعروف عن تواريخ اليمن أن الداعي على الصليحى رحل إلى مكة مرتين فى سنة ٤٥٩ ﻫ وفى سنة ٤٧٣ ﻫ، وفى كلتا الرحلتين صحبته زوجته أسماء بنت شهاب كما سيظهر مما ننقله فيما يأتى عن بعض مؤرخى اليمن، لا كما يقول الدكتور الهمدانى: إنه تركها فى حجه الأول بمدينة صنعاء، فان الداعى الصليحى - وهو ممن جمع بين دولتى الملك والأدب - كان معجبا بزوجته الفاضلة أسماء جد الاعجاب. وكان أدبه الجم يأبى عليه أن يبقى حليلته الكاملة العاقلة الكريمة الحازمة المدبرة بعيدة عنه، كيف لا وقد أصبحت يده الثانية؟ فلذا رأى أن يصحبها معه فى رحلاته وغزواته ليضم إلى دولتيه دولة الكمال من ربات الحجال، وفى كلتا رحلتيه إلى الحجاز أناب عنه فى إدارة الملك ابنه المكرم أحمد، لا كما يقول الدكتور الهمدانى: إنه ترك فى رحلته الاولى لزوجته أسماء والية على مدينة صنعاء.

جاء فى قرة العيون بأخبار اليمن الميمون لمؤلفه العلامة وجيه الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الديبعى عند ذكر ظهور الدولة الصليحية ما يأتى: « وأقام بصنعاء إلى سنة تسع وخمسين وأربعمائة، ثم توجه إلى مكة واستخلف ابنه المكرم على الملك، وسارت أسماء بنت شهاب أم ولده المكرم، وكانت من أعيان النساء مقصورة يمدح بها زوجها وابنها، وكان الصليحى يكل إليها التدبير ولا يخالفها لكمالها، ويجلها إجلالا عظيما، وكانت لا تستر وجهها من الحاضرين، وكان فيها من الكرم والحزم والتدبير مالم يكن فى غيرها، وفيها يقول الشاعر ابن القم:

قلت إذ عظموا لبلقيس عرشاً دست أسماء من ذرى النجم أسمى

فلما أراد الصليحى التقدم إلى مكة سار فى خمسين ملكا من ملوك اليمن (وهذه هى الرحلة الثانية إلى مكة) وفى مائة أو سبعين من آل الصليحى وفى ألفى فارس الخ »

وورد فى كتاب بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد فى ذكر ملوك الحبشة باليمن من آل نجاح وذكر الصليحيين، للمؤرخ الديبعى المذكور مانصه: « ولم يزل هذه أحواله أعنى الصليحى إلى شهر ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وعزم على التوجه إلى مكة حرسها الله تعالى فاستخلف ابنه المكرم على الملك وسار فى ألفين فارس الخ »

ثم قال بعد كلام فى كيفية مقتل الصليحى ما يأتى: « وجمع الأحول آل الصليحى خاصة فقتلهم رمياً بالحراب وأخذ أسماء بنت شهاب زوج الصليحى فأركبها هودجها الخ » ومن هنا نعرف أن أسماء صحبت زوجها فى الرحلة الثانية ولم تكن بصنعاء والية عليها كما صحبته للحج فى الرحلة الأولى بصريح كلام المؤرخ الديبعى الاخير.

(البقية على الصفحة رقم ١٤٠٤)

العلوم والفنون

الرصاص كوقاء ضد أشعة الراديوم

كان الراديوم معتبرا ، عند العالم والرجل العادى، على شيء من الابهام منذ اكتشفته عائلة كورى فى ابتداء القرن الحالى . وحقيقة يحيط بهذا المعدن جو من الغرابة يخيل لغير العالم أن أولئك النفر الذين يشتغلون فى تجاريب هذا المعدن بارتدائهم هذه الأردية الغريبة إنما يشتغلون بالسحر كمن يريد تحضير أرواح الجن والشياطين .

فالراديوم هو تلك الأشعة القاتلة التى وردت كثيرا على ألسنة الروائيين وتحققت فى عالم العلوم . وقد جاء فى كتاب « مبادىء نظرية الراديوم » للعالم (هايواردينش)، عضو الجمعية الكيمائية الملكية : أن الاستعمال المتواصل ـ ولو لمدة قصيرة ـ لهذا المعدن أثناء التجارب يغير من أشكال أصابع وأيدى العمال الذين يشتغلون فى هذه التجارب ، ولابد من اتخاذ احتياطات سريعة وقوية ؛ فالراديوم يحرق، ولذلك يجب أن تكون الأجهزة ذات مقابض خشبية أومغطاة بالمطاط بطول قدم على الأقل ، ويجب أن تغطى الأيدى بقفازات من الجلد السميك جدا، وذلك وقاية من تأثير الاحتراق الناتج من الاشعاع ، ويجب أن يجلس المشتغلون بهذه التجاريب على مناضد مغطاة بالرصاص على سمك خمس سنتمترات على الأقل وأن تغطى صدورهم بدروع مثبتة نهاياتها فى المنضدة لتحجز كل الأشعة وتمنعها من الوصول إلى الجسم والرأس .

آلة كاتبة حديثة

رؤى أن المكاتبات بين المصالح فى انجلترا تستغرق زمنا فى انتقالها فاخترعت آلة كاتبة حديثة تسمى « التلفون الكاتب » وبها يمكن أن تنقل المراسلات والتقارير وغير ذلك فى الحال من مصلحة إلى أخرى بحيث يكون فى كل منهما هذه الآلة اختبار قوة احتمال المطاط فى الدراجات .

واخترعت مصلحة البريد آلة حديثة يمكن بها معرفة الزمن الذى تحتمله دراجة ساعى البريد ؛ وهكذا يتقدم العلم فى كل شيء ، ويحاسبون العامل على كل دقيقة من عمله.

التلفون اللاسلكى

افتتح الرئيس مستر ماكدونالد الخط التلفونى اللاسلكى بين انجلترا وجنوب أفريقيا فى أول فبراير الماضى، وكان الصوت واضحا؛ فقد كبر بالميكروفون بحيث صار مسموعا للكثيرين .

مكتبة المعرفة

ماضى الحجاز وحاضره

وضع السيد حسين بن محمد بن ناصيف ، أحد أدباء نجد ، كتابا قيما ، واسع الجنبات رحيب الصفحات ، عن الحسين بن على ، تناول فيه ولادته ونشأته وتربيته وتعليمه ، وإبعاده عن مكة ، وإقامته بالاستانة ، وتوليه الامارة ، فعوائده وحروبه وأعماله ، فخلافته ، ومبايعته ؛ وقد حلل كل ذلك تحليلا دقيقاً ، فى أسلوب تاريخى صادق ، وقد أيد ماذكر بالوثائق والمستندات والاتفاقيات إلى غير ذلك مما يدعم الأغراض التى وضع من أجلها الكتاب .

فنثنى على همة الكاتب ، ونرجو لكتابه الذيوع والانتشار .

مجلة الدجاج

طلع علينا صديقنا الفاضل الأستاذ الدكتور أبو شادى ، بمجلة علمية نفيسة ، أسماها « الدجاج » لا تقل فى بحوثها ، وموضوعاتها ، وإتقانها ، وطرق تنظيمها ، عن زميلتها « مملكة النحل » .

و « الدجاج » ، تعد أول مجلة من نوعها فى مصر ، فهى « تعمل على نشر أحدث المبادىء الاصلاحية ، ورائدها التضافر مع الحكومة ، ومجالس المديريات ، وجمعيات التعاون ، للنهوض بتربية الدجاج المصرية إلى أرقى مستوى يتفق وأهميتها ، كصناعة زراعية منتجة » .

وهذا كله بعض الأغراض النبيلة ، التى توفر على إنجاحها ، الأستاذ الدكتور أبو شادى بما وهبه الله من علم غزير ونشاط وفير .

ونحن نتمنى لهذه المجلة الفنية ، الرقى والذيوع والنجاح . وهى تطلب من إدارتها الكائنة بشارع الملك المعز رقم ٩ بضاحية المطرية بمصر ، أو من المكاتب الشهيرة ، وبدل اشتراكها ثلاثون قرشاً مصرياً .

رباعيات الخيام

أهدانا الأستاذ الشيخ ابراهيم يوسف صاحب مكتبة الأهرام ، نسخة من رباعيات الخيام ، التى ترجمها الأستاذ أحمد رامى شاعر الشباب ، عن اللغة الفارسية نظما ، وقد تصفحناها ، فاذا بها تحفة من تحف الأدب الفنى الطريف ؛ وقد اعتمد الأستاذ رامى فى ترجمته على مصادر عديدة صادقة ، متباينة اللغات ، مابين مخطوط ومطبوع ، شرقية وغربية ، وقد قدم ترجمته بمقدمة نفيسة تناول فيها بالبحث والتحليل : حياة الخيام ، ومذهبه ، وعصره الذى

نشأ فيه ، بما لايدع مجالا للشك فى أن المترجم صرف جهوداً كثيرة ، فى دراسة الخيام دراسة صادقة ، ومما نسوقه للقارىء للدلالة على ماتمتاز به هذه الترجمة فى محاكاة الأصل قوله:

بات نديمى ذو السنايا الوضاح وبيننا زهر أنيق وراح
وافتض من لؤلؤ أصدافها فافتر فى الآفاق ثغر الصباح

ومنها :

أحس فى نفسى دبيب الهناء ولم أصب فى العيش إلا الشقاء
ياحسرة إن حان حينى ولم يتح لفكرى حل لغز القضاء

والترجمة تقع فى ١١٢ صفحة فى حجم الورق المتوسط وتطلب من ناشرها بشارع محمد على بمصر.

الدهور

اسم لمجلة انتقادية ، فى العلم والفلسفة والأدب لصاحبها ومحررها الأستاذ ابراهيم حداد وهى تصدر فى بيروت أول كل شهر ، وقد تصفحناها فاذا بها مليئة بالابحاث العلمية النافعة والآراء الفكرية الحديثة ،مما يحتاج إليه طلاب الثقافة ، ومحبو الاطلاع ،فنحث القراء على اقتنائها .

بين المتناظرين

بقية المنشور على الصفحة رقم (١٤٠١)

وجاء فى مقالة الدكتور الهمدانى أيضاً مانصه : «ولما اطمانت الأمور للملك المكرم واستقرت الأحوال أشارت عليه امرأته الحرة السيدة إبنة أحمد أن يجعل (ذى جبلة) دار قراره وأن يتحصن فيها بجنوده ، فعمل بمشورتها واتخذ ذى جبلة مسكناً ثم أصابه الفالج وقوى عليه،فأشار عليه الأطباء بالاحتجاب عن الناس وصرف أمر الدعوة والملك إلى امرأته الحرة السيدة الصليحية الخ».

والمعلوم عن تواريخ اليمن أن إصابة الفالج الملك المكرم كانت عقب دخوله زبيد وإنقاذه لوالدته من الأسر،فقد دهمه الفالج وهو عرقان إثر تلك المعركة التى أبلى فيها بلاءحسناً،لا بعد اتخاذه لذى جبلة مقراً كما يفهم من صريح مقال الدكتور الهمدانى . ويؤيد هذا ماجاء فى كتاب بغية المستفيد بالحرف قال : (ودخلت العرب زبيد قهراً . وكان أول فارس وقف تحت طاق السماء ولدها المكرم، فقال لها: أدام الله عزك يامولاتنا ؛ فقالت له مرحبا ياوجه العرب،ولم تعرفه فسألته من هو؟ فانتسب لها فقال أحمد بن على فقالت :أحمد بن على فى العرب كثير،وأمرته برفع المغفر فرفعه وهو يتصبب عرقاً من المعركة؛ فعرفته.فقالت : مرحباً بمولانا المكرم؛ وروى أنها قالت له حينئذ: من كان مجيئه كمجيئك فما أبطأ ولا أخطأ، فأصابته ريح ارتعش لها فاختلجت بشرة وجهه الخ).

ويؤكد هذا أيضاً مافى كتاب قرة العيون،ولولا خوف السآمة لأثبتنا ،وكفى من الكأس جرعة؟

الحديدة عبدالله بن أحمد بن يحيى العلوى

بين المعرفة وقرائها

كيف يصبح أديبا

(اسكندرية . مصر — عبد العزيز أحمد حلابة) كيف يستطيع الكاتب الناشيء أن يصبح أديبا ؟ وماهي الكتب التي تشيرون عليه لدراستها لتحقيق هذه الأمنية ؟

(المعرفة) يرى بعض علماء الأدب أن الأدب رياضة، وإذن فهو يخضع لحدود العلم وأوضاع الاستقراء ، ونحن نعتقد بأن الأدب فن ، فان صح هذا: وهو مالا نشك فيه، فلا يخضع لحدود ولا يتقيد بأوضاع ، وإنما هو وحي الخاطر ومنطق السليقة، على أنه لا بأس من إنماء هذه الملكة وتزكيتها بالاطلاع، والدرس في قديم كتب الأدب وحديثها ، وقد نرى - إذا كان ثمة مجال للتخصيص - أن ننصحك بقراءة ما يأتي :

الكتب الأربعة، أو كتب الأدب الأربعة على حد تعبير ابن خلدون، وهي : البيان والتبيين للجاحظ ، الكامل للمبرد ، العقد الفريد لابن عبد ربه ، الأمالي لأبي علي القالي؛ ولا بأس من درس كتب النقد الأدبي : كالعمدة لابن رشيق وكتاب القيرواني، وكتب المحدثين: كهيكل، وطه حسين، والرافعي، وزكي مبارك، والمازني الخ .

ولا بد من الرجوع إلى الموسوعات العربية والافرنجية ، والالمام بشيء من آراء ويلز الانجليزي، وقصص أناتول فرانس، ونظريات شوبنهور، ومقدمة ابن خلدون.

كثرة النسل

(عمروس. مصر — بهجت عبد الرحمن) تزوجتها من عشرة أعوام، فولدت مني سبعة أطفال ، فكرهت المعيشة، مع [illegible] تحبني وأخاف المزيد وحالتي المالية لا تساعد فهل من علاج غير الطلاق ؟

(المعرفة) كنا نود [illegible] يأتي ذكر الطلاق على لسان السائل فان ذلك يشعر بالضعف ، ثم أليس في قولك (الطلاق) منافاة لدعوى الحب الذي زعمت . إننا نعتقد أن مسألة كثرة النسل إنما هي مسألة عمرانية ، ولا يجوز للانسان المحب لوطنه ، أن يكره كثرة أولاده، ويسعى للتخلص منها ، وإننا نرى أن مسألة الرزق التي يرتب عليها السائل خوفه وإشفاقه مسألة تتعلق بارادة الله أولا ثم بسعي الشخص ثانيا ، وما عليه إلا أن يسعى لما فيه السعادة لبيته ؛

ويرى آخرون وجوب مساعدة الحكومة والجماعات للعائلين كالمتبع في فرنسا وألمانيا ، بينما يرى فريق ثان وجوب تقييد النسل بأدوية خاصة ، ولسنا مع هذين الرأيين ، لما في الأول من الاعتماد على الغير ، وما في الثاني من مخالفة الشريعة والطبيعة .

علم الفقيرزم

(القاهرة مصر — أحمد فتحي ناصف —) ماهو علم الفقيرزم وماذا يقصد به !؟

(المعرفة) علم الفقيرزم من العلوم الروحية الهندية القديمة ، وهو في الواقع يقوم على تصفية

الروح وتخليص النفس من الغلف الجسدانيـة،وذلك بتعويدها على تحمل المشاق واستثارة الآلام وغير ذلك مما يختلط فى بعض النواحى بشىء ـ ليس بالقليل ـ من الشعوذة: كالوقوف على قدم واحدة لمدة شهر أو اثنين أو أكثر، وكوضع بعض الأسياخ المحماة بالنار فى الأنوف، وكايقافه الدورة الدموية لمدة تتراوح بين الدقائق والساعات، بل تتراوح بين الساعات والأيام الخ...وهو يعتمد فى اساطيره على مخلفات البراهمة الأقدمين .

قرارات المؤتمر الاسلامى

(أم درمان . سودان ـــ محمد الطيب) لماذا لم تنشروا قرارات المؤتمر الاسلامى وهى مهمة جدا لدى العالم الاسلامى ، وهل لـكم أن تقوموا بنشرها ؟

(المعرفة) كنا نود ذلك لولا أنها نشرت فى الصحف السيارة ، وبما أننا لا ننشر ماسبقتنا اليه الصحف الأخرى، فانا نأسف لعدم استطاعتنا ذلك إلا لضرورة .

خرافة

(اسكندرية .مصر ـــ ابن شامة الاسكندرانى) كثيرا مانسمع من الأمهات من تقول لطفلها (اسم الله عليك وعلى أختك ، وقعت على أحسن منك) ، وكذا لبنتها (اسم الله عليك وعلى أخيك) فما أصل ذلك وما معناه ؟

(المعرفة) هناك أسطورة قديمة تقول: إنه عندما يولد من بنى الانسان طفل تولد فى نفس اللحظة قرينة له من الجان، وكذلك إذا ولدت طفلة ولد قرين لها من الجان ، فلكى ترضى السيدة هذا القرين أو تلك القرينة تقول لطفلتها أو لطفلها هذه الجملة درأ لعطف الجان على أطفالها حتى لا يصيبوهم بأذى ما .

وهذه خرافة من الخرافات الشائعة فى الأسرة المصرية والتى يجب أن نتخلص منها .

كلمة صوفى

(شبين الـكوم . مصر ـ ابراهيم محمد بجمعية المساعى المشكورة) وعدتم قراء المعرفة بنشر رد لـكم على رد الأستاذ مرجليوث فى مسألة (منشأ كلمة التصوف) وقد صدر العدد الأخير ولم يكن به هذا الرد ، وكلنا شغوف بنتيجة الجدل فى هذا الموضوع الخطير، فأرجو ألا تحرموا قراءكم من نشره فى العدد التالى .

(المعرفة) لقد أثار هذا البحث جدلا طويلا وسبب لنا مشاغل عدة لتعدد الرسائل المتباينة التى وردتنا فيه ، فرأينا الاكتفاء بما نشرناه حتى لا تكون زوبعة .

أما رأيى الشخصى والذى لا أتحول عنه: فهو أن الكلمة يونانية الأصل والمنبت، وأحيلكم على ما كتبته حول هذا الموضوع فى الجزئين: الثالث والرابع من المجلة .